أحوال النفس

بين الهدم والبناء

حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتـــاب: أحوال النفس بين الهدم والبناء

تـأليـــــــف: محمد مغاوري التمري القـطـــــع: 14*20

تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح سنـة النشـر: 2024

النـاشـــــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 28784 / 2024

الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 572 - 5

دار الزيات للنشر والتوزيع

المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-572-5

9 789778 445725

أحوال النفس

بين الهدم والبناء

خواطر دينية - رقائق

محمد مغاوري التمري

١- كن من الغرباء!

ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا

هذا شطر من بيت للصحابي الجليل عمرو بن معديكرب، لا أصبر على سماعه أو قراءته، حتى يقتحم القلب اقتحاما ما شاء الله (تعالى) من ذكرى السالفين من الأحباب والصحب، فيتململ الفؤاد مما يجد من وَجْد الفراق، وتَسْجُم [١] العين عَبَرَاتُها مدرارًا، ويفك العقل عقاله أو يكاد لولا لطف الله بتثبيته، وتحملك الذكريات عبر الزمان والمكان فتظل حبيسة في قفصها الذهبي حتى يُسرِّى الله عن القلب والعقل والعين جميعا برحمة منه وفضل.

ليس منا إلا وفاقد لحبيب أو مفارقه، وأيا كانت الأسباب فالفراق واحد وأثره في القلب شديد، فسبحان الذي كتب على نفسه البقاء، وكتب الفناء على خلقه، ولو كان أحد باقيًا لكان الأنبياء، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، فالحمد لله العلي القدير.

ولعل المرء إذا ارتحل بجسده في الأمصار يبقى له أمل العودة فيلقى الخلان والأصحاب والأحباب، فتزيل اللقيا أثر البين، وتمحو العودة أثر الترحال، لكن ثمت غربة لا ينفع معها لقيا ولا يمحو مرارتها حلو الأنس بالأصحاب، و هي بالأحرى غربتان وليست غربة واحدة؛ غربة الدين، وغربة العقل، فكما للدين غربة، للعقل غربة... وهوان تلك الغربة ليس بالمقصد الهين، ولا المطلب الوَطِيء، وإن تلك الغربة قد تهون بمن كان حاله حالك ومقصده مقصدك وقلبه قلبك، وعقله عقلك، وقد

١- سَجَمَتِ العين الدمع والسحابةُ الماء تَسْجِمُه وتَسْجُمُ سَجْماً وسُجُوماً وسَجَماناً: وهو قَطَران الدمع وسَيَلانه، قليلاً كان أَكثيراً (لسان العرب)

تزداد قساوة وشدة بمن قصرت به الطريق ففقدناه فلم يعد يواسي غربة أديانا وعقولنا.
وقد ورد في حلية الأولياء أن الْعَبَّاسَ التُّرْقُفِيَّ، يَقُولُ: خَرَجَ عَلَيْنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، يَوْمًا فَنَظَرَ إِلَى أَصْحَابِ الْحَدِيثِ، فَقَالَ: " أَفِيكُمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ؟"
فَقَالُوا:" نَعَمْ " فَقَالَ:" مَا فَعَلَ فِيكُمُ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ؟" فَقَالُوا:" تُوُفِّيَ."
فَقَالَ:" أَفِيكُمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الرَّمْلَةِ؟" فَقَالُوا:" نَعَمْ !" فَقَالَ:" مَا فَعَلَ ضَمْرَةُ بْنُ رَبِيعَةَ الرَّمْلِيُّ؟" قَالُوا:" تُوُفِّيَ."
قَالَ:" هَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ حِمْصَ؟" قَالُوا:" نَعَمْ !" قَالَ:" مَا فَعَلَ بَقِيَّةُ بْنُ الْوَلِيدِ؟" قَالُوا:" تُوُفِّيَ."
قَالَ:" هَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ دِمَشْقَ؟" قَالُوا:" نَعَمْ!" قَالَ:" مَا فَعَلَ الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ؟" قَالُوا:" تُوُفِّيَ."
فَقَالَ:" هَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ قيسَارِيَّةَ؟" قَالُوا:" نَعَمْ !" فَقَالَ:" مَا فَعَلَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ الْفِرْيَابِيُّ؟" قَالُوا:"تُوُفِّيَ." قَالَ: فَبَكَى طَوِيلا، ثُمَّ أَنْشَدَ يَقُولُ:

خَلَتِ الدِّيَارُ فَسُدْتُ غَيْرَ مُسَوَّدِ.... وَمِنَ الشَّقَاءِ تَفَرُّدِي بِالسُّؤْدَدِ. [1]

فها هو ذا إمام الدنيا في زمانه سفيان بن عيينة رقَّ، وهاجت عليه نفسه، وحزن حزنا عظيما لفقدانه نظرائه من أهل الفضل والعلم، على ما كان بينهم من خلاف في مسائل الفقه، فلم تمنعه تلك الخصومة، ولا ذلك الاختلاف أن يبكي من كان صاحب دربه في غربتي الدين والعقل، وكان بكائه (رحمه الله) لما فقد من الفضل والبركة والخير، وإن اختلف معهم.

---

[1] - أبو نعيم الأصفهاني. (١٩٣٧). حلية الأولياء. القاهرة: مكتبة الخانجي. (ص:٢٩٧)

وكان من نعمة العقل الصبر على فراق من ذهبوا، والرضا بقضاء الله وحمده، ويبقى أحدنا كالسيف فردا، ماضيا حاسما و مستقيما، وإن كان واحدا، فسلام على من علمونا، وسلام على من شاركونا عقولهم وألبابهم، وسلام على من ناطحت عقولنا عقولهم، في غير جدل ولا ريبة، فزادوها قوة وبأسا، فهم من جعلونا سيوفا بتارة، ويبقى أثرهم نورا وبصيرة في عقولنا، وسلام عليهم لأنهم كانوا معنا من الغرباء، يهونون الغربة، ويشدون الأذر دون أن يتحدثوا إلينا أو نراهم، لكن آثارهم بقيت لنا حتى إذا رأيناها ظننا أن هذا من فعل أيدينا وعقولنا، قد فعلنها قبلا لكننا نسينا، حتى إذا تدبرنا وجدناها من فعل إخوة لنا حتى لو كانوا خصومنا في ساحة من ساحات الشرف والعزة والفضل، فعلمنا يقينا أن هناك ما يجمعنا؛ دين ندين الله به ونحرص عليه ونسعى إلى إقامته في أنفسنا ومجتمعاتنا كل بحسب ما آتاه الله من علم وهمة، وعقل يزين منطقنا ويضبط اختلافاتنا ويسيطر على نَزَعَاتِنا ويعلي عندنا الإنصاف و يجعلنا دعاة فضل وهدى.

إن هؤلاء الغرباء لا ينطبق عليهم المعنى المتبادر إلى الذهن مما ورد في معاجم اللغة، لأن غربتهم لا تكون بالأبدان ولا عن الأوطان، بل هي غربة تبدؤون بالشعور بها عند سبوغ الدين وتمام العقل، فتجد أهلها لهم تلك السمات الفريدة والعلامات المميزة التي ما يفتأ أحدهم أن يراها في صاحبه حتى يعرفها ويعرفه، فيعلم أنه قد وجد إلف روحه، وغريب مثله شاركه همه فهو يتقوى به و يعتضد.

وهؤلاء الصنف خاصة هم من دعا لهم النبي (صلى الله عليه وسلم) فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال:" بدأ الإسلامُ غريبًا وسيعودُ غريبًا كما بدأ، فطُوبى للغرباءِ. وفي روايةٍ قيل يا رسولَ اللهِ: مَن الغرباءُ؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد

الناسُ، وفي لفظٍ آخرَ قال: هم الذين يُصلِحون ما أفسد الناسُ من سنتي." [1]
فلا تبتأس إن كنت منهم، ولا تحزن فأنت ممن دعا لهم النبي بالبركة والمغفرة والرحمة، فكن صحبة مع أهلك من الغرباء، فإن لم تجد عش مثل السيف فردا.

---

١ - رواه أحمد (٦/ ٣٢٥)، ومسلم (١٤٥) والترمذي (٢٦٢٩)، والدارمي (٢/ ٣١١)

٢- الخصوصية.

قال(تعالى): " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧: النور)

وقال (تعالى):" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨: النور)

وعن أبي هريرة قال: قال أبو القاسم (صلى الله عليه وسلم):" لو أن امرأ اطَّلع عليك بغير إذن فحذفته بعصاة ففقأت عينه لم يكن عليك جناح." [١]

وعن عقبة بن عامر (رضي الله عنه) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" إياكم والدخول على النساء!"، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟ قال:" الحمو الموت" [٢]

عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا) [٣]

---

١ - رواه البخاري (٦٩٠٢) ، ومسلم (٢١٥٨)

٢ - رواه البخاري (٥٢٣٢)

٣ - رواه مسلم (١٤٣٧)

عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال:" إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانا." [1]

تلك النصوص الشرعية الواضحة الدلالة، على خُلُق من أعظم أخلاق الإسلام، وأكثرها افتقادًا في واقعنا المعاصر، وأشدها تأثيرًا في ضبط حياة الفرد، وسلامة المجتمعات، وهي احترام ما نسميه اصطلاحا (الخصوصية).

إن خصوصية الإنسان كمصطلح اصطلح عليه الناس فيها من المعاني والآداب الشرعية التي تبين وتحفظ حقوق العباد، فتجد معانٍ مثل الستر، وصيانة العرض، والسلامة من الريب، وسلامة الصدر بين الناس، والكف عن مقدمات الكبائر كالزنا والغيبة، فتدبر ذلك الأمر كيف عظم الله قدره ووضع ضوابطه في شريعته الغراء من كتاب وسنة، فكان منهاجًا قويمًا، ومعيارًا لكل من أراد أن يقيس عليه خلقه وأفعاله، وشدد النبي على انتهاكه، فكان جزاء من اعتدى على خصوصيتك وانتهك حرمة بيتك، ولو بمجرد النظر، أن تفقأ عينه، ليعلم عظم جرمه وما اقترفه في حق غيره، وهو لا يلقي له بالًا، ولا يكاد يرى فعله ذا شأن.

وتحت العديد من الدعاوى ينتهك الناس تلك الخصوصية، كدعوى القرابة أو النسب، لكن قول النبي (صلى الله عليه وسلم) هو الفصل في ذلك الأمر، فقطع الطريق على كل من أراد أن يسلك فجا غير فج الفضيلة والإحسان، فكان جوابه (الحمو الموت)، ولم يتكلم النبي (صلى الله عليه وسلم) عن نية أو عادات وتقاليد، لكون كثير من الناس ممن يحتجون بسلامة النية على القيام بعمل نهى عنه النبي (صلى الله عليه وسلم)، أو تركه، وقد كذبوا ورب الكعبة، فما كان هناك أسلم ولا

---

[1] - رواه البخاري (٥٧١٧)

أنقى ولا أطهر من سيد ولد آدم، وهو مع ذلك نهي أمته عن هذا الفعل، فضلا عن عدم فعله.

وهناك ثانية الطوام فمن الناس من ينتهك تلك الخصوصية تحت دعوى الإعلام والخبر، شتان بين من يبصِّر الناس ويعلمهم ويوعيهم بحقائق الأمور، ممن يتلمس الفضائح حتى تكون سبب شهرته، أو يستذل بها شخص وإن كان عاصيا، فأين هو من قول النبي (صلى الله عليه وسلم):" مَن سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَومَ القِيَامَةِ" [1] وهذا من أرجى ما يجعل المرء يتفكر ألف مرة قبل أن ينتهك خصوصية الناس.

ثم باب ثالث لم يفتحه الناس على أنفسهم في هذا الزمان وحسب، بل كسروه كسرًا فلم يعد لديهم ما يردون به بَرَدٌ إذا تساقط، أو سَهَامٌ إذ هبت [2] و هو ما يعرفه أهل الزمان (بوسائل التواصل الاجتماعي) ذلك الباب المشرَّع الذي اختار الناس أن ينزعوه من مكانه فصاروا كعارض عِرْضِه ومتاعه وأسراره على رؤوس الأشهاد، أو كالذي استبدل جدران منزله بزجاج، فالناس بين روحة وغدوة ينظرون، فلا البيت له جدران تستره ولا الباب موجود فيطرقه الداخل أو المُستَأْذِن فينبهه.
فهم في ذلك منتهكون لخصوصية أنفسهم بأنفسهم،

---

[1] - رواه البخاري واللفظ له (٢٤٤٢) ، ومسلم (٢٥٨٠)، وابن ماجة (٢٠٧٨)، وأبو داوود (٤٨٩٣)

[2] - السَّهامُ، بالفتح: حَرُّ رِيحِ السَّمُومِ أوْ حَرُّ وَهْجِ الصَّيْفِ. وهي حَرُّ السَّمُومِ (لسان العرب).

فتلك الخصوصية التي أصبحت منتهكة، تحت دعوى النقد، والرأي و الرأي الآخر، ودعوى التحرر والانفتاح على عوالم أخرى، قد وضع لها النبي شروطا واضحة، ففي الحديث أن رسولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) صعد المنبر فنادَى بصوتٍ رفيعٍ فقال:" يا معشرَ من أسلمَ بلسانهِ ولم يُفضِ الإيمانُ إلى قلبهِ، لا تُؤذُوا المسلمينَ ولا تُعيّروهُم ولا تَتّبعوا عوراتهِم، فإنه من يتبِعْ عورةَ أخيهِ المسلمِ تتبعَ اللهُ عورتَهُ، ومن يتبعِ اللهُ عورتهُ يفضحْه ولو في جوفِ رحلهِ". [1]

فاحترموا خصوصية بعضكم البعض ولا تنتهكوها، وحافظوا على خصوصية أنفسكم، ولا تكونوا من المجاهرين، أو المفضوحين الذين يفضحون أنفسهم، فتلك من أخلاق الأنبياء والصالحين.

---

[1] - رواه الترمذي (٢٠٣٢) واللفظ له، وابن حبان (٥٧٦٣)، أبو داود (٤٨٨٠)، وأحمد (١٩٧٧٦)

٣- احذر المنحنى!

لِكــُلِّ شَيْءٍ إِذَا مــَا تــَمَّ نُقْصــَانُ * فــَلَا يُغــَرَّ بِطِيــبِ العــَيْشِ إِنْسَــانُ
هــِيَ الأمــُورُ كــَمَا شَــاهَدْتُهَا دُوَلٌ * مــَنْ سَرَّهُ زَمــَنٌ ســَاءتْهُ أَزْمــَانُ
وهــذهِ الــدارُ لا تُبْقــي عــلى أحــدٍ * ولا يــدومُ عــلى حــالٍ لهــا شــانُ
يمــُزق الــدهرُ حــتمًا كــلَّ ســابغةٍ * إذا نَبــَتْ مَشــرَفِيات وخَرصــانُ
ويَنتَضــي كــلَّ سـيفٍ للفنــاءِ ولــو * كــانَ ابــنَ ذي يــَزَنٍ والغِمــدَ غِمــدانُ
أيــنَ المُلــوكُ ذوو التيجــانِ مــن يمَــنٍ * وأيــنَ مــِنْهُمْ أكَالِيــلٌ وتِيجــانُ
وأيــنَ مــا شــَادَهُ شــَدَّادُ في إرمٍ * وأيــن مــا سَاسَــه في الفــرس ساســانُ

أبيات صاغها أبو البقاء الرندي (لله دره) في رثاء درة تاج المسلمين آنذاك، قالها لما سقطت الأندلس بعدما كانت في علياء وسماء، قالها لما هبطت من علو الثريا إلى مَبَارك الثرى، في منحنى عجيب متسارع، ذلك المنحنى الذي تسقط فيه الأمم والأفراد على حد سواء، وكلاهما يمد صاحبه بأسباب، فترى المرء يتقلب في منحنيات ترفعه حينا وتخفضه أحيانا، فهاك بعضا من تلك المنحنيات علك تنجو منها أو تصيب من بعضها نفعا.

منحنى العمر:

الله (تعالى) يخرجنا من بطون أمهاتنا خلقا طيبا مفطورا على الحق، نحبو فنمشي فنجري ونعدو، ضعف من بعده قوة وفتوة، إعجاب بالصورة والجسد، وزهو بالأموال والأولاد، نبنى قصورا في الهواء نحسبنا نخلَّد فيها، تغرنا فورة الشباب فنتبجح أحيانا، ونثور أحيانا أخرى، وتخدعنا خضراء الدمن، فنحسبها سدر مخضود، ننسى أو نتناسى ونحن في أعلى القمم أن البقاء مستحيل، ونُفاجأ بأننا ننزلق من أعلى

المنحنى لأسفله في تسارع عجيب، و نكتشف فجأة أن تلك الأعضاء القوية والأجساد المشدودة قد وهنت، وأن تلك العين الفوارة قد غار ماؤها، وأن ذلك البهاء والجمال قد انطفأ، حتى نصل إلى نهاية المنحنى.

منحنى العلاقات:

نبدأ كل علاقاتنا الإنسانية بقوة وحماس، نرى كل شيء نقيا مثاليا، ثم تتكشف الخبايا، وتظهر العيوب والمثالب، ويحمل كل منا مرآة لصاحبه ليريه سوأته، لكننا بعد هذه المرحلة مختلفون اختلافا عظيما؛ فمنا من يغفر، ومنا من يُحْبَط، ومنا من يفقد الثقة في كل من حوله، ومنا من يحاول من جديد، ومنا من يسعد سعادة عظيمة، لكن هذا المنحنى بخصوصه تراه مختلفا، فليس له قمة واحدة، بل قمم كثيرة، ثم ينتهي بنهاية مفتوحة إما ترفعك إلى السماء، أو تلقي بك في جب مظلم لا آخر له.

منحنى الإيمان:

منحنى غلف نفسه بدائرة كبيرة، لا تسمح لك إذا خرجت منها أن تسقط في هُوَّةٍ عميقة كسابقه، وهو ذلك المنحنى الذي يسمح لك أيضا بالصعود مرة أخرى إلى قمته بعد الإنزلاق بعيدا بعيدا طالما لم تخترق محيط تلك الدائرة التي أعطته ميزة إضافية عن غيره من تلك المنحنيات، لكنك إذا اخترقت تلك الدائرة و عنَّ لك الرجوع، لا أحسبك تسطيع الرجوع أبدا.

منحنى المال:

منحنى عجيب متقلب متملق مخادع، قد تصل إلى قمته وتنتشي بذلك النسيم البارد على تلك القمة، وفجأة ترى نفسك في قاع بعيد، لا تشعر فيه إلا بالخوف والوحدة، فصاحب المال خائف من ضياعه، موهوم بأحوال الناس معه، فهو لا يكاد يعامل الناس حتى يحمل كل قول أو فعل منهم على محمل السوء، فلا يكاد يشعر منهم بصدق عاطفة أو

إخلاص، والناس في هذا قد يكونون مظلومين، فليس العيب عندهم في الأغلب الأعم، بل العيب في نفس ذلك الذي جعل قيمته من ماله، وظن الناس كلهم مثله لا يجعلون قيمة إلا للمال وصاحبه.

منحنى السعادة:

وهو أشبه بالأرجوحة، يرفعك أحيانا ويضعك أحيانا أخرى، لكن هذا المنحنى يبنيه كل إنسان بنفسه، بحسب ما وقر في قلبه، واستقر في عقله من قناعات ثبَّتها وقواعد قعَّدها وأصول أرساها، فمنهم من يبني هذا المنحنى من مال، ومنهم من يبنيه من شهوات الأبدان، ومنهم من يبنيه من سلطان، ومنهم من يبنيه من رضا الله، لكن الأمر الأكيد الثابت المقرر أنك إذا كنت ممن كتب لهم الفوز بحسن اختيار لَبِنَات بناء هذا المنحنى _ وهو بلا شك رضا الله _ واستطعت أن تستقر على قمته لن تنزل إلى قاعه أبدا.

منحنى العلم:

منحنى عجيب فمن كان في قمته أو قاعه، كان من المحسودين، فكل من انتسب إليه قمة أو قاعا كان فائزا، وبالرغم من أن أهل هذا المنحنى هم من الفائزين، إلا أنهم لكثرة ما هم فيه من نعم ومكانة يصيب بعضهم عجبا أو اختيالا وفخرا، فتكون المفاجأة أن تجد المنحنى قد لفظهم لفظا وأبى أن يكونوا في قاعه أو قمته.

٤- اختر معاييرك!

قال (تعالى):" إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ " (٤: الليل)
وقال (تعالى):" أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢)" (النجم ٣٨: ٤٢)
سعي الناس في الدنيا حصادهم في الآخرة، ولكنهم مختلفون في مقاصدهم وهممهم، والمعيار الوحيد للحكم على سعيهم هو قدرتهم على عمل ما يكلفون به، والله (تعالى) هو الحكيم العليم الذي لم يكلف نفسا إلا وسعها، فهو باريها وأدرى بها، قال في محكم التنزيل: "بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥)" (القيامة- ١٤: ١٥)
أي: هو شهيد على نفسه، عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر، كما قال (تعالى):" اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا" (الإسراء- ١٤) [١]

إن من أحد أشهر الأمثلة التربوية التي تضرب للحكم على الأنظمة التعليمية في البلدان، ذلك المثل الذي طلب فيه أحد الناس من قرد و فيل وثلعب وثعبان أن يتسلقوا شجرة والفائز سوف يحصل على جائزة .
بالطبع كان القرد هو الفائز لا شك، فالمعيار الوحيد الذي سيُقِّيم عليه المتسابقون هو القدرة والسرعة على تسلق الأشجار.

١- تفسير بن كثير

والناس مختلفون اختلافا عظيما في أجسادهم وعقولهم وأعمالهم ودرجاتهم. وكان قول الله (تعالى):" لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ" (البقرة: ٢٨٦) بشرى عظيمة، ومعيار عادل قسط بين الناس فيما كُلِّفوا به من أعمال، فكل ما عجز الإنسان عن فعله، كان أمره عند الله بين اثنتين؛ إما تخفيف وإما رفع الوجوب، عملا بالقاعدة الأصولية (المشقة تجلب التيسير)

.

فكان المعيار الأمثل والأحكم الذي يحاسب الله به الناس هو الاستطاعة، كلٌ بحسب ما آتاه الله من مِنَحٍ وقدرة وطاقة، فرفع (سبحانه) القلم عن الصبي والنائم والمجنون، لأنهم فقدوا الاستطاعة العقلية أو الجسدية .

ولما كان منهج الله مع عباده هو العدل الذي قامت عليه السماوات والأرض، كان من باب الإنصاف والسلامة أن إذا حكمنا على شخص أو شيء، أن نراعي ما اختلفوا فيه وما فُضِّل به بعضهم على بعض، فالناس ليسوا سواء في قدراتهم وإمكاناتهم، لهذا وجب عدم تعميم المعايير، وعدم اتخاذ مقياس ومعيار واحد لكل البشر.

فالصغير عندما يُكلف لابد أن يُراعى عمره، فمعياره ليس كمعيار الكبير، ومن كان من أهل البادية ليس كمن كان من أهل الحضر، ألا ترى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد اعتبر ذلك لما بَالَ الأعرابي في المسجد، كما في الحديث عَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) أَنَّ أَعْرَابِيّاً بَالَ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَامَ إِلَيْهِ بَعْضُ الْقَوْمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صلّى الله عليه وسلّم):" دَعُوهُ وَلاَ تُزْرِمُوهُ" قَالَ فَلَمَّا فَرَغَ دَعَا بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ، فَصَبَّهُ عَلَيْهِ". [١] فلم يُجْرِي عليه النبي (صلّى الله عليه وسلّم) ما يجريه على الصحابة

---

[١] - رواه البخاري (٢٢١)، ومسلم (٢٨٤)، وابن ماجه (٥٢٨)، وأحمد (١٢١٥٣)

واعتبر اختلاف بيئته، فلم يكن معيار الحكم على فعله هو نفسه معيار الحكم على الصحابة ممن كانوا يسكنون المدينة مع النبي.
فما بالنا نسد على غيرنا بسوء تقديرنا، وغلط معاييرنا، وضعف بصائرنا أبوابا من الخير على بعض الناس، ونضِّيع عليهم فرصا ذهبية بتقييماتنا وأحكامنا ومعاييرنا، ولربما لو اختلفت تلك المعايير والأحكام لاختلفت آثارها المترتبة عليها، لأصبح الناس في راحة وصفاء وأخوة، وصاروا نفعا وخيرا للأنفسهم ولأممهم.
وإن من حسن الفطن أن يُوَجَّه المرء إلى ما يحسنه فكلٌ ميسر لما خلق له، وليس هناك أسلم في ذلك الباب من وضع المعايير المتقنة الموجهة العادلة التي تقيس الأمر وتضبطه بالعدل والإحسان والعذر، ثم يوجه كل إنسان إلى ما يحسنه.

٥- إني تبت الآن

قال تعالى:" وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨: النساء)
لا يتنبه الإنسان من نوبات الغفلة المتتالية التي تعتريه إلا عند اختباره شدة عظيمة، أو مصيبة مفجعة،
ولكن فريقا من الناس من يلههم الأمل وتغرهم الأماني، و تسحرهم الدنيا بكل حبل وعصا .
يتعاطون فيها كأنهم مخلدون، ويغرهم حلم الله وستره، فيتمادون لهثا خلف كل سراب، حتى إذا ما اختبروا لحظات الحقيقة عضوا أنامل الحسرة، وودوا لو رُدوا إلى العهد الأول من الفطرة والنقاء، ولكن المآل يكون أحيانا مغايرا لما أردوه حالا وواقعا، وكأني به يقول: هيهات هيهات إن الآوان قد فات.

يمنُّ الله على عباده فيسترهم ويمنحهم الفرصة بعد الفرصة، وهم يبارزونه بالمعاصي، ويحلم عليهم، وهم يزيدون في الغي، يتذرع كل امرئ بذرائع شتى، ويلقى معاذير كثيرة، وليس له من دون نفسه على فعله شاهدا ونذيرا .
يقيم الله عليه الحجة بالستر والعفو والمعافاة والتوبة، ويأبي إلا الزيادة في غيِّه، فيأمن مكر الله .
وما ذكر أمر فرعون موسى عنا ببعيد، فما أحلم الله عليه! وما أعظم أمر الله معه! فهو على ما كان عليه من ظلم عظيم، و كفر مبين، أمر الله تعالى نبيه موسى (عليه السلام) ان يذهب إليه ويعظه ويدعوه إلى التوبة، وهو إن كان فعل لقَبِلَ الله منه وتاب عليه، لكن الله أدرى

بالقلوب، فقال (عزوجل):" اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) (طه: ٤٣-٤٤)
فها هو ذا على ما كان عليه، ارتضى الله منه توبة، ولم يغلقها في وجهه، وزاد (سبحانه) أنْ أمر نبيه موسى (عليه السلام) أن يلين له القول، ويحسن إليه في الطريقة، ولكن كِبْره وعزته بالإثم منعته من كل خير.

أما ذلك الغافل المتغافل المفتون عن أمر الله، فمكر الله به، حتى إذا جاءت أصدق لحظة في الدنيا، لحظة اليقين والاختبار الحق الذي يفضي فيه المرء إلى ما قدم من عمل، تخور القوى، ويتعطل السلطان، ويكسد المال، ويود المرء أن يردُّ إلى أول الأمر .
فيسارع بكلمات انتظرها الله منه عمرا طويلا، وعبارات رفض قولها زمانا مديدا، ونعمة رفسها رفسا مركَّلًا، والآن يرجوها فيرفع بها صوتا ضعيفا خافتا منخنقا بالبكاء، كان يرفعه عاليا مُنْكَرًا فيما مضي بكل ضغث من فاحش القول وبذيء اللسان، يحرك شفتيه بكلمات (إني تبت الآن)...

ولكن هذه اللحظة المرعبة في حياة كل بني آدم، يكون فيها بين جوابين؛ إما أن يجاب بـ (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَـٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠: البقرة) وإما أن يجاب بـ (آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١: يونس)
فمن تاب وأصلح، وصدق وأحسن، وعزم ففعل، وندم فوعى، ودعا فأيقن، وعجَّل فلم يوخر كان هذا أرجى له وأكرم عند الله، فمن أراد توبة فلا يؤخر، فهل يأمن إن أخر أن يقبل منه أو يُحلم عليه؟!

٦- إلى النَدَّابين

كثيرا ما يفاجئنا بعض أصحابنا الذين نعرفهم جيدا بعبارات على صفحات التواصل الاجتماعي من نوع: (لم يعد في الدنيا وفاء) أو (الخيول الأصيلة تأبي أن يركب أحد ظهورها) أو (ما زلت أتعافى من أمور لم أخبر عنها أحد) وغيرها من عبارات ندب الحال، وسوء المآل .

وكأن تلك الكلمات قد خرجت لتوها من مهموم زفر بها بعدما تداعت عليه أمم الأرض، فصار طريدا شريدا لا مأوى له، أو كأنه قد فقد ماله وأهله ووطنه، أو أن جائزة عظيمة قد رصدت على رأسه فيطارده لأجلها أهل الأرض قاطبة .
ولو سألته بعد هذا الندب والنواح والصراخ والتأسي، لوجدت أن الأمر أهون من أن يذكر أصلا،
ذلك الذي اعتاد الشكاية والتبرم من كل أمر حدث له من حوادث الزمان إنما هو في الحقيقة رجل لم يعتد مناجاة ربه والابتهال إليه في الملمات، لم تعتد عيناه إلى النظر إلى أعلى، ولم تعرف يداه الاجتماع متوجهتان إلى السماء .

لما قال أحد الناس يوما _ ابتداءً دون سبب_ "لا تعنني الدنيا "، فقال له سامعه:" كذبت، لو لم تعنك ما ذكرتها أصلا"
والشاهد في هذا المثال أن من شغف قلبه أمرا من الأمور، فإنه يغدو أسيره، فتصبح كلماته قبل أفعاله انعكاسا لما وقر في قلبه مهما أنكر ذلك أو دفعه عن نفسه .

وذلك الذي يندب حظه ويكثر الشكوى بسبب وبغير سبب، إنما ذلك في الحقيقة وفي غالبه الأعم من قلة التوكل على الله، وقلة إدراك لحكمته البالغة في تدبير شؤون خلقه، و لو أنه تأني قليلا وتدبر قوله تعالى:" وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ "(البقرة:٢١٦) لعلم علم اليقين أن الشكاية والصياح من كل أمر ما هو إلا قلة توكل، وضعف بصيرة، وسوء تقدير، وطبع اعتاد عليه من الصياح والنواح والصراخ.
ذلك الشاكي المالئ الدنيا ضجيجا وصخبا في كل فج قد تجده في الحقيقة مِن أنعم الناس، وذلك بشهادة النبي (صلى الله عليه وسلم)، فقد قال:" مَن أصبحَ منكم آمنًا في سربِهِ، مُعافًى في جسدِهِ عندَهُ قوتُ يومِهِ، فَكَأنَّما حيزت لَهُ الدُّنيا." [١]
ولو خرج من قمقمه الذي وضع حاله فيه، ونظر حوله لوجد أناسا بلا بيت وآخرون بلا وطن يتوسدون أديم الأرض ويتلحفون السماء، وآخرون يبيتون وبطونهم تتلوى من الجوع، وغيرهم ينتظر المعونات من كل لئيم راضع، وصنف ثالث سهَّده المرض فلا ينعم بغمض .
وهو أقصى مشاكله أن زوجه لم تعد له طعامه الذي يحبه، أو زادت له ملعقة سكر عما اعتاد في الشاي، أو أن جاره تأخر في تهنئته بنجاح ابنته، أو أن زوجته تأخرت في إعداد الغداء، أو أن صديقه الذي اعتاد السهر معه كل ليلة قرر أن ينام مبكرا هذا الأسبوع فتراه غضبان أسفا على مثل هذا وأقل.

---

[١] - رواه البخاري في "الأدب المفرد" (٣٠٠)، والترمذي في "السنن" (٢٣٤٦) وقال: حسن غريب، و حسنه الألباني بمجموع حديثي الأنصاري وابن عمر"السلسلة الصحيحة" (رقم/٢٣١٨)

يا من تملأ الدنيا ندبا و شكوى للناس وتتناسى رب الناس، ارفع يدك إلى السماء سائلا الله الفرج، ودع عنك الشكوى إلى الناس تتسول حلو كلامهم وتعاطفهم ودموعهم؛ فلا الندب نافعك ولا تعاطف الناس كافيك، وكف عنا أدمع الصبية الذين ينتحبون لأجل لعبة كسرت، أو إصبع آلمه، أو حرم من صحبة أمه في السوق، فحسن التوكل أصل فرعه الدعاء بث الهم والشكوى إلى الله مع اليقين بفرجه وعافيته، وطبع الرجال كالجبال شامخ صامد ثابت صامت، فهم لا يكثرون الشكوى ولا النحيب مهما تتالت عليهم الخطوب.

كما أنك متهم من وجه آخر، فقد تكون أنت ذلك الأبعد سيئ الظن بإخوانه وأصحابه، الذي دائما ما يحمل كل عمل على عَطَب الطوية وسوء النية، ذلك الذي يرى الناس كلهم قد أضمروا أضغاثا من الأحقاد والخبايا الرديّة، ولعل هذا لعدم سلامة طبعه من هذا الخلق فهو يحسب الناس كلهم على مثاله، ضف إلى ذلك أنك وأنت الحكم لم تسمع ممن عرَّضت بهم أو ذكرتهم أو اتهمتهم.

٧- أصالح أم مصلح؟!

الصالحون و المصلحون: قد يبدو لك الأمر منذ الوهلة الأولى أن اللفظين مترادفان، ولكن الحقيقة غير ذلك، فالصالح صلاحه لنفسه، أما المُصْلِح فصلاحه لنفسه ولغيره .

وقال ابن منظور: ورجل صالح في نفسه من قوم صُلَحاء ومُصْلِح في أَعماله وأُموره، وقد أَصْلَحه الله. [١]

وليس قصدي بيان الفروق اللغوية بين الصالح والمصلح، أو مدح أحد النوعين، والمصلح بلا شك أفضل وأثبت الفريقين، وفي كلٍ خير، ولكن بيان الأمر هو:

هل يحب الناس الصالح أم المصلح ؟ وإن فضلوا أحدهما عن الآخر، فلماذا؟

وهلم نبسط ذلك بشيء من البيان أعرض فيه ما أعتقده صوابا .

إن غالب عوام الناس يحبون الصالحين ويميلون إليهم، ولا يحبون المصلحين، أو بالأحرى يتجنبونهم ولا يميلون إليهم.

وانظر معي حال كثير من الأنبياء في أقوامهم، كيف كانت سيرتهم ومنزلتهم بين أهليهم قبل أن يوحي الله إليهم، كانوا من قومهم في منزلة وقدر، فلما جاؤوهم بالحق، وصدعوا به؛ فبينوا فسادهم وخلل عقائدهم وأخلاقهم، فانبروا وقد وَصْمُوا الأنبياء _ وهم أطهر الخلق _ بكل نقيصة، وادعوا عليهم ما ليس فيهم.

وليس حال نبينا (صلى الله عليه وسلم) عنا ببعيد فكان قبل النبوة (الصادق الأمين) لدى القوم، فلما أرسله الله بالإصلاح قالوا: كاذب و ساحر و كاهن ومجنون .

---

[١] - ابن منظور. (٢٠٠٩). *لسان العرب*. بيروت: دار صادر، ٥١٦.

فالناس قد صنعت عوالم وهمية في عقولهم، وهي تعرف أن هذه العوالم ليست إلا من صنع أيديهم، ولكن إذا أشار لهم أحد الخلق أن ما تفعلون وهم وباطل، كرهوه و نبذوه .

إن الجميع يكاد يعرف حقائق الأمور؛ يعرف الصالح من الطالح، والعادل من الجائر، والحق من الباطل، وهذا ليس استنتاج عقلي، لكون البشر قد حلاهم الله بنعمة العقل (تعالى)، بل لأن الله (عزوجل) يقيم الحجة على كل عبد من عباده بحكمته وقدرته وتدبيره وقيوميته على عباده، لكن هذا المحروم الموهوم ارتضى ما ارتضاه لنفسه من انتكاس الفطر والركون إلى الشهوات والأهواء ظلما وعلوا، وعايش وتعايش مع كل هذا برضا، إما لعجز عن التفكر والتدبر والعلم والفهم، وإما لمنفعة دَنيِّة دنيوية حركته إليها شهوات مستقذرة؛ فأخلد إليها فهي تجعله يلوي عنق الحق لأنه مستفيد منتفع، ولو كان هذا ينقض كل فضيلة عنده فهو لا يبالي، ويكره كل من ينبهه إلى حقيقة ما هو عليه ؛ يكره المصلحين.

فيا أيها الصالح المصلح ليست طريقك معبَّدة سهلة، فكل من قال كلمة الحق عودي، وأوذي، وقيل فيه ما ليس فيه، لكن الله اشترط على عباده شروطا جعلها ثمنا لسلعة الله، فقال (عزوجل):" **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ" (١٩٥)(آل عمران: ١٩٥)**

وهاك كلمات ورقة بن نوفل (رضي الله عنه) لما أخبره النبي (صلى الله عليه وسلم) عن أمر الوحي فقال له:"يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَمُخْرِجِيَّ

هُمْ قَالَ نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا." [1]

لكن ما يبقيك على دربك، أن ذلك أمر الله، وسنته في خلقه، وهو حافظك ومانعك و ناصرك، فقال تعالى:" يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (المائدة: ٦٧)
وقال (تعالى):" خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (الأعراف:١٩٩)
في قوله (عزوجل):" إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (الحج:٣٨)
وأخيرا البشرى قول النبي (صلى الله عليه وسلم) فعن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أنه قال: دخلتُ علَى النَّبيِّ (صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ) وَهوَ يوعَكُ فوضعتُ يدي عليهِ فوجدتُ حرَّهُ بينَ يديَّ فوقَ اللِّحافِ فقلتُ يا رسولَ اللَّهِ ما أشدَّها عليكَ قالَ إنَّا كذلِكَ يضعَّفُ لَنا البلاءُ ويضعَّفُ لَنا الأجْرُ قلتُ يا رسولَ اللَّهِ أيُّ النَّاسِ أشدُّ بلاءً قالَ الأنبياءُ قلتُ يا رسولَ اللَّهِ ثُمَّ مَن قالَ ثُمَّ الصَّالِحونَ إن كانَ أحدُهُم ليُبتَلى بالفَقرِ حتَّى ما يجدُ أحدُهُم إلَّا العَباءةَ يَحويها وإن كانَ أحدُهُم ليفرَحُ بالبلاءِ كما يفرَحُ أحدُكُم بالرَّخاءِ" [2]

---

[1] - رواه البخاري (٦)

[2] - رواه ابن ماجة (٤٠٢٤)، الطبري (٤٢١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣٤٠٣)

٨- احذر فخ أفعل التفضيل.

أفعل التفضيل:في الميزان الصرفي يفيد كل اسم مشتق من الفعل الثلاثي على وزن أفعل، واستوفى بعض الشروط تفضيل أحد أمرين أو ذاتين اشتركا في صفة وزاد أحدهما عن صاحبه في هذه الصفة زيادة مفضلة إياه؛ لذلك سمى النحاة تلك الصيغة الصرفية بأفعل التفضيل.

وكما هو واضح من بيان النحاة أن صيغة (أفعل التفضيل) تستخدم للمقارنة بين الذوات في الصفات، وهذه الصفات قد تكون حسنة وقد تكون سيئة؛ كما أن تمايز الأشخاص والأشياء في الصفات أمر طبيعي بَدَهي، ولكن أين الفخ الذي صدرته في العنوان؟! هلم إجابة:

دقق معي في بعض الأمثلة التي يستخدمها المعلمون لتعليم طلابهم ذلك المبحث، مثلا:

- قوله سبحانه:" أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا" (الكهف:٤٣)

-قوله تعالى:" أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة" (فصلت:١٥)

-وقوله (صلى الله عليه وسلم):" أكمل المؤمنين أحسنهم أخلاقًا"

- أحمد أكبر من عادل.

- الصدق أفضل الأخلاق.

فانظر معي (أكثر- أشد- أكمل- أكبر - أفضل) ستجدها أسماء فضلت أحد أمرين أو صفتين أو ذاتين، وهذا يفيدك معرفة أن أحد الجانبين متميز و مميز عن الآخر؛ فيكون له المدح إذا تميز في مكرمة أو فضيلة، ويكون عليه الذم إذا امتاز بمنقصة أو خلق سيئ.

ولكن ماذا لو أُسْتخدِم أفعل التفضيل للتضليل والتوهيم والخلط، فأقول لك مثلا أنَّ فلان هو أسرع الناس في أكل الطعام... أو أن صديقي هذا أكثر الناس نوما... أو فلان الأول في مسابقة الحجل، أو أننا أنشأنا أكبر مائدة لإفطار الصائمين في العالم في قريتنا التي لا يتجاوز تعدادها ألف نسمة.

لو أنك سمعت تلك الأمثلة التي يُستخدم فيها أفعل التفضيل للتمييز بين الأمور ليعرف الناس الفرق بين النافع والضار، أو الفرق بين الغث والثمين، أو يدركون تمام الصفة أو نقصانها عند أحد المقارنين، لأدركت أنها وضعت في العربية لترجيح أحد جانبين، وتحقيق اليقين، وهي في الأغلب الأعم تستخدم لتكون أداة ترجيح وبيان لا أداة خداع ووهم.

لكن ماذا لو استخدمناها في المقارنة بين أمرين أحدهما أعدم فائدة من صاحبه، أو للتلبيس على الناس وخداعهم بين المفضل و المفضل عليه، أو لترهيبهم، كقولي أنا أملك أقوى خنصر على وجه الأرض، أو أكثر شخص يملك ملابس من (ماركة) كذا، أو لقد صنعنا أكبر طبق كشري في العالم... وقس على ذلك كل ما يفعله الناس من هذه الأفعال التي لا ترفع درجتهم عند الله، ولا تحقق نفعا بين الخلق، بل تكون على النقيض؛ فقد تكون طلبا للشهرة، أو ابتداع بدعة خفية بين الناس، أو أنها تحول صاحبها إلى أداة وهو لا يدري، كمثل ذلك اللفظ الذي أصبح جسيما وهو صعفق [1] وهو ما يسمى الآن بـ (الترند) ذلك الغول الذي يتلون في أثوابه فيبدو كما يريده الناس، وهو خادعهم.

---

[1] - صعفق: ضآلة الجسم (لسان العرب)

ولا أنسى ذلك الزميل عندما ظهرت نتيجة الاختبارات وذهب إلى البيت فسأله أبوه عن درجاته، فقال: أنا بين أفضل ستة في الصف؛ أنا السادس، ففرح والده واستبشر، لكني لا أظن أن ذلك البِشْرَ كان ليدوم لو علم أن عدد طلاب الصف جميعهم ستة طلاب فقط.

الشاهد من هذا البيان وهذه الأحجية أنك عندما تستخدم التفضيل استخدمه لبيان الحق والصواب لا التلبيس والتدليس.

٩- صانع محتوى؟ لا... ربما رويبضة

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم):" سيأتِي على الناسِ سنواتٌ خدّاعاتٌ؛ يُصدَّقُ فيها الكاذِبُ، ويُكذَّبُ فيها الصادِقُ، ويُؤتَمَنُ فيها الخائِنُ، ويخَوَّنُ فيها الأمينُ، وينطِقُ فيها الرُّوَيْبِضَةُ . قِيلَ: وما الرُّوَيْبِضَةُ ؟ قال: الرجُلُ التّافِهُ يتَكلَّمُ في أمرِ العامةِ".[١]

عناوين رنانة حتى أنها تصم الآذان عن صوت النهيق الذي يصحبها، كلمات بلغات شتى و بلهجة غربية قحة، تنقل السامع إلى شوارع لندن أو باريس، وبإبهار سحر الزمن الحديث؛ الإعلام المرئي وتقنياته، وبنبرات هادئة يتخفى خلفها فحيح أفعى تكاد تهم بك لتأخذك من رأسك، وأنت يا مسكين مسحور مأخوذ بهذا الزخرف، وتلك الألاعيب.

(صناع المحتوى): عنوان لامع، وجُبٍ كَجُبِ برهوت، فيه ماء لا تكاد تنتفع به، رمية إلى غير غرض -إلا النذر اليسير والقدر القليل- معلومات كثيرة لا عنان لها ولا خطام، ومعارف شتى مبتورة الساق ومقطوعة الجذر.

يعمد كل امرئ الآن إلى صناعة محتوى، وما المحتوى إلا عنوان كبير مضلل - يرحمك الله - سمِّ لنا محتواك مصدره ودليله ووجه دلالته، و أَبِنْ عن قصدك وهدفك منه، ثم أَسْنِدْ لنا ما تحدثنا به حتى نعلم أنحن معك على الطريق، أم أنك أصحرت بنا على غير هدى، فنهلك جميعا.

---

١ - رواه ابن ماجة (٤٠٣٦) ، وأحمد (٧٩١٢) و صححه الألباني في الصحيحة.

وما المحتوى إلا طعام صنع من مكونات لم نسمع عنها في آباءنا ولا أجدادنا، وما المحتوى إلا نوع ملابس وأزياء لا تحاكي إلا لباس كل أمة غير أمتنا، وما المحتوى إلا أساطير من قصص الإغريق أو الرومان أو ...، وما المحتوى إلا تحليلات ألمعية في السياسة الدولية من صاحب مطعم الفول والطعمية بحي القللية، وما المحتوى إلا فتاة مسلمة قد هتكت ستر الله عليها، وما المحتوى إلا أسرة آثرت المجاهرة اتخذت الدياثة خلقا والخنا منهجا تعرضه على الناس، وما المحتوى إلا ضرب في ثوابت الأمة والتشكيك في عقائدها، ومحاولة النيل من رؤوسها.

محتويات ومحتويات ومحتويات، دوائر متداخلة متحركة متسارعة قادمة نحوك ما تريد إلا إدخالك في دوامة التشتت و الشك والشهوات والعبث، فإن وجدت فيها ما ينفع فإنه قليل قليل ما يفتأ أن يتوه بين تلك الغابة الشائكة من المر والحنظل.

وحتى لا نسد باب الإنصاف فمن هؤلاء من سلمت نيته – فيما نحسب – وأتقن عمله وأسنده وحدده واستدل له، فهو ينفع الناس ويفيدهم، وعلى النقيض من الفريق الأكثر سوادا والأظهر بين الناس منهم من يقف على ثغر من ثغور الأمة فيدافع بما استطاع وبحسب طاقته، لكنهم قلة قليلة، يحاولون ما استطاعوا الدفع والصمود.

فيا صانع المحتوى لك عند الله أمرين؛ لماذا؟ وكيف؟ فانظر أين أنت، فلربما كانت سلامة القصد دون النظر إلى الحال والمآل هي المهلكة، ولربما كان سوء القصد والنية أفسد وأضل سبيلا، فارجع وراجع ما يحتوي عقلك وقلبك، فلربما علمت الصالح من الطالح، فتشاركنا سَمِينُك، وتجنبنا غثَّك، وعندها ستصبح صانعَ وعي، وناشرَ علم، ومجانب إثم، و طائع رب، ولا تكن يا صانع المحتوى رويبضة، فإنها سنوات خداعات.

١٠- احترس... عقلك أصبح مرحاضاً عاماً

الحياة بين قوسين تخط بينهما ما شئت، تنشأ شعرا، أو أدبا أو عدمه، لك حرية مطلقة، تطلب علما ربما، تبرع في فن من الفنون جائز، تصبح من أهل التجارة والمال حبذا.
تتعلم و تتجار وتمرح و تحب و تكره وتعادي وتصالح، كل هذا وأكثر يتسع له بحر الحياة.
باختصار افعل ما يحلو لك في الحياة طالما هو مما أحل الله، لكن بينما أنت على درب الحياة الطويل القصير، حافظ على تلك (الدفة) التي توجهك خلال الطريق، فتبقيك مستقيما مسترشدا.
عقلك هو موجه سفينة حياتك في عَباب بحر هائج مظلم يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، وكلما انضبطت دفة ذلك الموجِّه وقوته، كلما نجت السفينة من عواصف و أنواء قد حُمِّلت بكل لون الخوف والعذاب.
وحتى نحفظ تلك الدرة اليتيمة وذلك النور الرباني، وجب على كل طالب للنجاة أن يلزم شروطا، فخذ عني هذا عسى الله ينفعني وينفعك.
- خذ من الوحي (قرآن وسنة) وأنت موقن أن ذلك هو الحق المطلق، وأن ما دونه قد يعتريه النقص والقصور من وجه من الوجوه، واجعل قول الله (تعالى):" ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين" (البقرة:٢) نبراسا في حياتك.
- افهم كما فهم الصالحون من الأنبياء والصحابة والصديقين والشهداء، ولهذا بيان يسير، فالله (جل وعلا) رضي عن فهمهم وعملهم، وأقرهم عليه، ووافق عملهم قولهم؛ فكانوا بذلك أعقل وأحكم وأثبت... وجاءت الآيات مدحا لهم، وبارك الله في عقولهم، فكانوا إلى سلامة الفعل وسلامة العقل أقرب، فقِسْ على فهمهم، وتذكر قول المعصوم (صلى الله عليه وسلم):" إنَّهُ مَن يعِشْ منْكم بعدي فسيَرى اختِلافًا كثيرًا

فعليكُم بسنَّتي وسنَّةِ الخلفاءِ الرَّاشدينَ المَهديِّينَ من بعدي تمسَّكوا بها وعضُّوا عليها بالنَّواجذِ وإيَّاكم ومُحدَثاتِ الأمورِ فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ"[1]

- توضيح الواضح مُشكل: إن من تمام الحفاظ على العقل ألا تنقض ما بنيته بنيانا تاما قويا على علم وبينة، فما كان واضحا في عقلك متوافقا مع فطرتك غير مخالف لشريعة رب العالمين، فهو الحق المبين، فاحذر أن يعبث أحدا بما أرسيته في عقلك، كأن يطالبك بما يستحيل فهمه أو استيعابه، فنثر بذرة الشك في قلبك، كمن سأل أحدهم في يوم مشمس: أثبت لي أن الشمس موجودة. فهذا من العبث، فالواضح البين لا يحتاج بيان وإلا وقع العقل في الوهم والجنون.

- احذر الظن والشك والوهم: مما كان من تقسيم العلماء اصطلاحا لمراتب العلم: (اليقين- الظن- الشك- الوهم) فاليقين أعلى مراتب العلم وأوثقها، فكلما قل علمك كلما نزلت مرتبة، و قالوا أن العلم هو اليقين التام، والذي قد نعبر عنه مجازا بنسبة (١٠٠٪) فاختر لنفسك يقينا لا ظنا، ولا شكا، ولا وهما.

- اجعل مصفاة لما يدخل عقلك: فلكل عقل قدرة ورجحان، وأنا وأنت لا ندري ما قدرة تحمل هذه الآلة المباركة، على معرفة الغث من السمين وفرزهما، فاطلب لها السلامة، ولا تجمع حشفا وتمرا تريد إطعامهما تلك الآلة؛ لأنك إن فعلت، توشك ألا تميزها مع الوقت، فتكون كل سوداء عندها تمر.

- وأخيرا لا تجعل عقلك مرحاضا عاما، يلقي فيه كل من شاء أوساخه من القول والفعل، واحفظه مكانا طاهرا مباركا عطرا يَسُرُّ العاقلين من أمثاله.

---

[1] - رواه ابن ماجه ((٤٤، والترمذي (٢٨٧٠) ، أبو داود (٤٦٠٤)

١١- اذكر غدراتك القديمة كلها

أيام وأعوام وعمر ينقضي، هي حفلة حَافِلة تموج بكل لون من كلم وفعل و مكنون نفس لم يشعر به سواك، أحلام وأرقام في دفتر أحوالك وأسفار أيامك، في كتاب الأيام ورزنامة الزمان، أحداث عظام ترفض تدوينها، وتتناسى عن عمد خطها، لأنك تعلم أنك يوما أو غيرك قارئٌ ما خط القلم وسوَّد المداد، لكن هناك دائما نسخة أخرى كتبت بمداد سري خفي لا يعلم عنها أحد شيئا، لها لغة مشفرة، ورموز فريدة، قد حفظت في سراديب عميقة، غلّقت عليها أبواب خلف أبواب، يحرسها صنوف من الجند والأحراس، تلك النسخة التي دونت فيها ما كان منك في خلوتك، وما لفظته في غضبتك، وما خففت به في صبوتك، وما فرطت فيه في فَوْرت شبابك، وما تجرأت به في غدراتك، وما استبحته في سباق أقحمت فيه نفسك اقحاما، لم تؤمر به، ولم تُطْلب له يوما.

تغدو الحياة كرجل في سباق، يبدأ الهوينى حتى إذا ما أوشك على الوصول تسارع وتسارع واشتد حتى يصل إلى ذلك الشريط الأحمر الذي ينبئه بنهاية السباق، وبعدها ينظر أكان أولا أم ثانيا أم أخيرا، وهو في كلٍ مرتهن بما قدم في مضماره، يعلم ذلاته وتخاذله و جده، كما يعلم غدراته مع من كان يسابقهم، بل يعلم غدراته مع نفسه، الكل يغدو في سباق الحياة المحموم وقد وضع لنفسه ألف مسوغ يسوغ له فعل كل شيء حتى يفوز، يفرح فرحا عظيما لأنه الأول، لقد حقق الهدف، وبلغ المنى، وصار البطل، وهو في ذلك لم يسأل نفسه قط، كيف أصبحت البطل؟ بل ولِمَ أصبحت البطل؟ وتدور الإجابات في فلك عقله، و خضم قلبه، وتعجَ سماء روحه فجأة بآلاف الشهب والنيازك التي تصعقه، تلك الشهب التي تناساها هي عين اليقين الذي يفيقه بعد حصوله على مركزه الأول، إنه لم يكن قط أولا، بل كان واهما يخدع نفسه وهو يجري في

سباق لإمتاع جماهير لا تعرفه، وتسلية أقوام لا يأبهون لأمره، قد فعل كل شيء أثناء السباق ليسليهم، ثم ما فاز منهم إلا بصوت دوي التصفيق، الذي أنساه كل مبدأ وقيمة وتنافس شريف، وأنساه مع ذلك غدراته بعدما جرَّأه عليها.

ننام ونصحو والبطن يريد الامتلاء، والشهوات تريد الإشباع، والنفس تركن إلى الرزق السهل الذي ما يلبث أن يجرئه على الحرام، والجسد يهفو إلى الملذات، ونتغافل عن غدراتنا مع النفس ومع الخلق ومع رب الخلق، ونغتر بحلم الله وستره، فهو الحييُّ الستير على عباده (سبحانه)

وقبل أن ينتهي السباق دعني أسألك سؤالا أبدأ فيه بنفسي: ألم يأن لك أن تذكر تلك الغدرات، علك ترجع عنها، وتخرج من سباق أنت فيه الخاسر، ولو كنت أولا؟!

١٢- أفضل نسخة منك

قال (تعالى):" وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) (الليل- ١: ٤)

سبحان من خلق البشر مختلفين كلٌ له سعيه وطريقته في هذه الحياة، يسيرون في دروب شتى حتى يصلوا إلى غاية أدركوها منذ أن تفتقت أذهانهم على الدنيا، وكل امرئ زاده في ذلك ما تعلمه وأدركه وتربى عليه من عقائد وشرائع، ثم عادات وقواعد مجتمعه التي لا تتعارض مع أصول شريعته.

يبدأ هذا كله في مرحلة مبكرة من حياة الإنسان، يتشكل فيها وعيه و تتحدد فيها هويته و يصير له بين الناس طبيعة تختلف عن الآخرين تشبه تلك البصمة في أصابعنا، ومنذ اصطباغ الإنسان بصبغته الفريدة المتفردة عن أقرانه من البشر، وصدور نسخته الأصلية الناتجة عن جملة من الأحداث والمعارف والعلوم والعادات والقناعات والمعتقدات؛ يحاول جاهدا أن يجعل تلك النسخة ذات تأثير فيمن حوله؛ على مستوى دوائر شتى، تبدأ بأسرته وأصدقائه وتنتهي بالعالم أجمع.

وكما أبان الله في محكم التنزيل، كما في الآيات في صدر الكلام "إن سعيكم لشتى" فالناس مختلفون لأبعد مدى فذلك الاختلاف العظيم قد تراه كما بين السماء والأرض، فتأمل هذا البون الشاسع الذي يملأ الناس ما بين حديه فمنهم من مرغ نفسه في حد الثرى، ومنهم من رصع تاج رأسه بنجوم الثريا.

و الناس لا شك لا يبقون على حال واحدة في حالتهم وطبائعهم واهتماماتهم ومعارفهم، بل لا يبقون على حالة واحدة من قوة إيمانهم؛ فالإيمان كما هو معتقد الأمة يزيد وينقص، والناس على هذا التباين

والاختلاف والزيادة والنقصان تعتريهم الحيرة ويُعْمِلُون عقولهم كثيرا في أسباب ذلك؛ لماذا لا يبقى الإنسان مستقرا وثابتا على حال واحدة؟! لماذا تتبدل أفكارنا وقيمنا؟! لماذا ينقص إيماننا بعد تمامه؟! لماذا نحن حتى لا نستعيد النسخ الرائعة من أنفسنا؟! تلك التي قد عشناها كالحلم في مرحلة ما في حياتنا.

قد تكون إجابتي مجرد وجهة نظر في الحياة، لكنها تبدو لي متفقة تماما مع المنطق والعقل السليم؛ ألا وهي أن الإنسان في أفضل نسخة منه إنما يكون بسبب توافق عقله وقلبه مع فطرته التي فطره الله عليها، وأنه إنما وصل إلى تلك النسخة لأنه فهم حقيقة الدنيا، وأن تسليم أمره لله مطلقا مع إيمانه المطلق ويقينه الجازم أن الله العلي العظيم لن يضيعه، وأنه إليه الأمر كله، وأن الله (تعالى) الذي خلقه من عدم إنما خلقه لينعمه وأحبه وأحب له الخير، وأنه (تعالى) يعلم ما يصلحه وما يحافظ على سلامة نفسه وروحه وقلبه، وأن تلك النسخة التي ينعم بها إنما هي فرع على تمام العلم والإدراك والعمل بمراد الله (تعالى) من الرضا والتسليم والتصديق والمحبة والخوف والرجاء والصبر و الإيمان. فتلك النسخة إنما هي النسخة التي حققت مراد الله (تعالى) من وجودها على الأرض من التحرر ثم العبودية؛ التحرر من كل عبودية الأهواء والشهوات و المخلوقات، إلى عبودية رب الأرض والسماوات، عبودية على الوجه الذي أراده الحي القيوم.

أما من يستشكل أن أفضل نسخة منه حدثت من غير تحقيقه لعبودية الله الاختيارية الكاملة، فهو بين أمرين؛ إما أنه واهم، لكونه لم يذق ذلك العسل المصفى؛ كمن عاش عمره لا يطعم إلا الخبز والملح، فلما ذاق الجبن ظن أن هذا أعظم طعام الدنيا؛ فماذا لو علم صنوف الطعام و

ألوان الفواكه و حلاوة المذاقات مما خلقه الله. فذلك هو المحروم الذي لم يسعَ أن يزيد إيمانه وتكتمل عبوديته، فهو لم يسع إلى نسخة حديثة قوية صالحة من نفسه. أو أنها الأخرى أن الله (تعالى) لا يريده فأوكله إلى شياطين الجن و الإنس يستهوونه؛ فيحدثون نسخته وقد شحنوها قبلا (بالفيروسات) وقد سمح لهم هو بذلك؛ حتى إذا أراد أن يعود لنسخته الأصلية كانت تلك (الفيروسات) حائلا بينه وبين أصله الذي فطره الله عليه، وارتضاه له تكريما و محبة وحسن مآل.

فافهم حقيقة الدنيا، واختر تلك النسخة التي فطرك الله عليها، وليكن تحديثك لها من مصدرها الأصيل، فاستمسك بأمر الله، وابق عبدا ربانيا، واحذر آلاف النسخ الزائفة التي تحاول أن توهمك أنها الأفضل لك، فتلك نسخ زأجلة [1] لا تصمد في وجه العواصف، توشك أن تدمر حياتك، كما يحدث في نسخ الهاتف أو الحاسب الزائفة.

[1] - الزأجل، والزئجيل: الضعيف البدن (لسان العرب)

١٣- خريطة المستقبل

لحظتان يشترك فيهما كل البشر، لا يستثنى فيهما أحد من لدن آدم (عليه السلام) حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ لحظة الميلاد، ولحظة الوفاة، وما بينهما حياة يحيها الإنسان كما يشاء، فمن البشر من يرى الحياة مستودع شهوات، يبذل الوسع في تحصيل رغباته وشهواته منها، فيعمى بذلك عن الثمن الذي سيدفعه بعدما يحصل ما يريد، والثمن مدفوع مدفوع لا محالة، ومنهم من يراها اختبار عظيم، بل هو الاختبار الأهم في حياته، فيشمر عن ساعد الجد، ويدرس ليل نهار، ويفتش عن العلم في كل جنب يجنبه، لا يريد بذلك إلا المركز الأول والسعادة، فالبشر إذن بين لحظتي الحياة والممات فريقين عظيمين في المجمل كل يسعى لما يسعده.

ويأتي إدراك البشر لحقيقة الحياة بأسباب عدة، أعظمها وأولها إدراكه لها بالله، فكان من عظيم فعله ورحمته (سبحانه) أن أرسل الرسل وأنزل الكتب، فقال (تعالى):" كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (البقرة:٢١٣)

فهذا البيان إنما هو حجة دامغة على كل من احتج على الله عدم فهمه للحياة وعدم معرفته الهدف منها.

ويأتي السبب الثاني لمعرفة حقيقة الحياة وهو الموت، فكل خلق_ بالإجماع_ له بداية ونهاية، ومن علم أن له بداية، علم أن له مبدئ وخالق، و من علم أن الموت سنة يقينية في الخلق أيقن أن هناك من قضى عليه الموت وشاءه وأجراه قدرا محتوما على كل نفس منفوسة.

والسبب الثالث لمعرفة حقيقة الحياة، هو ما يعترى الحياة نفسها من اختبارات وابتلاءات وتقلبات، ألم ترى كيف تدور الدائرة على صنف من البشر في الدنيا قبل الآخرة؟! ألم ترى كيف تستحيل حياة بعض الفقراء إلى غنى ونعيم بعد شدة و ضيق؟! ألم ترى كيف تتبدل الأحوال فتعلو قيعان، و تسقط قمم، و يخرب عمران الأرض ويعمر خرابها؟!
فسبحان من يرفع ويخفض، ويعز ويذل، ويرزق ويمنع، ويوسع ويضيق، ويحي ويميت، سبحانه من صبر وحلم على من أنكروا وجوده تارة، ونسبوه إلى النقص والعجز تارة، ونعتوه بما نزهوا أنفسهم عنه من صفات النقص تارة، ووصفوه بما لم يصف به نفسه تارة، سبحانه مدبر الأمر، ألا له الخلق والأمر.
وعلى كل ما تقدم يأتي بيان للبشر في رسمهم لخرائطهم المستقبلية، وآمالهم اللانهائية، وأفعالهم الراكنة إلى الدنيا؛ ليحسنوا رؤية مستقبلهم، ويتقنوا التخطيط له بحسن الأخذ بالسبب بعد تمام التوكل على الله واليقين فيما أراده للبشر من حسن المآل و دار القرار الحقة.
وليعلم كل من قرأ هذا أننا لم نخلق لهذه الحياة، وأن المستقبل الحق هو ما بعد الدنيا، والتخطيط له لا يكون بكنز الكنوز، ولا الانقطاع لأمر المعايش، ولا الكذب والتدليس لأجل تحصيل الرزق، ولا الحسد ولا التدابر، ولا معاندة الله ومحادته بالمعاصي، واستدل على هذا _ وهو حسبي _ بقول الله (تعالى):"يقول يا ليتني قدمت لحياتي" (الفجر:٢٤) فهذه الحياة الحقة، ولا أقول برهبانية ولا إظهار أثر النعم ولا الفرح بفضل الله في الدنيا من أرزاق وذرية، لكن أقول بقوله (تعالى):" وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ" (القصص: ٧٧)

١٤- كيف تجبر مركب النقص لديك؟

سبحان الحي القيوم، سبحان المتصف بصفات الكمال، سبحان الذي ليس كمثله شيء، سبحانه تنزه عن كل نقص، وجل عن كل وصف لم يصف به نفسه.

اقتضت حكمة الله البالغة أن يكون عباده في حاجة دائمة إليه، يعوذون به، يلجؤون إليه، يلوذون بذاته العلية، وينزهونه عن كل دنية.

والبشر وإن كملت أخلاق كثير منهم، و طهرت قلوب صالحيهم، إلا أنهم في الجملة يعتريهم النقص، و يطالهم العجز، وتقصر بهم مواهبهم عن بلوغ ما يرومون.

ويبقى الناس بين ساع إلى الكمال والتمام البشري، وبين هاوٍ في غيابات التنقص والخنا والتحلل من مكارم الأخلاق، حتى يتمايزون تمايز النجم والذر.

فأما الساعي إلى المكرمة فلا بأس به ولا عليه، وأما نقيضه فالبأس كل البأس به وعليه، لا لأنه اختار الانحطاط والتردي وحسب، ولكن لأن ذلك النقص الذي يعتريه ويكسوه حتى يصير عليه عارا وشنارا إنما يريد أن يكسو الناس منه كسوة ردية، حتى لا يُدْعَى وحده: يا ذا الكساء المذموم.

فالشعور بمركب النقص لدى البشر أمر طبيعي جبلي، فنحن البشر خلقنا محتاجون إلى غيرنا، فينا من الكسر و النقص ما يحتاج إلى الجبر والإكمال، وهذا معلوم مركوز في العقول.

ولكن جبر هذا المركب الناقص المكسور إنما يكون بطريق واحد معلوم مرسوم، فهات يدك واسلكه معي.

لا جبر للنقص إلا بتمام العبودية للواحد الأحد الحي القيوم، فعبوديتك هي تمام الكمال البشري، وكلما زادت كلما جبر النقص.
ثم يأتي في المحل الثاني الاعتراف بالنقص والعجز، فتلك أول درجات الكمال البشري، ولا غيرها يقوم مكانها، فهو مظنة المساعدة، فكيف نعرف ألمك إن لم تشتكي، والله (تعالى) علمه وسع كل شيء، لكنه أمر عباده بالاستغفار، والتوبة، والدعاء، والتوسل.
وثالثة الأثافي هو قبول نفسك على ما هي عليه ما لم يكن معصية أو جور، والقول بذلك في النفس وبين الناس إن دعت الحاجة، فالصدق مع النفس، ثم تقبلها هو جماع الأمر، ومن تصالح مع نفسه على نقصها وعلم ذلك وأقره كان أكمل الناس وأشجعهم.
ورابعة أزيدها - اجتهادا - هي الرضا والتسليم بقسمة الله لك من الدنيا، مع تمام السعي واليقين بأن الله لم يخذلك وسيرضيك ويجبرك ما دمت معه.
أما من لم يرض بجبر نقصه، فهو بين أمرين؛ أولهما أنه يظل طول الدهر بين الحفر، وربما دفن نفسه حيا تحت الثرى، لأن ما حوله سيعلو ويزداد مع الأيام ارتفاعا، وهو قد رضي بالنقص شيمة وبالقلة سجية، أما الثاني، فهو محاولته المستمرة لجذب الناس إلى حيث يقبع، قصرت به الهمة عن السمو والطيران، فأراد كسر أجنحتهم، ورميهم بالحجارة حتى يسقطوا معه في حفر النقص التي حفرها، أو زاد حفرها يوما بعد يوم.
فيا أيها الناقصون المعقدون ارتقوا، أعطوا لأجنحتكم الفرصة حتى تأخذكم صعدا، ولا تجعلوا الوحل المحيط بكم في تلك الحفر قذائف تصيبون بها كل جنس عال من الطير.

١٥- ما تراه عيناك، وما يصدقه قلبك

جعل الله (تعالى) لكل عضو في البدن وظيفة وعمل تقوم به، وجعل تقصير بعضها سببا في ضرر البعض، بل إن أحد الأعضاء لو قصر أو أخطأ فيما خلق له لهلكت بقية الأعضاء.

فقال (تعالى) معليا شأن عضوين من أعضاء الجسد:" إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ "(ق:٣٧)
وقال (جل ذكره):" أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ "(الحج:٤٦)
وقال (صلى الله عليه وسلم):" أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ". متفق عليه.
والمفهوم المتبادر إلى الذهن من الآيات أن المقصود بذكر هذه الأعضاء ليس جانبها العضوي؛ من كونها أعضاء تتكون من خلايا وأنسجة، ولكن من جانبها الوظيفي والشرعي، فكل عضو جعل الله له وظيفة، وكل وظيفة يقوم بها العضو إنما هي مما سيسأل عنه الإنسان بين يدي الله؛ ألم تسمع قول الله (تعالى):" الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (يسن:٦٥)
وقوله (عزوجل):" وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ" (فصلت:٢٢)
وجاء مثل ذلك في قول النبي (صلى الله عليه وسلم)؛ فعن أنس (رضي الله عنه) أنه قال: كنَّا عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فضحِك

فقال:" هل تدرونَ ممَّا أضحَكُ؟" قُلْنا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ قال:" مِن مُخاطَبةِ العبدِ ربَّه، يقولُ: يا ربِّ ألَمْ تُجِرْني مِن الظُّلمِ؟ قال: يقولُ: بلى قال: فإنِّي لا أُجيزُ على نفسي إلَّا شاهدًا منِّي فيقولُ: كفى بنفسِكَ اليومَ عليكَ شهيدًا، وبالكرامِ الكاتبينَ عليكَ شهيدًا فيُختَمُ على فيه، ثمَّ يُقالُ لِأركانِه: انطِقي، فتنطِقُ بأعمالِه، ثمَّ يُخلَّى بَيْنَه وبَيْنَ الكلامِ فيقولُ: بُعْدًا لكُنَّ وسُحْقًا فعنكنَّ كُنْتُ أُناضِلُ." [1]

وبيان القصد في هذا كله أن أعضاء الجسد تتفاضل فيما بينها؛ فمنها ما هو بمنزلة الملك، ومنها ما هو بمنزلة الحارس الأمين، ومنها ما هو بمنزلة العامل المجد.

وجعل الله تعالى للقلب ما لم يجعل لغيره من المكانة والمنزلة، فجعل سلامته سلامة بقية الأعضاء، وفساده فسادها، فهو الملك، إذا أمر أطاعت بقية الأعضاء.

ولكن لنا وقفة، كثير ما ترى العين وتسمع الأذن ما لا يقره القلب ويرضاه، بل يخالف كل ما استقر وعقد فيه، لا سيما إن كان قلبا سليما، وهنا يحدث النزاع، ويستل كل عضو أسلحته ليجبر الآخرين على التسليم بوجهة نظره، ولعل ما يحل هذا الاشتباك، الذي قد يودي بالنفس كلها هو كلمات سيد ولد آدم؛ فعنه (صلى الله عليه وسلم) أنه أجاب (عمر رضي الله عنه) عندما راجعه يوم الحديبية، فقال:" قَالَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي."

فكلمات النبي (صلى الله عليه وسلم) التي بلغت اليقين إلى منتهاه تخبرنا أن كل ما حولك قد يخدعك، وإن رأته عيناك، وسمعته أذناك، وأحست به جلدتك، لكن اليقين الوحيد في هذا العالم هو وعد الله الذي صدقه

---

[1] - رواه مسلم (٢٩٦٩)، وابن حبان (٧٣٥٨)

قلبك، وشهدت عليه من قبل بالتصديق والإقرار، وقبلته مستسلما منقادا.

فمهما كان الواقع حولك يناقض ما اعتقدته وصدقته ووقر في قلبك عن ربك، دع عنك تلك الأوهام والأباطيل، وكن واثقا في وعد الله، واصبر، فما تراه عيناك مخالفا لسنة الله ووعده، إنما هو من كيد سحرة الزمان، وتلبيس إبليس، فكن بالله واثقا، ولأمره مصدقا، واحفظ قلبك سليما حتى تسلم معه بقية أعضائك، فيكون منهم بمنزلة الملك الحكيم.

١٦- لا تخدع نفسك التي بين جنبيك!

قال تعالى:" سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ" (الاعراف:١٤٦)

بين الله (تعالى) في الآية بيانا عجيبا لصنف من الناس، يرى الحق أمامه كفلق الصبح فينكره، ويهيئ الله (تعالى) له تعالى سبل الرشاد فيعقلها قلبه وتراها عينه، ثم يجحدها ظلما وعلوا.

ولعل هذا الصنف قد أعظم في ظلم نفسه؛ فلا هو عاش في الدنيا عيشة مكرمة، ولا هو في الآخرة من الفائزين.

وبيان الأمر أن بعض البشر إنما يبغضون الحق ويرضون بالباطل والظلم ويحبونه؛ دافعهم إلى ذلك أنهم لا يريدون أن يجهدوا أو يتعبوا في طلب الحق وبيانه، لكنهم أخلدوا إلى أدنى الأمر و أرذله، فلا تجد لهم همة، ولا تعلم لهم عقلا ولا فقها.

فهو يكذب الحق الذي تراه عيناه، ويقره عقله، لأنه وافق خسة طبع وكبر وجحود، كما بين ربنا؛ فتراه يجادل في كل آية بينة، وكل واضح مبين، يريد بذلك راحة وافقت هواه.

وهؤلاء البشر هم الأخطر على وجه الأرض، فمهما جئتهم بآية بينة جحدوها، وغالبهم لا يؤمن حتى يرى عذاب الله الأليم.

إن كذب هؤلاء على أنفسهم هو راحة مؤقتة لما في صدورهم، يريدون أن يثبتوا لأنفسهم أنهم على حق، ألم ترى قول فرعون لقومه، كما أخبر عنه الله (تعالى):" قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (غافر:٢٩)

بل بلغ الزيـغ والكذب على الله والكذب على نفسه وعلى الناس أن قال كما في التنزيل:" وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (غافر:٢٦)
وبلغ منه الكذب أن جاء بما لم يأت به أحد من العالمين فقال كما جاء في الذكر الحكيم:" فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٢٦) (النازعات:٢٣-٢٦)
فهؤلاء إنما يريدون أن يثبتوا لأنفسهم راحة بما وقر في قلوبهم، ولو خالف كل منطق، ولو خالف الحق المبين، يريدون سرابا يسمونه وجهة نظر، وهم في ذلك أكذب الناس، يكذبون ليريحوا أنفسهم وهم في الأخير في زيـغ.
إن راحة النفس الحقيقة ليس لها إلا وجه واحد، وهي توافقها مع نواميس الكون وأصول الديانة، فلا وجه مقارنة بين وحي أوحاه الحي القيوم السميع العليم، وبين اجتهادات بشر عالة على غيرهم، يعجز أحدهم عن معرفة ما يدور داخل أعضائه، بل يعجز عن فهم ما يحدث في جسده من حوادث وتغيرات يجريها الله بحوله وقوته.
أما من اختار راحة الحياة الدنيا بالكذب على نفسه، ودفع بيان الله عن حقيقتها فقد أورد نفسه سرابا في مفازة مهلكة، حتى إذا ورده لم يحصل إلا حصى ورمالا وخيبة وخسرانا.
فكن صادق الحال مع الله تكن راحتك حقة، ولا يغرنك مكر الله بهؤلاء.

١٧- مراحل تقبل التغيير

التغيير في الحياة أصل ثابت، فدوام الحال من المحال، وهذه الدنيا لا تبقى على حال، لا تفتأ تزعب [١] حتى تقفر، تبدو كبِكْر مليحة بهية، حتى إذا استقر في ناظريك حسنها، واقتربت تخطب ودها بدا لك منها الشمط [٢] والدرد [٣] والدمامة.

ولكن التغيير الذي أعنيه هنا ذلك التغيير الذي لا ترضاه ولا تقبله، بل يفرض عليك فرضا، فلا تختاره اختيارًا، بل تجري عليك به أقدار الله، فقد يكون اختبارا أو بلاءً، ذلك التغيير الذي يمارس عليك من كل المحيطين حولك، ليحولك إلى مخلوق يوافق هواهم، أو دمية يلعبون بها، أو مهرج يضحكهم، أو خادم يقوم على أمورهم، أو حمار يحمل أسفارهم.

ذلك النوع من التغيير الذي يسمى في ظاهره تغيير، أو تطوير، أو تنمية بشرية، أو مصطلحات أخرى لمَّا تستحدث بعد، لكنه في الحقيقة جنِّية تتلون في أثوابها تريد افتراسك.

والعجيب أن الكل يسعى إلى هذا التغيير تحت تلك الدعاوى، غايتهم إحداث صوت عال، كطبل أجوف، وهدفهم مطموس مجهول، كل همهم أن يقال: هؤلاء الرائدون المغيرون المطورون.

---

١ - **زَعَبَ** الإناءَ، يَزْعَبُهُ زَعْباً: ملأَه ومَطَرٌ زاعِبٌ: يَزْعَبُ كلَّ شيء أَي يَمْلؤُه، وجاءَنا سَيْلٌ يَزْعَبُ **زَعْباً** أَي يَتدافَعُ في الوادي (لسان العرب)

٢ - **شَمَطٌ**: بياضُ الرأسِ يُخالِطُ سَوادَهُ. (القاموس المحيط)

٣ - **أَدْرَدُ** بيّن **الدَّرَدِ** أي ليس في فمه سن والأنثى **دَرْدَاءُ**. (مختار الصحاح)

وتكون الضحية دائما ذلك الموهوم بشعارات زائفة، وصور مرصوفة كأنها النصب، يشبه في ذلك تلك اليراعات المفتونة بنار الموقد.
وذلك المسكين يمر بمراحل ثلاث إلى أن يصل إلى مرحلة طمس الهوية والبصيرة، ومرحلة غسيل الدماغ التي يعود بعدها كما كان في عهد الطفولة لا يعرف ما ينفعه مما يضره، يتلاعب به الناس، ويستسفهونه بالقول والفعل، ويضحكون عليه ملء أفواههم، وكأنه قد استولى على رأسه (ميكروب) فهو يوجهه.
المرء في ذلك لا يتحول تحولا مباشرا كمن زلت قدمه فانكفأ رأسا على عقب، بل الأمر له مراحل ودرجات، وهي كما أرى:
- المرحلة الأولى: مرحلة الرفض والمقاومة والإنكار.
تلك المرحلة التي يشعر فيها المرء أن أمرا يراد به، وأنه مستهدف بطريقة ما، لكنه لا يستطيع توصيف ما يحدث، أو الوقوف على حقيقة الأمر لكثرة ما يطرق أذنه من شعارات وكلام مزج باطله بحقه، فهو ليس على بينة من أمره فيه، فيحاول جاهدا دفع ذلك الهجوم الشرس على قواعده وحصونه ومبادئه.
- المرحلة الثانية: مرحلة السكون والكلل.
تبدأ هذه المرحلة بعد مدة من بداية هجوم تلك العصابة التي اجتمعت على ذلك المسكين من كل حدب وصوب، لا يريدون إلا قلبه، فهم على كثرتهم وجَلَدِهم، وهو على حيرته ووحدته يؤول به الأمر إلى الكلل والتعب والسكون، فتضعف عزيمته، وتفتر همته، ويتوقف عقله عن إعمال الفكر، وتخور قواه عن المقاومة، وهذه بحق أول منازل الانهزام والضياع .
- المرحلة الثالثة: مرحلة الاستسلام والانقياد.
وهي بحق ثالثة الأثافي، وهي مرحلة يرفع فيها المرء راية التسليم، وينقاد خلف خصومه أسيرا لا يملك من أمره شيئا، محققا لهم ما أرادوه منه

وفيه منذ الخطوة الأولى لاجتماعهم عليه؛ ألا وهي التسليم لهم؛ إما هوانه وضعفه وقلة حيلته، وإما تحولا وتبدلا وانسلاخا من جلدته الأصيلة إلى جلدتهم وهواهم .

تلك مراحل التغيير التي تعتري كثير ممن لا جذر له ثابت، ولا أصل له متين، فلو أن ريحا من البلاءات أو الفتن هبت لاقتلعته، أو أزالت عنه بهاءه، وعلمت حقيقته، فلا تغتر بكل دعوة تغيير أو تحديث أو تطوير، فليس كل من أزال عنك وحلًا زللت فيه يريد تنظيفك ومساعدتك، فلربما أزال ذلك الوحل ليتسنى له أكلك لقمة سائغة من غير كدر.

فاحذر -يرحمك الله- أن تجعل نفسك ريشة في مهب الريح، لكن كن جبلا بأصول ثابتة من وحي وسنة.

١٨- صناعة القرار واتخاذ القرار

كانت من المفاهيم والمصطلحات التي استرعت انتباهي عند دراستي لعلوم الإدارة التربوية؛ مصطلح صناعة القرار، ومصطلح اتخاذ القرار، فتنبهت كثيرا للفرق بينهما، وأصبحا فيما بعد من المفاهيم التي غيرت سلوكي في حياتي عامة، وفي تعاملي في نطاق عملي خاصة.

في البداية أوضح الاختلاف بينهما؛ فصناعة القرار عملية أكبر وأشمل من اتخاذ القرار، بل إن اتخاذ القرار جزء من عملية صناعة القرار.

وقد اصطلح علماء الإدارة على تقسيم عملية صنع القرار إلى ست مراحل؛ وهي: مرحلة تحديد المشكلة أو تعريفها_ مرحلة جمع المعلومات_ مرحلة تصنيف المعلومات وتحليلها_ مرحلة المفاضلة بين الحلول المقترحة_ مرحلة اتخاذ القرار_ مرحلة المتابعة والمراقبة والتقويم.

وقد زاد البعض، واختصر البعض من هذه المراحل، لكن ما يعنينا هنا أن عملية اتخاذ القرار هي مرحلة ضمن مراحل عدة.

ثم يأتي محور آخر غاية في الأهمية؛ ألا وهو التنظيم الهرمي في مراحل صناعة القرار.

فتبدأ المرحلة الأولى وهي توصيف المشكلة، وتعد هذه المرحلة نصف الحل للمشكلة، لهذا وجب فيها الوصف الدقيق والحقيقي، وتكون مهمة تحديد المشكلة أمر غاية في الصعوبة، لكون الأمر منوطا بمن سيحددها لأنه لابد له من خبرة و سلطة؛ خبرة تمكنه من توصيف المشكلة ومدى أصالتها، وسلطة تمكنه من الاعتراف بها، أو حمل غيره على ذلك.

وتأتي المرحلة الثانية وقد اشترك فيها جميع أفراد المؤسسة على كافة تخصصاتهم، وجمعوا كل المعلومات التي تبدو ذات قيمة، أو لها أهمية

في الوصول للهدف المرجو، وهو عمل فيه كثير من الصخب، وكثير من التضارب.
ثم المرحلتان الثالثة والرابعة التي تظهر فيهما قيمة التخصص؛ إذا يتولى المتخصصون في المنظومة الإدارية، تصنيف وتحليل البيانات بحسب الأهمية والتأثير، وهؤلاء بمثابة المحرك للطائرة أو السيارة، فعملهم هو ما يؤدي إلى جودة المنظومة وإتقان العمل من عدمه، ويقوم عملهم على تحويل البيانات الخام إلى معطيات و إحصاءات وأرقام، ثم يقومون بتقديمها إلى صانع القرار، وفي الحقيقة يعتبر القائمون على هذه المرحلة هم الموجه الفعلي لأية مؤسسة؛ إذ أن دفة السفينة تتوجه حيثما أرادوا، فإن أتقنوا العمل، وأحسنوا الاستنتاج والتصنيف، وكانوا أمناء صادقين، كانت مهمة متخذ القرار في غاية اليسر والحكمة والعدل.

وتأتي المرحلة الخامسة، والتي تشبه الولادة، فالولادة بالنسبة لعمر الحمل لحظة، ولكنها أصعبها وأقصاها، ويترتب عليها أمور جلل.
فاتخاذ القرار هو الوقوف أمام فوهة المدفع لتحمل كل التبعات الصعبة، أو أنه على الجانب الآخر بمثابة التتويج ببطولة، وتأتي بالطبع هذه المفارقة العجيبة نتيجة طبيعية لصحة القرار وتأثيره وأثره وتوقيته وعناصر أخرى تؤثر فيه.
ومتخذ القرار بلا شك لابد أن يملك سمات ليست عند غيره، وهذا ما لا يتوفر كثيرا، بالإضافة إلى كونه دائما ما يتحمل فشل الفريق حال السقوط.
وتأتي المرحلة السادسة، وهي المتابعة والتقويم، وهي صمام الأمان لاستمرار ونجاح أي عمل وأية مؤسسة، فالبرغم من أن عملية اتخاذ

القرار هي عنق الزجاجة، لكن عملية التقويم، هي الضمان للمؤسسة ألا تكون كل ولادة لها متعثرة.
كل هذا العرض للتفريق بين صناعة واتخاذ القرار أردت أن أخبرك به أن تصنع قرارك لا تتخذه، فمن كانت قرارته نتيجة صناعة متقنة محكمة قلما زل أو ندم أو أخطأ، أما من عاش حياته ينزع إلى التسرع والخبط والعشوائية في كل قرار كان مآله الندم والحسرة والخيبة والخسران، فاصنع قرارك صناعة، قبل أن تتخذه.

١٩- سيكولوجية المدخنين

أجلس متأملا متعجبا عندما أجد إنسانا أعرفه ينفث دخان سيجارته في الهواء وهو مستمتع، كمن خرج منتصرا من معركة حامية الوطيس، أتعجب كل العجب من فعله ونشوته بذلك النفس و النفث الوهمي، أتعجب من تلك الابتسامة الباردة على وجهٍ رسم الزمان عليه لوحة من أسًى وهمٍّ، وأسأل نفسي: ما المتعة التي يجدها في تدمير ذلك الجسد الذي أمَّنه الله عليه؟ بل ما الحكمة من إفساد صحة الآخرين؟ وربما كان هؤلاء الآخرون أقرب الناس إليه.

إذا طلب أحد من المدخن أن يتناول مادة القطران لرفض الفكرة بشدة، بل يكاد تضطرب معدته من مجرد عرض الفكرة عليه، فما باله يقوم بها فعلا، فإذا غُيِرت له صورة القطران بعد خلطها بأعشاب، ولفها بلفافة ناصعة البياض من ورق أو غيره.

تبدأ الأمور لدى المدخن بالتقليد الأعمى الذي يدل على اضطراب الشخصية، وتيه الروح، وطيش العقل، وعدم معرفة ما يصلحه وينفعه معتقدا أن التدخين هو وسيلة للهروب من المشاكل، أو راحة البال، أو أنه رمزا للرجولة أو الاستقلالية، أو الخروج من عباءة الطفولة، وهو لا يدري أنه بهذا واجه مشكلة مؤقتة، لينشأ مشاكل أعظم وأكبر متأصلة لا حل لها، كمن هدم مدينة ليبني قصرا.

تأخذ المشاكل صورا شتى، ومفاسد متعددة، فتبدأ بالجسد فتتلف الرئتين و تدمر خلايا المخ، وتضعف القلب، ثم تمتد بحسب الدراسات العلمية لأهل الاختصاص إلى نمو خلايا سرطانية في أماكن متفرقة في

الجسد، فضلا عما يكون من أذى عظيم للمحيطين بالمدخنين، فهم معه في الضرر سواء أو يزيدون.

وثاني المفاسد مترتب على الأول، فالتدخين بشهادة أهل الاختصاص من الأطباء والعلماء مفسدة عظيمة للجسد قد تهلكه، وعلى هذا أفتى أهل العلم وأجمعوا أن التدخين حرام، وحسبك من الدليل قول الله (تعالى):" وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ" (الأعراف: ١٥٧) ومن ذا الذي يجعل السجائر والدخان من الطيبات، ولا يجعلها من الخبائث؟!

وهاك بعض الإحصاءات التي نشرتها منظمة الصحة العالمية عن التدخين وآثاره، نذكرها من باب الاسترشاد، ومحاولة إقناع قوم الإحصاءات والتقارير والمؤسسات العالمية:

- يقتل التبغ نصف من يتعاطونه تقريبًا.
- يودي التبغ بحياة أكثر من ٨ ملايين نسمة سنوياً، من بينهم أكثر من ٧ ملايين يتعاطونه مباشرةً ونحو ١,٢ مليون من غير المدخّنين يتعرّضون لدخانه لا إراديًا.
- يعيش نحو ٨٠٪ من المدخّنين البالغ عددهم ١,٣ مليار شخص على الصعيد العالمي في البلدان ذات الدخل المنخفض والمتوسط.
- يزيد التدخين السلبي اللاإرادي لدى الرضع من خطر الإصابة بمتلازمة موت الرضيع الفجائي. وأما لدى النساء الحوامل، فيتسبب في مضاعفات الحمل ونقص الوزن عند الولادة.

- تشير كثير من الدراسات والإحصاءات إلى أن الإنفاق على صناعة التبغ والسجائر تكلف خزائن الدول مليارات من الدولارات كل عام، كما أنها تزيد أعباء ميزانية الأسرة التي يدخن عائلها.
- بلغت مبيعات التبغ حوال العالم في عام ٢٠١٠ حوالي ٧٢٠ مليار دولار.

ولن أزيد من ذكر احصاءات تتغير وتزداد كل يوم، لكن هذا بحق غيض من فيض.

ومن الظواهر الغير مفهومة في أيامنا هذه ظاهرة تدخين الفتيات والسيدات، بشتى أنواع التدخين، تحت دعوى الحرية الشخصية، فصارت رؤية بعض الفتيات يدخن (الشيشة) أو السجائر أمرا مألوفا، وخطورة الأمر ليس فقط مخالفة العادات والتقاليد في مجتمعنا، بقدر ما هو ضرر مباشر على الجنين أو الرضيع إذا كانت السيدة حامل أو مرضع، أو التأثير عليها بشكل مباشر في الصحة أو في قدرتها على الحمل والإنجاب فيما بعد.

فالدخان من اسمه دخان لا يثبت ولا يسمن ولا يغني من جوع، ولكنه مظهر آخر من مظاهر الهروب، والبحث عن مخرج غير شرعي من أزمات الإنسان التي لم يستطع أن يقف قويا لمواجهتها .

٢٠- نظرة إلى الداخل

كثير منا يبدو سمته الخارجي وهديه الظاهري على ما يجب أن يكون عليه سمت الصلاح وهدي الهدى، ولا الأمر كله معتبر في الإسلام، فالظاهر والباطن كلاهما أمر بهما الله الحكيم العليم رب العرش العظيم، لا يعلم كثير من خلقه حكمته في تدبيره وتقديره، وهو من يعلمهم ويهديهم سبل الرشاد، فيستنبط العلماء من عباده الحكم والمقاصد فيطمئنون ويثبتون ويقنعون ويرشدون من دونهم من العباد، فكل ما كان ظاهرا لا شك يتأثر به بالباطن، وكل ما كان باطنا ينعكس على الظاهر.

ولكن الحماس الذي يحمل المرء على الإسراع إلى اتخاذ مواقف لا يجب أن يكون هو المعيار الذي يحكم به المرء على نفسه أو غيره، فقد يتخذ المرء قرارا يجعله يتخذ هيئة أو سمتا أو يلتزم موقفا محددا، أو يعتنق فكرا، أو يميل إلى منحى من مناحي الناس.

ولكن مهلا حنانيك؛ كل التفاصيل الظاهرة - على كثرتها - ليست الحقيقة الكاملة، ولا تخبرك باليقين، إنما الحقيقة تحتاج إلى نظرة أقرب، ونظرٌ أَحَدُّ حتى تستبين لك تفاصيل أدق وأدق عن نفسك وعن غيرك، والتي ستدرك لاحقا كم هي فارقة في التمييز بين الوهم والحقيقة. وهذه التفاصيل اليسيرة تظهرها مواقف أيسر منها لتكشف حقيقة عظيمة مهولة مقررة، تسرك أحيانا وتفجعك أحيانا أخرى.

وكل الناس له دعوى بما يظهره، وبما يبديه للناس والله أعلم بسريرته، فهل دعوانا حقة و حقيقية؟! وهل لو نظرنا إلى الداخل سنراه هو هو متطابقا مع الباطن؟! فما بالنا ندعي الثبات في الملمات والنوائب، ولكن إذا نظرنا إلى الداخل، وفتشنا عن الهلع والجزع وجدنا أنفسنا كصبي

صغير تركوه في فلاة فإذا هو مبصر سبعا جائعا مقبلا عليه، فكيف تراه يكون حاله؟!

ندعي المروءة والشهامة عند معاينة مكروب أو مهموم، نواسي بالكلام، وترتفع عقيرتنا بأبلغ الألفاظ، ولكن إذا نظرنا إلى الداخل ففتشنا عن صدق الفعل والاستعداد لمؤازرة ذلك المهموم أو المكروب بالمال أو النفس أو الفِعاَل المشهودة، لوجدنا أنفسنا أجهز من خيل وكزه صاحبه ليفر من ساحة القتال.

ندعي الأمانة والورع والإيمان الخالص، ولكن هلَّا نظرنا إلى الداخل عندما نختلي بمحارم الله، والإجابة عند كثير منا لا تحتاج إلى بيان، رحم الله الذين يخشون ربهم بالغيب.

ندعي التعفف عن الكسب الحرام، ولكن انظر إلى الداخل هل إذا جاءت الفرصة للتقصير والتهاون في العمل ماذا ستفعل؟! وإذا ألمت بالناس ضائقة بماذا ستتاجر؟!

عندما تشتد المحن تجلو المعادن، والمعدن الأصيل لا يصدأ، بل يظل جوهره وأصله قوي ثابت إذا مسته النار، بل يزداد بريقه وتعلو قيمته كلما زادت تلك النار، أو هو كحجر الماس علته غبرة، فقط ينتظر نسيما رقيقا ينفض ذلك الغبار.

جاءت محنة يسيرة، وبعث الله أهون جنوده ليجعلنا ننظر إلى داخلنا، فمنا من علم الحقيقة وأعرض عن مقتضاها، ومنا من ثبت وصبر وشكر وحمد، ومنا من علم أين موضع قدمه فقرر المصارحة، وعزم على التغيير وعاهد الله على الصفا.

فانظر إلى الداخل عميقا في الفتن والبلايا والمحن، واعلم جلاء أمرك، فلن ينفعك دس رأسك في رمال الأوهام

٢١- العبادات والعادات

ببزوغ فجر الوعي في نفس كل مسلم يبدأ رحلة العلم النافع و العمل الصالح التي تكفل له في نهايتها الجائزة الكبرى، وكل منا خائض تلك الرحلة لا محالة، فمنا من أحسن إعداد زاده وراحلته، ومنا من فرط، فلا زاد ولا راحلة.

قال (تعالى):" يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (المجادلة:١١)
و عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال:" طلبُ العِلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ" [١]

وعقد الإمام البخاري (رحمه الله) بابا في صحيحه بعنوان: باب العلم قبل القول والعمل، لقول الله (تعالى):" فاعلم أنه لا إله إلا الله" (محمد:١٩) فبدأ بالعلم. وأن العلماء هم ورثة الأنبياء ورثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر ومن سلك طريقا يطلب به علما سهل الله له طريقا إلى الجنة [٢].

---

[١] - رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٨٥٦٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٦٦٧)

[٢] - ابن حجر العسقلاني. (٢٠١٠). فتح الباري بشرح صحيح البخاري. دار الكتب السلفية.

وقال (جل ذكره):" إنما يخشى الله من عباده العلماء " (فاطر:٢٨) وقال:" وما يعقلها إلا العالمون" (العنكبوت:٤٣) وقال (عزوجل):" وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير" (الملك:١٠) وقال (سبحانه):" هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون" (الزمر:٩)

وهذه المقدمة عن فضل العلم وقدره وأهميته تأتي لبيان قدر هذا الدين ورسوخه، وبيانه وتفصيله، وأن الله (تعالى) تعبَّد الناس بعلم وبيان، ولم يفرض عليهم ما لا يفهمون، قال (تعالى):" قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ " (يوسف:١٠٨)

فعبادة الله تكون على بينة وبصيرة وعلم وتفصيل، فقال (تعالى):" وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ" (الأنعام:١١٩)
كما أن عبادته (سبحانه وتعالى) تكون على مراده، وليس الأمر دينا من اختراع الناس، ولا ملة على أهوائهم، بل هو دين قيم، خالص له من دون خلقه.

فقاعدة العبادات والأعمال في الإسلام هي الإخلاص والمتابعة؛ الإخلاص لله، ومتابعة العمل على سنة نبيه، والأعمال الظاهرة للإنسان والتي تكون فيها المتابعة هي ما جعله الله أصلا للحكم على الأمور صحة وبطلانا، بل والحكم على إيمان المرء، إذ لم نؤمر بالتفتيش عن الباطن ولا اختباره.

ولكن ماذا لو تحولت العبادات إلى مجموعة من الحركات والممارسات النمطية التي اعتاد الناس جيلا بعد جيل القيام بها، ولم يُجْمعوا بها نية قبل عمل، وإخلاصا قبل فعل، ثم تأسيا واستننا عند الشروع؟!

سؤال جوابه مرعب، لأن أقواما من قبل ورثوا عن آباءهم عبادات فحولوها إلى عادات، ولم يعلموا لمن يتوجهون بالعبادة، ولم يعلموا سلفا لهم في العمل سوى ما كانوا يرون من آباءهم، ولا يستطيعون الاستدلال على ما يعملون إلا أن ذلك كان عمل الآباء.

إن المرء الذي يريد الاستبراء لدينه إذا ما سئل عن سبب فعله استطاع الاستدلال عليه، فهذا دينه دين العلم والدليل، أما ذلك الذي يحول العبادات إلى عادات ليس له فيها سند يرجع إليه وليس له فيها نية واضحة بائنة في قلبه، إنما هو أخو الجهل المفضي إلى البدع والموصل إلى غضب الله، ذلك الواهم الذي لم يدرك سبب استبدال أمم سالفة.

قال (تعالى):"" قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا" (الفرقان:٧٧)

وفي التفسير؛ أي: لا يبالي ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه؛ فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلا. [١]

فهذا الذي حول عبادته إلى عادة ليس له فيها إلا حركات وسكنات إنما حرم نفسه نعيم الدنيا، ووضع نفسه تحت الوعيد في الآخرة؛ فعنه (صلى الله عليه وسلم):" رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش" [٢] وهذا أبين وأوضح ما في هذا المعنى، فقد حول هذا

---

[١] - ابن كثير. (٢٠٠٠). *تفسير القرآن العظيم*. دار ابن حزم.

[٢] - رواه ابن ماجة (١٣٨٠) ، والنسائي (٣٢٤٩) واللفظ لهما، وأحمد (٩٦٨٣)

المحروم العبادة إلى عادة. ونحن في هذا لا نحكم إلا بالظاهر، فلا نحكم له إلا بصحة العبادة ظاهرا وسلامة الفعل ظاهرا والبراءة من الإثم والذنب ظاهرا، أما باطنه فالله أعلم به، وأما قبول عمله وعبادته فالله وحده هو أعلم بمن اتقى، وهو من يقبل العمل أو يجعله هباء منثورا.

٢٢- من الوهم ما قتل

حكى لي يوما رجل قد جرب الدنيا وارتحل في أروقتها؛ حتى صار خبيرا بكل دروبها ومسالكها_ عن قصة عايشها وتعلم منها ما لم يتعلمه في مدرسة أو جامعة.

قال أنه كان هناك ثعبان قد حير أهل مزرعة و روعهم، ولم ينجحوا في الإيقاع به وأعياهم أمره إعياءً شديدا، حتى كان يوما لمحوه وقد اختبأ في غُمْرٍ من قش، فأسرعوا بإشعال النار في ذلك الغمر، ثم ذهبوا وتركوه.
وبعد ساعة من نهار مر رجل غريب على مكان النار، وجلس يستريح ويتدفأ، وبينما هو يصطلي بالنار إذا لمح ما يشبه سمكة في وسط النار الخامدة، فظن أن أصحاب المزرعة كانوا يشوون سمكا على النار ونسوا تلك.
فامتدت يده إلى ما ظنه سمكة وأكل منه حتى شبع ثم انصرف، ومرت الأيام واستدار العام، ومر الرجل من نفس المكان مرة أخرى، ووافق مروره جلوس أصحاب المزرعة حول نار يحتسون بعض الشاي، فلما علموه غريبا ألحوا عليه في الجلوس للاستراحة وللشاي.

تجاذب الجمع أطراف الحديث بعدما تعارفوا، ثم قال لهم صاحبنا: لقد حدث لي موقف غريب في هذا المكان منذ عام، ثم قص عليهم قصة مروره وأكله من السمكة المنسية في النار.
فاستوقفه القوم في الحديث واستفسروا منه عن الموعد واليوم والتاريخ بالتحديد، ثم فاجأوه بما لم يكن ليخطر له على بال، أو يتوقعه قط، فأخبروه بقصة الثعبان، و أن ما أكله ما كان إلا ذلك الثعبان الذي حاصرته النيران التي أشعلوها.

فحدث ما لم يكن في الحسبان، ولا خطر على قلب أحد منهم، إذ وقع الرجل بعد سماع الخبر مغشيا عليه، فأسرعوا يقلبونه يمينا ويسارا، فإذا به قد فارق الحياة، وهم في ذهول لا يملكون إلا التسبيح والحوقلة.

حكى لي ذلك العم الخبير المجرب تلك القصة، ليتفتق معنى جديد في أخاديد عقلي، وتعلمت أن الوهم وهزيمة النفس والخوف قد يعمل عمل سيف صمصام، أو سهم مريش أصاب القلب.

يعرض للإنسان في ذلك الظل الذي نستظل به ونوشك أن نغادره حوادث جسام وأحداث صعبة، ويمر بأوقات عصيبة، ويبتلى المرء على قدر دينه، فسبحانه قال في محكم التنزيل:" أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (البقرة:٢١٤)
فالأصل مواجهة كل فتنة أو مصيبة أو ملمة بأمور ثلاثة، أولها الصبر، و ثانيها الاحتساب، وثالثها الأخذ بالأسباب؛ الذي هو أصل في الشريعة والإعراض عنه قدح في العقل.
فكل أمر الله مقدر مدبر، لا يكون إلا بحكمة بالغة؛ بشيرا أو نذيرا له الأمر كله والعلم كله.
وبينما أنت يا مسكين مغبون في نعم الله التي لا تحصى، إذ غافلك الشيطان وغرك بربك، فاعلم أنك أحد الرجلين؛ بين غافل لاهٍ، أو عابد شاكر، فإن كنت الأول فما يعرض لك في الدنيا فما هو إلا لردك وتقويم اعوجاجك، وإن كنت الثاني فأنت في بلاء واختبار تخرج منه وقد ذهب عن قلبك تلك البقية من الخبث التي علقت به من لعاع الدنيا .

ما أرسله الله (تعالى) على عباده من وباء ألم بالبشر بلا تفريق، فهو عبد من عباده يأتمر بأمره، ولا يكون شيء في كونه إلا بإذنه وعلمه، وقد شرع لنا الله في كل مصيبة ما نفعله وما نقوله، فإن خالفنا كانت العاقبة علينا لا لنا.

فاصدع بما تؤمر في الشدائد، ودع عنك الوهم، واستمسك بوحي الله، فإن أنت قضيت فقد قضيت وأنت على أمر الله، وإن عشت فقد ثبت في اختبار حقيقي، ولا تجزع من أمر الله، ولا تجعل الوهم والخوف والخلط آمرك وناهيك ومحركك، فسبحان من برد النار لإبراهيم، وشق البحر لموسى، ونجى يوسف من البئر، و أخرج محمد (صلى الله عليه وسلم) بين أيدي الكافرين وهم ينظرون شاهرين أسياف الغدر.

فالوهم قاتلك وأنت حي، والعلم واليقين والثبات منجيك ولو كنت على شفا جرف.

٢٣- القدوة الحسنة

جلست مع أطفالي يوما نتصفح صفحات من البداية والنهاية لإمام الدنيا أبي الفداء عماد الدين بن كثير، فأراد الصبية قصة سيدنا نوح، فبدأت أقرأ وأشرح وأيسر المعنى لهم بما يتناسب مع أعمارهم، وفوجئت بذلك السيل الجرار من الأسئلة التي لم أكن أتخيل أن ترد على ذهن طفل قط.

انتهت جلسة العلم المباركة، وبعد أيام قليلة وجدت أحد أبنائي يتناقش مع أخيه في أمر ما، ثم ضرب له المثل بفعل سيدنا نوح (عليه السلام)، ففرحت فرحا عظيما، وتهلل وجهي، وحمدت الله حمد الشاكرين على ما سمعت.

وجلست أفكر في كثير من طلابي على وجه الخصوص، وأبناء الأمة على وجه العموم الذين ليس لهم من يقص عليهم قصص الأنبياء وسير الصالحين، كيف سيعلمون أو يعرفون الفعل الصواب أو القول الحق في معترك الحياة وهَزِيمُها.

كثير منا_ نحن الكبار_ لا يملك ملكة الاستقراء، وفهم المقصود من الكلام المقروء، ونحن جميعا مختلفون في فهم ما نقرأ ونسمع، فما بالك بأولئك الهياثم والأشبال، الذين يتحسسون طريقهم في أرض وعرة موحشة، فالجميع يحاول الفهم بقدر ما آتاه الله (تعالى) من فطنة وذكاء، ولكن سنة الله في خلقه اقتضت تباينهم واختلافهم.

لهذا كانت قصص الأنبياء وأخبار الصالحين هي المثال الواقعي لما يجب أن يفعلوه إذا خاضوا مواقف مشابهة، وفيها بيان الأسباب والنتائج، وفيها التفاصيل التي لا تظهر في القواعد والقوانين.
قال تعالى:"لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" (يوسف:١١١)
فكانت قصص الأنبياء وسير الصالحين العبرة والمثل والمنهاج لمن أراد رشدا وسدادا وعملا صالحا صحيحا.
وقد عقد الإمام البخاري في صحيحه بابا عَنْوَن له بعنوان عظيم، يحمل في حروفه فقها عاليا وعلما كبيرا، فقال: (باب عذاب الميت ببكاء أهله عليه إذا كان هذا من سنته)
فالميت يعذب إذا بكى أهله عليه البكاء المنهي عنه إذا كان يعلمهم ذاك في حياته، أو يسكت عليه إذا فعله أبناؤه أمامه.
ما من فعل للأب أو للأم يريدون به إقامة أبنائهم على سبيل الهدى والرشاد متأسيين بهدي السالفين من الأنبياء والصالحين إلا جعل الله فيه بركة عاجلة أو آجلة، ألا ترى كيف أبقى الله عمل الآباء الصالح لأبنائهم كما في قوله (تعالى):" وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا " (الكهف: ٨٢)
وفي التفسير: أبوهماً صالحا؛ أي: حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحمتهما، لكونهما صغيرين عدما أباهما، وحفظهما الله أيضا بصلاح والدهما. (تفسير السعدي)[١]

---

١ - تفسير السعدي

وقدوة الإنسان الحسنة هي أبلغ ما يسترشد به المسترشد، وأرجى ما يستيقن به العبد من سلامة مسلكه وبيان طريقه، ألا ترى ذلك في قوله (تعالى):" لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا" (النساء: ٢٠)

فما من واجب بعد عبادة الله على الآباء والأمهات في هذا الزمان الذي اختلط فيه كل شيء، أكثر ولا أهم من بيان المثل والقدوات التي مدحها الله حتى لا يتخذوا سواقط من البشر مُثلا وقدوات يحتذون بها، فللأمر أثر عظيم في النفس، وفي قصص الأنبياء والصالحين وأخبارهم في كتاب الحكيم الكفاية والتمام، فهم الصالحون الذين أوصى الله عباده أن يعتبروا ويقتدوا ويتأسوا بهم.

فاترك لنفسك في ولدك صدقة جارية، وعملا موصولا، وحسنات كثيرة، ولا تتركهم لشاشات التلفاز، أو رفقاء السوء في الشارع، أو تجار العقول، أو سحرة الزمن الحديث.

٢٤- اقرأ عقلك أولا

جمع القوم من أهل العلم جميعا شغف واحد، وكأنها (جينات) قد ولدوا بها؛ ألا وهي حبهم للقراءة والكتب والمطالعة والمعرفة والتعلم، فغالب من يطالع هذه الكلمات الآن _ في غالب ظني_ هو ممن شغف عقله بالقراءة والمطالعة والمعرفة، ولكن تختلف اهتماماتنا في نوع الكتب التي نقرؤها، وطبيعة الموضوعات التي نطالعها، ونحن في ذلك كالأقطاب المتنافرة.

ولعلك لو سألت نفسك عن سبب هذا التنافر، وعلة هذا الاختلاف بين أهل العلم والمعرفة، ورواد الثقافة والفكر، لوجدت الإجابة بديهية، تعرفها لكنك قد لا تستطيع صياغتها.

ولكن دعني أحاول صياغتها معك في هذه العبارات؛ كل منا منذ الصفحة الأولى التي طالعها هو أسير لفكرة معينة يدور معها حيثما كانت، ويعارض بشدة كل ما خالف مشربه الأول، وتزداد هذه المعارضة، ويشتد ذلك الإخلاص لفكرة ما إذا كان من ورائها معلم أو أستاذ أصلها في نفسك وناولها لك مناولة الدواء، ويظل الكثير منا مدافعا دفاع الجندي الأخير في موقعه عن تلك الفكرة، حتى يجد نفسه في يوم من الأيام رائدا أو منظّرا لمبادئه وفكرته التي بناها لبنة بعد لبنة كما يبنى البناء العظيم.

ولا شك أن أولئك المخلصون لفكرهم ومعتقدهم وثوابتهم، هم خير الناس، وهم من تقوم عليهم الأمم، وتنبني عليهم الحضارات، ولكن يبقى السؤال الأهم والأصعب؛ ماذا لو كان ما بناه بعض أصحابنا في عقولهم من بناء يعتزون به قاصر أو منقوص أو مختل أو خاطئ؟! ماذا لو كانت أبراجهم العالية قد بنيت على شفا جرف هارٍ؟! ماذا لو أنه لم

يقرأ ولم يتعلم إلا ما عُلِّم؟! ماذا لو أنه ما قرأ غير ما كان في شاطئه، ولم يعبر قط للضفة الأخرى من نهر العلم والمعرفة؟!
عله إذا اكتشف أنه مخطئ في يوم من الأيام في تبني وجهة نظر محددة، فلربما لا يستطيع أن يدرك ما فاته، ولا يقدر على إصلاح ما أفسده، وفهو ليس بقادر على أن يعود سنوات إلى الوراء، وليس كل الناس يملك الشجاعة والإخلاص أن يعلن عن أخطائه، فما رأينا هذا إلا في النذر اليسير من البشر الذين بان لهم الحق.
وما أمر أبي الحسن الأشعري صاحب المذهب المعروف عنا بخفي، فقد أسس المذهب ودعا إليه وغاب غالب حياته يقعد القواعد لمذهبه، ويعلمها تلاميذه حتى صار المذهب مشهورا معلوما مُتَّبعا لدى خلق كُثُر، حتى ما كان منه في آخر حياته أن رجع عن كثير مما قال، وذهب مذهب أهل الحديث والأثر بعدما ناطحهم زمانا طويلا، وكتاب (الإبانة عن أصول الديانة) الذي ألفه بعد رجوعه عن مذهب المعتزلة والذي كان آخر مؤلفات الإمام الأشعري ذكر ذلك غير واحد من أهل العلم.
فهذا مثال لرجل بان له بعد ردح من الزمان خطأ فيما كان يذهب إليه، فرجع وأبان، وليس كل من بدا له خطؤه يتحلى بهذه الشجاعة، أو ذلك الإخلاص.
وبيان ذلك كله أن الخلل لا يكون في المقروء ولا في الفكر المعتنق بقدر ما يكون في منهج العقل المتبع في بناء المعرفة والعلم، فلو أن كل بني العلم والكتب والمعرفة قدموا منهج الإنصاف في الحكم على المقروء، وعرضوا على أنفسهم رأي الآخر، وكان لهم أصولا في الطلب والقراءة لكان خيرا لهم، وأرجى وأسلم عند الله وأثبت عند الناس.
فمن أراد سلامة في فكره، وسدادا في رأيه، وإنصافا في خصومته، وبراءة عند الله من الذلل والخلل والوقوع في الأعراض والعقول، فليقرأ عقله أولا.

٢٥: في التنور

يدخل الحديد التنور حتى يشتد، وكذا الذهب حتى يبدو بريقه وأصله، معادن كثيرة لا يبدو أصلها وجوهرها إلا بعد تقلبها في التنور تقلبا، وكذا أنت وأنا ما نتقلب في تنور الحياة إلا لتظهر معادننا أو مادتنا، فمنا ما يكون خشبا، فإذا اشتدت عليه نار التنور استحال ترابا، ومنا الحديد، ومنا الذهب، ومنا معادن شتى.
ولا يحسبن كل موصوف بمسحة من عقل أن الدنيا بدنوها وزخرفها الزائل ستستقيم له على حال، لكنها متقلبة متحولة، لا تعرف حقيقتها إلا بعد الاصطلاء بنارها، لتخرج لها قويا شديدا معافى فتواجهها، أو تحولك إلى رماد لا تفتأ الرياح أن تذروه.

تنور الحياة كثيرا ما يستعر علينا، ويغلق تغليقا فلا نجد منه مهربا، ولا يشعر بنا أحد فيمد إلينا يد المساعدة، وليس لنا من كل هذا فكاك أو مهرب إلا بالصبر واليقين والاعتقاد الجازم أن الله إنما أدخلك ذلك التنور ليجلو معدنك من الصدأ والخبث.

وأنت في التنور تستكشف أعاجيب شتى، فترى من يحاول جاهدا انتشالك منه بكل سبيل، حتى أنه يمد يديه العاريتين لينقذك، ومنهم من ينظر إليك مظهرا شفقته وتأسيه على حالك؛ فحسب مودته لك هذا الحد، ومنهم من يضرم عليك النار ويحمل الحطب.
وأنت في هذ الحال و ترى العجائب، تكتشف معادن كانت بداخلك لم تكن لتعرفها لولا هذا التنور الذي تتقلب فيه.
في التنور آلام وأحلام وآمال، في التنور يجتمع في قلبك الخوف والرجاء، في التنور تتعلم الصبر الجميل.

قال (تعالى):" وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ" (البقرة:١٥٥)
وقال (عزوجل):" أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (البقرة:٢١٤)
وقال (جل ذكره):" إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (آل عمران: ١٤٠)
وقال (سبحانه):" الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (آل عمران:١٧٣)
فمن اختبر منا شدة نار التنور التي تلظى ولا تكاد تنطفي، فلا يبتأس ولا يقنط فإنها والله المنح من المحن، وإنها والله سنن الله في خلقه، فكم من رجل أراد الله استعماله فهيأه قبل ذلك بتلك النار المتوقدة حتى خرج منها ولم يكن يظن أنه خارج يوما_ خرج كأحكم الناس عقلًا، وأثبتهم قلبًا، وأشدهم بأسًا، وأجمعهم أمرًا.

٢٦- جحود النعم، وإنكار الآيات

روى ابن كثير في البداية النهاية قصة عجل بني إسرائيل فقال: "يذكر (تعالى) ما كان من أمر بني إسرائيل، حين ذهب موسى (عليه السلام) إلى ميقات ربه، فمكث على الطور يناجيه ربه، ويسأله موسى (عليه السلام) عن أشياء كثيرة، وهو (تعالى) يجيبه عنها، فعمد رجل منهم يقال له السامري، فأخذ ما كان استعاروه من الحلي فصاغ منه عجلا، وألقى فيه قبضة من التراب، كان أخذها من أثر فرس جبريل (عليه السلام)، حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه، فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقي.

ويقال: إنه استحال عجلا جسدا؛ أي لحما ودما حيا يخور . (قاله قتادة وغيره)

وقيل: بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه، فيخور كما تخور البقرة، فيرقصون حوله ويفرحون.

فقالوا: هذا إلهكم وإله موسى فنسي؛ أي فنسي موسى ربه عندنا وذهب يتطلبه وهو هاهنا، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، وتقدست أسماؤه وصفاته، وتضاعفت آلاؤه وعداته

قال الله (تعالى) مبينا لهم بطلان ما ذهبوا إليه ،وما عولوا عليه، من إلهية هذا الذي قصاراه أن يكون حيوانا بهيما وشيطانا رجيما:"أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا وقال:"أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (الأعراف:١٤٨)

فذكر أن هذا الحيوان لا يتكلم، ولا يرد جوابا ولا يملك ضرا ولا نفعا ،ولا يهدي إلى رشد، اتخذوه وهم ظالمون لأنفسهم عالمون في أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل والضلال، ولما سقط في أيديهم أي؛

ندموا على ما صنعوا، ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين. [1]

فهذا بيان مفصل من الله بما فعلوا، بعدما نجاهم من أشد محنة عانوها في تاريخهم؛ لما تسلط عليهم فرعون وجنده يسومونهم سوء العذاب، ومن بعد أن أراهم الله الآيات المعجزة، ونصرهم وأعزهم على ضعفهم و قلة عددهم، وجبروت عدوهم وكثرته، وهم مع ذلك في أول اختبار حقيقي نكسوا على أعقابهم، ونسوا ما كان من الله معهم.

ولما كانت هذه الأمة أشبه الأمم في معاصيها بتلك الأمة المغضوب عليها؛ لما قاله النبي (صلى الله عليه وسلم) فعن أبي واقِدٍ اللّيْثِيّ قالَ: خرجْنَا مَعَ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى حُنَيْنٍ، ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سِدْرَةٍ يعْكُفُونَ عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذاتُ أنْواطٍ فمرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فقُلنا: يا رسول الله، اجْعَل لنا ذاتَ أنْواطٍ كَما لهم ذاتُ أنْواطٍ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: « اللهُ أكْبَرُ!، إنها السنن! قلتم والذي نفسي بيده كَمَا قَالتْ بَنُو إسْرائيلَ: ﴿ اجْعَلْ لَنَا إلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةً قال إنكم قوم تجهلون ﴾ (الأعراف: ١٣٨). لترْكَبُنَ سَنَنَ منْ كان قبْلِكُمْ" [2].

وعن عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم):" ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك" [3]

---

[1] - البداية والنهاية لابن كثير

[2] - رواه الترمذي (٢١٨٠)

[3] - رواه الطبراني (١٤٦٤٦)، والحاكم (٤٤٤)، والترمذي(٢٦٤١) واللفظ له

إن المعجزات في حياتنا تحدث كل يوم بل كل ساعة؛ يراها من أراد أن يراها حقا، وينكرها من عمي قلبه قبل بصره، ولو رأي أحد منهم أبوابا من السماء مفتَّحة لقالوا كما وصفهم رب العزة "وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥)" (الحجر:١٤-١٥)

لكن أصحاب العجل الذين يشبهوه رأسا وجسدا وخوارا لا يكادون يتذكرون كم رأوا في أنفسهم آيات بينات، وستر سابغ! كم نجاهم الله من نوازل وأمراض وحوادث! كم أمنهم الله على أنفسهم وأولادهم!

إن الله أسبغ نعمه وأمر بشكرها حتى لا تزول، وهذا مقرر معلوم في الفطر، وثابت بالاستدلال العقلي، وهو أصل عظيم أقره الشرع، والله بتقديره وتدبيره وعلمه يري الإنسان الآيات، ويوصلها إلى نفسه من طرف خفي يعلمه سبحانه، بل إن المرء تراه يسير في الطريق لا يأبه إلى من حوله، لكنك تجده فجأة قد تنبه إلى موقف بعينه، أو أنه استمع آية في إذاعة القرآن الكريم، وكأن المذياع قد علا فقط في موضع هذه الآية، ألا ترى أنها آيات يريكها الله، ورسائل موجهة لك خاصة.

فهذه حكمة الله في خلقه يخلقهم ويرزقهم ويعلمهم، ثم لايزال بهم يبعدهم عن حبائل الشيطان، ويريهم من الآيات ما يذكرهم، ويرزقهم من النعم ما يعينهم، ثم هم يتنكرون وينسون ويجحدون كما تنكر ونسي وجحد أصحاب العجل.

٢٧- المحدثون ...الملهمون

عن أبي هريرة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَ) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ:" قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ " (رواه البخاري ومسلم)[١]

وقد ذهب شراح الحديث في معنى محدثون إلى أقول عدة، منها:

ما قَالَه إِسْحَاقُ بْنُ بُهْلُولٍ الأَنْبَارِيُّ في فضائل الصحابة، قُلْتُ لأَبِي ضَمْرَةَ: مَا مَعْنَى يُحَدَّثُونَ ؟ قَالَ: يُلْقَى عَلَى أَفْئِدَتِهِمُ الْعِلْمُ.

وما قاله الْحُمَيْدِيُّ في شرح مذاهب أهل السنة: الْمُلْهَمُ لِلصَّوَابِ.

وقال الإمام الآجري في الشريعة:وَمَعْنَاهُ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ (عَزَّ وَجَلَّ) يُلْقِي فِي قَلْبِهِ الْحَقَّ، وَيَنْطِقُ بِهِ لِسَانُهُ، يُلْقِيهِ الْمَلَكُ عَلَى لِسَانِهِ وَقَلْبِهِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قال الإمام الطحاوي في شرح مشكل الآثار:مَعْنَى قَوْلِهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مُحَدَّثُونَ أَيْ: مُلْهَمُونَ , وَكَذَلِكَ يُحَدَّثُونَ أَيْ: يُلْهَمُونَ حَتَّى تَنْطِقَ أَلْسِنَتُهُمْ بِالْحِكْمَةِ كَمَا كَانَ لِسَانُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَنْطِقُ بِمَا كَانَ يَنْطِقُ بِهِ مِنْهَا.

وكلها معان غاية في الروعة والحسن والفضل، ووصف إنسان بها هو تمام الفضل وحسن الإيمان والاستقامة على أمر الله.

وهذا مما اختص الله (تعالى) به أولياء هذه الأمة من الكرامات، وكذلك غيرهم من صالحي الأمم السالفة؛ والكرامة عندنا كمسلمين لا ترتبط بالخرافات ولا شطحات بعض غلاة الصوفية، إنما هي فرع على صلاح

---

[١] - رواه البخاري (٣٤٦٩)، ومسلم (٢٣٩٨)

العبد وملازمته سنة النبي (صلى الله عليه وسلم)، حتى قال الشافعي (رحمه الله):" إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة "
وترى الرجل موفق للحق فيما ينطق به، أو يفصل بين الناس في معرض الحكم بين المتخاصمين أو المتنازعين، بل ترى ذلك أحيانا في الصبية الصغار.
ولو نظرت في حال هؤلاء لرأيت عجبا كيف يمن الله على عباده الصالحين بهبات ومنح، تثبيتا لهم ومكافأة؟!
وفي الحديث سالف الذكر اختلف بعض شراح الحديث في كون الأمر موقوف على عمر (رضي الله عنه) أم أنه يقع في عموم الأمة، وبالرغم من هذا الخلاف، إلا أن الله كما يذكرنا يختص بعض عباده بمنح تصل إلى حد الكرامة، مادام على أمر الله، وما حديث النبي (صلى الله عليه وسلم) عنك ببعيد، فعن حنظلة الأيدي (رضي الله عنه) قال: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقالَ: كيفَ أَنْتَ؟ يا حَنْظَلَةُ قالَ: قُلتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قالَ: سُبْحَانَ اللهِ ما تَقُولُ؟ قال: فَنَسِينَا كَثِيرًا، قالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هذا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حتَّى دَخَلْنَا علَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، قُلتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يا رَسُولَ اللهِ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ وَما ذَاكَ؟ قُلتُ: يا رَسُولَ اللهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِن عِندِكَ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا فَقالَ رَسُولُ اللهِ(صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ): وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ إنْ لو تَدُومُونَ علَى ما تَكُونُونَ عِندِي، وفي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ علَى فُرُشِكُمْ وفي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ." [1]

[1] - رواه مسلم(٢٧٥٠)، والترمذي (٢٥١٤)

فجعل النبي (صلى الله عليه وسلم) من شدة صلاحهم وتعلق قلوبهم بالله أن الملائكة توشك أن تصافحهم كرامة لهم، وغيرها كثير من المواقف المشهودة في حياة الصحابة (رضوان الله عليهم)

فلعلك بعد هذا تتخذ سبيل الهدى والرشاد والصلاح إن أردت كرامات ومنح، إن أردت أن ترى الحق بصيرة، وتنطق به مُحَدَّثا.

٢٨: نافس نفسك

نسمع أن كثيرا من اللاعبين الرياضيين في مسابقات الألعاب الأولمبية يتنافسون لتحطيم أرقام أولمبية قد حققها زملاء لهم في دورات سابقة. ولكن ترى بعض هؤلاء الرياضيين قد بلغ من الإجادة والإتقان لدرجة وصوله إلى رقم لم يستطع غيره الوصول إليه، فتفرد به، وأصبح هو سقف الأمر، ولكن بعد فترة من الزمن ترى نفس الشخص قد حطم رقمه القديم، وسجل رقما جديدا باسمه.
وهنا يسأل سائل، وما الفائدة من منافسة نفسه؟ والإجابة يعرفها جيدا صنف واحد من البشر، صنف اعتاد الإتقان وأحب الإحسان واعتاد تمام الأمر، ولم يجعل من نفسه أطلالا مندرسة، أو أسوارا مهدمة، لكنهم نوع جعل همته بناء نفسه قلعة عالية أسوارها منيعة.

أولئك المُلْهِمون الذين ضربوا المثل بالواقع العملي في إرادة الإنسان وحدود قدراته التي لم يكتشفها بعد، ولن يكتشفها إلا بعد خوض عباب البحر الهائج.
ومن قنع أن ما يصل إليه من نجاح في الدنيا هو أقصى ما يستطيع الوصول إليه، فلينظر في جيل الصحابة، كيف خرجوا من مراعي مكة وصحراء جزيرة العرب، إلى سعة الدنيا والآخرة، فعملوا بما يُسِّروا له، فكلٌ ميسر لما خلق، فلا تظنن أن الله (تعالى) رزقك موهبة أو خلقك تتقن أمرا ما دون غيرك من البشر هباء بلا سبب، بل ذلك لأنه يريد منك دورا محددا في هذه الحياة، فمن قام لله بالحق بما أقامه فيه فقد وفي، ومن فرط في أمر الله فيوشك الله (عز وجل) أن يستبدله ولا يستعمله.

فالأصل في الإنسان أن يبذل الوسع في أن يقوم بالدور الذي اختاره الله له وقدره عليه، لا أن يتخاذل ويرضي بالقبوع في قيعان الحفر.
ومن بركة منافسة الإنسان نفسه حتى يصل بها إلى الكمال البشري أو يكاد، أنه لا ينشغل بغيره؛ فلا هو يحسد هذا ولا يحقد على ذاك، ولا يكاد ينزلق مع الناس في سفاسفهم و سفاهاتهم، فيحفظ قلبه سليما من الانتكاس والشبهات والاختلاط والوهم.
ومما يحبب في الأمر ويرغب النفس فيه، أنك كلما وصلت إلى مرحلة طاقت نفسك للتالية؛ لما رأيت من النعم و السعادة في ارتقائك يوما بعد يوم.
فنافس نفسك وانشغل بها عن غيرك، وواجهها ولا تهرب منها تسعد.

٢٩: الكذابون والمتوكلون

المدينة الفاضلة هي مدينة النبي(صلى الله عليه وسلم)، دين ندين الله به أنها خير مكان شهدته الدنيا بما جمع الله فيها خير جيل شهدته الدنيا، وكان هذا بما سبقوا من الإيمان واليقين، ثم بصفة اجتمعت لهم جميعا على كثرتهم ألا وهي الصدق، فلم يُؤْثر عن أحد منهم قط كذبا، فلم يكن الرجل منهم يفكر حتى في الكذب، ذلك بأنهم متوكلون على الحقيقة.

ولكن ما ابتلي به أهل هذا الزمان، فصار كموج البحر المتتابع هو الكذب، فصار الكذب لغة و معيارا لكثير من أهل هذا الزمان إلا من رحم الله، فكلما صار المرء حاذقا متقنا متفننا في فنون الكذب، عارفا بمسالكه ودروبه، كلما صار من صفوة أهل هذا الزمان ونجومه.

وما يجعل الأمر محيرا فعلا، هو أنك ترى الكذاب يتباهى و يشرأب برقبته بين الناس أن هلموا ها أنا ذا أفضل الكذابين وأمهرهم.

وما يحمل الناس على الكذب هو قلة التوكل أو ضعفه ضعفا شديدا جدا، وهو سبب جامع لكل صور الكذب؛ كذب اللسان، وكذب الأفعال.

فدافع الكذب عند الناس هو الخوف؛ الخوف من فقد رزق أول عمل، أو الخوف من عدم تحصيل منصب أو مكانة، أو خوف من عقوبة، ولو تدبرت لوجدت أن هذا الأمر تفسيره الوحيد أن الإنسان قد قل توكله على الله، وقل إيمانه ويقينه في تدبير الله وقدرته التامة، ولسان حالهم "يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله" (آل عمران: ١٥٤)

وعلى الطرف الآخر ترى المتوكلون لسان حالهم هو ما فعله النبي (صلى الله عليه وسلم) يوم الحديبية، عندما قال:" إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي" [1]

وعندما جاء رجل يشتكي إليه من مرض أصاب بطن أخيه، كما في الحديث؛ جَاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ (صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ) فَقالَ: إنَّ أَخِي اسْتَطْلَقَ بَطْنُهُ فَقالَ رَسولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ) اسْقِهِ عَسَلًا فَسَقَاهُ، ثُمَّ جَاءَهُ فَقالَ: إنِّي سَقَيْتُهُ عَسَلًا فَلَمْ يَزِدْهُ إلَّا اسْتِطْلَاقًا، فَقالَ له ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ جَاءَ الرَّابِعَةَ فَقالَ: اسْقِهِ عَسَلًا فَقالَ: لقَدْ سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إلَّا اسْتِطْلَاقًا، فَقالَ رَسولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ): صَدَقَ اللَّهُ، وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ، فَسَقَاهُ فَبَرَأَ . [2]

فالكذب والتوكل طرفي نقيض، إذا قل أحدهما زاد الآخر.

ولكن ما خطورة قلة التوكل، تكمن الخطورة أنها تجعل الإنسان بالكلية في حالة زعر كامل، وخوف من كل شيء، مما يحمله على الكذب، وقد يزداد الأمر فيؤثر على سلامة القلب بالكلية.

فكل كذاب_ولايسمى الكذاب كذابا إلا إذا استوى عنده الصدق مع الكذب والحق مع الباطل_ خائف على الدوام من الناس وأفعالهم، يحاول الفرار منهم، ولكنه يفرمن سراب إلى وهم، ولو أنه فر إلى الله، لآواه ونصره ودافع عنه.

قال (تعالى):" وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ" (إبراهيم:١٢)

---

[1] - رواه البخاري (٢٧٣١)

[2] - رواه البخاري (٥٦٨٤)، ومسلم (٢٢١٧)

٣٠: سوء تفاهم

من أكثر العبارات التي نسمعها في حياتنا اليومية، هي عبارة (عذرا، إنه سوء تفاهم) عبارة حمالة ذات وجوه شتى، ولكنها في النهاية مفتاح لباب الأعذار، وباب كبير لإبقاء المودة بين الناس.

قال الله (تعالى):"إن سعيكم لشتى" (الليل: ٤) فالناس مختلفون اختلافا عظيما، في كل أمور حياتهم، وأبين البيان لاختلافهم في أفهامهم، أنك ترى الجمع من الناس يسمعون الكلام الواحد من الشخص ذاته؛ كما في خطبة الجمعة مثلا، ثم ترى فهمهم له بعيد كل البعد عن الاتفاق حتى يكادوا أن يصلوا لدرجة التنافر، بل قد ترى الأمر وضده في أفهامهم.
وسوء التفاهم إنما ناتج عن أمور عدة سأحاول تلخيصها فيما يلي:
أولا: إصدار أحكام مسبقة على شخص أو موقف دون الوقوف على حقيقة أمره، ولكنه اتساع الأذن وضيق العقل، فيسمع الرجل في الرجل الكلام العظيم فيحكم عليه حكما مفجعا، وهو لم يره قط، وليست المشكلة إلا في نفسه التي اعتادت الظن، ودأبت على تصنيف الناس، فتعلم - يرحمك الله- ألا تقطع عنق أخيك ولمَّا تعرفه بعد.
ثانيا: اختلاف الأفهام والعقول، فعن عَبْدَ اللهِ بنَ مَسْعُود (رضي الله عنه) قالَ: ما أنْتَ بمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ، إلَّا كانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً.
فاختلاف الأفهام له في الشرع اعتبار، وهذه سنة الله في خلقه- سبحانه يخلق ما يشاء - واختلاف العقول بلا شك مسوغ لاختلاف الأفهام، فضع هذه نصب عينيك.

ثالثا: اختلاف العلم؛ ولا أقصد هنا باختلاف العلم تباين الدرجات العلمية بين الناس؛ إنما أقصد تباين وصول العلم للأطراف المختلفة الواقع بينها سوء التفاهم، فقد يصلك ما لم يصل أخيك من العلم، فاعتبر بذا واجعله من المعاذير.
رابعا: حوادث الزمان، قد تكون جبلتك ونشأتك جعلتك تألف وتنهج طريقة محددة في المعاملة والحديث، والحياة عامة، ولم تختبر ما اختبره البعض من ألم أو حرمان أو عذاب، فتجعل حياتك هي المقياس التي تقيِّم به غيرك، وهذا من الخطأ العظيم، فليس من سمع كمن عاين، وليست مرارات الحياة التي لم تتذوقها سهلة، لكن الله عافاك منها.
خامسا: شياطين الإنس، فكم من شيطان تطرده بتعوذك! فيفر فرار الفأر المذعور، ولكن شياطين الإنس لا يفرون، بل يقعدون على أفواه السكك يسدون كل خير يوقعون الناس في سوء وكدر و حَزَن، ولعل شوقي قد أجاد الوصف حينما قال:

مـــالَ واحتجـــب وادَّعَى الغضـــب
ليـــت هـــاجري يشـــرحُ الســـبب
عَتبـــــُه رضًى ليتـــــه عتـــــب
عـــــلَّ بيننـــــا واشـــــيًا كـــــذب

فاعرف السبب تبطل العجب، وعش حياتك مع إخوانك بلا سوء، وكن طيبا لينا هينا آلفا مؤلفا مألوفا.

٣١: الحمار يعرف الطريق وحده

كان من عادتنا في القرى المصرية إذا اشترى أحد الناس حمارا جديدا أن يأخذه إلى حقله مرتين أو ثلاث على الأكثر ولا يزيد عن ذلك إلا فيما ندر؛ السبب في ذلك أن يعرِّف الحمار طريق الحقل؛ لأن الحمار بعدها يعرف الطريق وحده، حتى أنه قد يحمِّله مما أخرجته الأرض من حقله، ثم يرسله فيمضي في طريقه فلا يضل، ولا يفرِّط في حمله حتى يصل به إلى الدار.

ويعرف كل من نشأ مثلي في قرية مثل هذا الأمر، وقليل ما شذ عن هذه القاعدة حمار من الحمير، ولكن يحدث أن أحيانا أن يكسر القاعدة حمار، كنا نسميه (الحمار اللئيم)

والعجيب أن الحمير تتعلم بإلف العادة، فإن هنَّ أو شرد، فعرَّج صاحبه على أدبه، فلا يفتأ أن يعود سيرته الأولى في لزوم طريق الحقل.

توقفت يوما أتأمل حال الحمار، وتذكرت وقتها قول الله (تعالى):" أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣)أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (الفرقان: ٤٣-٤٤)

وتعجبت من بلاغة ودقة الآية في وصف حال من ضل فاتبع هواه فاتخذه آمرا ناهيا قائدا له في كل جب سحيق أراد أن يقحم نفسه فيه.

الحمار إذا أراه صاحبه الطريق علم أماراته و مسالكه ودروبه، وإذا ضل الطريق أو تلكأ فعاقبه صاحبه وأراه بينة من الطريق مرة أخرى، رجع وتاب وأناب ولزم الطريق ولم يعقب، لكن صاحب الهوى أضل من الحمار عقلا وإدراكا، وأحط منه شأنا فهو لا يحمل إلا هواه؛ فلا ينفع إلا نفسه فيما يبدو له، أما الحمار فهو على الأقل يعود نفعه أحيانا على غيره.

طالب الحق يكفيه الدليل، وصاحب الهوى ما لنا عليه من سبيل؛ فطالب الحق قد يعتريه سوء فهم، أو يعرض له شبهة أو شهوة فتعطله في طريقه، لكنه إذا وجد رجاله وعُلِّم فتعلم؛ عاد إلى جادة طريقه، وسلكه مجدا فيه، أما صاحب الهوى فلا يرى إلا ما أُشْرِب من هواه، فكل من ذل في باب الشهوات أو الشبهات يُرجى له السلامة والبرء، أما من أصيب من باب الأهواء فأمره عسير وليله طويل.

٣٢: لا تكن مجرد رقم

تتوقف في حياتك أحيانا أمام بعض العبارات التي تشعر أنها مست قلبك و عقلك معا، وتصير بعد ذلك من المبادئ التي تتخذها لنفسك نبراسا تهتدي به، وكان من هذه الحكم البالغة قولا سمعته، أثر هذا القول في نفسي تأثيرا عظيما، ووافق طبعا طبعت عليه، وأصلا أصله أبي رحمه الله في نفسي، فرَشِدت به وهنأت، وبالرغم مما سببه لي ذلك الأصل المتين من أزمات عدة مع بعض من يعيشون على هامش الحياة، أو ممن لا خلاق له ولا أدب، وزاد الأمر أن اتهمني البعض بما أنا منه براء.

تعلمت من هذا القول ألا أكون رقما في هذه الحياة، وألا أكون مجرد ذهب (واحد) فأتى (واحد) آخر، وألا يكون وجودي كعدمه. لا أريد أن أكون الأهم في حياة الناس، ولكني أيضا لا أرضى أن أكون الرقم الأخير في حسابات الناس.

كونك تأبى الضيم ولا تعطي الدنية في مبادئك وأخلاقك، لا يجعلك هذا متكبرا علي الناس، أو محتقرا لهم، ولكنه عين الرشاد أن تحفظ على نفسك كرامتها، فمن تعود صون نفسه وعرضه ودينه كان كريما عند الله وعند الناس، ومن تعود التفريط والهوان، هان على الله وهان على الناس بهوان الله.

فمن رضي يوما بسياسة القطيع، صار مجرد رقم غير ملاحظ ولا مميز، لا ينادى باسم، ولا يعرف له أثر أو تأثير، فكن صاحب أثر، ولا تكن مجرد رقم، واعلم أن الغيب بيد الله وحده لا يعلمه ولا يقدره إلا هو،

فمن العار أن تجعل نفسك رقما في سبيل تحصيل الرزق أحيانا، وفي سبيل الوصول لغرض دني هين من دنايا وهوانات الدنيا.
فكن عزيزا مُمَسِّكا بأصولك محافظا على ثوابتك، ولو كان هذا كالقبض على الجمر، فما قدره الله لك سيأتيك؛ فخير لك أن يأتيك وأنت غير مفرط ولا مهان ولا مقصر، وخير لك أن يأتيك وأنت مرفوع الرأس مشرَّع الهامة.
وهذا فارس البيداء عنترة – بالرغم من جاهليته - عندما نهته أمه عن الإقدام في المعارك، أشد قائلا:

تُعَنِّفُنـــي زَبيبـــَةُ في المـــَلامِ * عـــَلى الإقـــدامِ في يـــَومِ الزَحـــامِ
تَخـافُ عـَلَيَّ أَن أَلقـى حِمامـي * بِطَعـــنِ الـــرُمحِ أَو ضَربِ الحُســـامِ
مَقـــالٌ لـــَيسَ يَقبَلـــُهُ كـــِرامٌ * ولا يـــَرضى بـــِهِ غـــَيرُ اللِئـــامِ
يَخـوضُ الشـَيخُ في بَحـرِ المَنايـا * وَيَرجـِعُ ســالِماً وَالبَحـرُ طـامي
وَيـَأتي المـَوتُ طِفـلاً في مُهـودٍ * وَيَلقـــى حَتفـــَهُ قَبـــلَ الفِطـــامِ
فـــَلا تـــَرضَ بِمَنقَصـــَةٍ وَذُلٍّ * وَتَقنـــَع بِالقَليـــلِ مـــِنَ الحُطـــامِ
فَعَيشُـكَ تَحـتَ ظِـلِّ العِـزِّ يـَوم * وَلا تَحـــتَ المَذَلـــَّةِ أَلـــفَ عـــامِ

٣٣: حق الله وحق العباد

قال (تعالى):"لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (المائدة:٤٨)
فجعل الله لكل أمة شريعة تختلف عن غيرها، باختلاف أزمانهم وأنبيائهم، أما المنهج فكان دائما وأبدًا التوحيد الخالص لله الواحد الأحد.

وعن أبي هريرة(رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال:" نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات، ديننا واحد" [١]

واختار الله(جل ذكره) من الدين لكل أمة ما هم له مطيقون، وعليه قادرون وهو أعلم بطاقة كل أمة ووسعها، وأرسل بهذا الدين رسلا يبلغون و ينصحون و ويبينون للناس مراد الله، حتى يكون الناس على بينة من أمرهم، فيما يجعلونه دينا بينهم وبين ربهم، فمن غير وبدل، أو ابتدع وفرط، فأمره يلزمه ولا يلزم غيره،لا يسأل إلا عن نفسه، وفي الدين حقوق؛ حقوق للعباد وحقوق لله.

أما حقوق الناس فقد جعلها الله في كتابه في مواضع كثيرة؛ لتنظم حياة الناس، فلا يعدو أحد على أحد، ولا يظلم أحد أحدا، فراعت الأحكام التي تنظم حياة الناس من جانب الحريات الدينية والشخصية، كما

---

[١] - رواه البخاري (٣٤٤٣)، وأبو داوود (٤٣٢٤)

راعت الذمم المالية ونظمتها، ووضعت حدودا بين الفرد والمجتمع مؤداها (لا ضرر ولا ضرار)، وجمعها النبي(صلى الله عليه وسلم) في جوامع كلمه، فقال:" إنَّ دِماءَكُم، وأمْوالَكم وأعْراضَكُم حرامٌ عَلَيْكُم كَحُرْمة يومِكُم هَذَا، في شهرِكُمْ هَذَا، في بلَدِكُم هَذَا، ألا هَلْ بلَّغْت." [1]

كما جعل الله (عز وجل) العدوان على حقوق الآخرين _في أخف صوره أو أشدها_ معصية عظيمة؛ فعد الله (تعالى) بعضها من الكبائر التي يستحق صاحبها اللعن أو الحد.
وعلق الله مغفرة ذنوب العباد في حقوق العباد، بمسامحة المُعتدَى عليه وعفوه، إلا إن تاب توبة نصوحا.

أما حقوق الله، فهو سبحانه جعل فيها جانبا عظيما من العفو والرحمة والمغفرة، إلا من أشرك به أو كفر، ومات على ذلك.
ولكن الأمر الذي يفوت الكثير من الناس ويقعون فيه أنهم يحسبون أن تراضيهم على المعصية لا يضعهم تحت وعيد الله، وهم في ذلك واهمون كل الوهم.

فلا اعتبار لتراضي البشر إذا كان في هذا التراضي مفسدة شرعية، فلو تراضي رجلان على الربا، أو تراضى رجل وامرأة على الزنا، أو تراضي كل البشر على فعل معصية كالشرك أو قتل نفس بغير حق، لم يكن هذا ليغير شيئا من الأحكام الشرعية التي أنزلها الله في كتابه وأجرها دينا على عباده، وما زادهم هذا التراضي إلا إثما وظلما وغضبا من الله عليهم.

---

[1] - متفق عليه

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم):"إن الله تعالى يغار، وغيرة الله تعالى أن يأتي المرءُ ما حرَّم الله عليه." [1]

وفي حديث المغيرة بن شعبة (رضي الله عنه) عندما تعجب الصحابة من غيرة سعد بن عبادة (رضي الله عنه) فقال لهم النبي (صلي الله عليه وسلم):"أتعجبون من غيرة سعد؟ فوالله لأنا أغير، واللهُ أغير مني، من أجل غيرة الله حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شخصٌ أغير من الله..." [2]

ومن تدبر يجد أن الله (عز وجل) قد عاقب أمما بأكملها تمالؤوا على معصيته، فانظر إن شئت أهل (مومباي) تلك المدينة الكائنة في بعض أقوال المؤرخين في إيطاليا الآن، أو إلى قوم سيدنا لوط (عليه السلام)، أو إلى من في الأرض جميعا عند طوفان سيدنا نوح (عليه السلام).

---

١ - متفق عليه

٢ - رواه البخاري (٤٦٣٤)، ومسلم (١٤٩٩) واللفظ له

٣٤: الفطن المتغافل

من أجلِّ وأبلغ أمثال العرب، ما قاله أعرابي يوما، لم سئل من العاقل؟ قال: الفَطِنُ المتغافل.
وذلك ما يكون من شأنه مع تقلبات الزمان، فهو يفهم في الأغلب الأعم ما يدور حوله، وله فطنة وذكاء وحدة في العقل والنظر في عواقب الأمور، ولكنه يتغافل بمحض إرادته من غير تقصير ولا ضعف ولا هوان ولا غباء أو حمق.

و في الحديث: (زوجي إن دخل فهد، وإن خرج أسد ولا يسأل عما عهد) وهو طرف من حديث (أم زرع) المشهور في السنة؛ وكانت المرأة هنا تصف حال زوجها مادحة ومفتخرة، فهي تصفه بالفهد إذا دخل البيت، والعرب تضرب المثل بالفهد في الاستغراق في النوم؛ فكأنها تقول أنه إذا دخل البيت تغافل عن أمور هو يفهمها ويعلمها، ولا يظل يومه كالمحقق، كما أنها تعرف قدره جيدا إذا خرج بين الناس فهو يكون أسدًا يعرف قدره الجميع.
فأرادت مدحه بالتغافل لا بالتغفيل ولا الغفلة.
الذكاء وحسن الفطن و يقظة العقل بلا شك نعم عظيمة، إذا رزقها الله عبدا صار له من النعيم والفضل ما لا لغيره، ولكن يجب على أصحاب النعم صونها، وحسن شكرها، حتى لا تكون عقوبة فيُحْرَمون منها.
وتلك النعمة العظيمة لا تمدح لذاتها إلا إذا صارت نفعا لصاحبها ولمن حوله، وتصير نفعا إذا حدها العقل والرحمة.

وإن ذلك الذكي الفذ غالبا ما يحمل الناس من حوله على الكذب، أو الاحتيال حتى ينجوا من عقله الألمعي اللامع المتفرد.

ولكن العاقل الذي غلف ذكائه بغلالة من فطنة وحكمة، هو ذلك الذي لم يغتر أو يتجبر بما آتاه الله من نعم، ورحم الله الشافعي، إذ يقول:
ولولا خشيةُ الرَّحمنِ ربِّي. حسبتُ الناسَ كلهمُ عبيدي

فكن فطنا متغافلا تكن ذا مروءة وحسن خلق وفضل عند الناس.

٣٥: تعلم الصبر

في الصغر عندما كنت أريد شيئا ما، كنت ألح في طلبه إلحاحا شديدا، فكانت طبيعتي أني كنت أريده الآن و بأية وسيلة؛ فأحيانا أبكي وأصرخ وأحيانا استعطف أبي أو أمي، وأحيانا احتال حيل الأطفال، فالمهم عندي كان تحصيل غايتي سريعا .
وكثيرا ما كان يكرر أبي _ أسكنه الله الفردوس الأعلى _ عبارة (تحلى بالصبر، اصبر .. اصبر) وكانت هذه العبارة من أثقل العبارات على نفسي، فأنا اعترف أنني كنت طفلا عجولا.
وبدأت دروس الحياة القاسية تعلمني عاقبة العجلة، وبدأت أفقد الكثير من الفرص الثمينة بسبب تعجلي .
ومن نعم الله على العبد وسابغ فضله أن يريه خطأه وزلاته، ثم يمن عليه بالإقرار بأخطائه، ثم يمن عليه مرة أخرى فيرزقه تجنبها وعدم الوقوع فيها.
وفي رحابة ما نسمع طرق أذني يوما قولا مباركا و أنا أعاني من تسرعي وتعجلي في أمر ما ألا وهو: (من استعجل الأمر قبل أوانه ابتلي بحرمانه) فتوقفت وأطرقت السمع، وأحسست أنه يعنيني بهذه العبارة، وأن الله ساقني لمثل هذا الزمان والمكان حتى أسمع وقع تلك الحلقات الذهبية، فأنال نصيبا من ذلك الكنز الثمين.

وبدأت أصبر في جل أمور حياتي على غير طبيعتي، وأحيانا أشعر أني ممسك بجمر، بل نائم عليه، ولكن العاقبة المحمودة التي تذوقتها كانت وقودا يدفعني للأمام.

وكان مما يحدث مع مرور الأيام أن ترى أمرا كنت لتفعل كل شيء وأي شيء، وتبذل المال والوقت لتحصله، ولكنك صبرت عليه بُعْدا أو مداومة؛ فقد تصبر على أذى أو معصية أو تحصيل علم أو تجارة ولا تتعجل شيء من هذا كله، وتكاد تهم بترك الأمر، فيحملك الصبر على الثبات، فتأتي الجوائز والمنح تباعا؛ جزاء وفاقا.

ولعل أبلغ مثال لتقريب المعنى، ما حُكِي عن عنترة يوما أن أحد الفوارس كان سميَّه قوة وشجاعة، بل يقال أنه أقوى منه، فسأله ذلك الفارس:" بم تغلب الفرسان في المعارك، وفيهم من هو أقوى وأجسم منك؟ فقال له عنترة:" هات إصبعك ." ثم وضع إصبع الفارس في فمه، ووضع إصبعه في فم الفارس، وقال:" اعضض" فاشتد كلاهما في العض، فما لبث الفارس أن قال:" آه" ونزع إصبعه، فقال عنترة:" بهذا أنتصر، لو صبرتَ لنزعت أنا إصبعي، فليس حالي بأمثل منك."

إن الصبر في الحقيقة صبران؛ صبر على، وصبر عن ؛ صبر على الطاعات، وصبر عن المعاصي، والأصل أيها المؤمن أن أمرك كله خير .
فعنه (صلى الله عليه وسلم) أنه قال:" عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا له، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا له." [1]

[1] - رواه مسلم (٢٩٩٩)

٣٦: سنة التدرج وبناء الشخصية:

يحكى عن عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) أن ابنه عبد الملك قال له:" ما لك لا تنفذ الأمور؟ فوالله ما أبالي لو أن القدور غلت بي وبك في الحق". قال له عمر:" لا تعجل يا بني، فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين، وحرمها في الثالثة، وإني أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة، فيدفعوه جملة، ويكون من ذا فتنة."

أصاب الخليفة الراشد والعبد الصالح عمر بن عبدالعزيز (رضي الله عنه) الغرض برمية من فيه المبارك، فأوجز وأبلغ، ودل فأرشد، ونصح فأحكم.

لا يخفى على كل ذي بصيرة ما وصل إليه كثير من الخلق في أيامنا هذه من هزال واضمحلال على مستوى شخصيات الأفراد وشخصيات الأمم، وصار كل ما حولنا ينطق بالهزيمة النفسية.
وصار ميدان بناء شخصيات الأفراد والأمة معا هو الميدان الحقيقي للدفع وبذل الوسع، في وقت علا فيه زبد التغريب، وغابت فيه القدوة، وندر فيه الشيخ المعلم، أو الأستاذ المؤدب.
وعلى كل حال فإن هذه الأمة لا تعدم رجالا في هذا المضمار؛ مضمار التربية وصناعة شخصيات سوية مستقيمة، وبناء الصرح الأعظم الذي ميز دائما هذه الأمة؛ ألا وهو بناء الرجال.

وأنصح نفسي قبل كل ذي يد في تربية النشء، أو صناعة عقل، أو ملهوف على عودة شخصية هذه الأمة كما كانت في شَرْبِها الأول_ بأمرين:

الأول هو المداومة على ما هم فيه، فمن لزم الطريق وصل، فقال (عزوجل):"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (آل عمران:٢٠٠)

والثاني: هو التدرج؛ تلك السنة الربانية، والمنهج الإلهي في تربية الأفراد وصناعة المجتمعات، فانظر كيف رباهم الله بتدرج في كل أمر؛ في الإيمان وفي الأعمال وفي الأقوال وفي بناء المجتمعات، وكذلك التدرج منهج الأنبياء مع أقوامهم، وطريقتهم المثلى في بناء الأمم، فمن اتخذهم نبراسا يهتدي بهم في تمام فعلهم.

يدفع الناس أحيانا قِصَر أعمارهم وكثرة أمانيهم وطول آمالهم إلى العجلة في الأمر والتسرع خشية الفوت، فيسرعون ويتسرعون لتحقيق الغرض والوصول إلى المقصد، ولكن أرجى ما يجعل المرء يتأنى أن السالك إلى الغرض النبيل والهدف المشروع جعل الله من الأجر أجر وثواب مَنْ تم أمره.

وعَنْ أَبِي عَبْدِاللَّهِ جابِرِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ الأَنْصَارِيِّ (رضِيَ اللهُ عنْهُمَا) قَالَ: "كُنَّا مَع النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاة فَقَالَ: إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالاً مَا سِرْتُمْ مَسِيراً، وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِياً إِلاَّ كانُوا مَعكُم حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ وَفِي روايَةِ: إِلاَّ شَرَكُوكُمْ في الأَجْر." [١]

فأنت أيها المسترشد لا يحملنك الخوف من عدم التمام ألا تفعل الأمر على غير وجهه؛ ألا ترى البناء الذي يبنى في وقت قصير يصاب بالعيوب ولا يؤمن ثباته واستقراره.

---

[١] - رواه البخاري (٤٤٢٣) ، ومسلم (١٩١١)

٣٧:عد إلى حيث بدأت

حياة كل منا مثل تضاريس الكرة الأرضية؛ فهي مرة جبال وعرة، ومرة سهول منبسطة، ومرة محيطات مالحة هائجة، وأخرى جداول رقراقة عذبة .
ونحن في كل هذا نرجو أن نكون على الرضا واليقين من تدبير الله وتقديره مهما رفعتك الدنيا أو خفضتك، ومهما سرت وارتحلت بين الجبال والوديان والفيافي والقفار، أو ركبت البحار الهائجة المائجة .
ولكن ماذا لو ضللنا الطريق أثناء رحلتك في قفر من قفار المعمورة؟ أو تعرضت للغرق وسط بحر الظلمات؟ ماذا لو أصبحت يوما وقد وجدت نفسك بعد جلسة تأمل وتدبر قد ضللت الطريق؟ ماذا لو وجدت نفسك قد أنكرتك عند تطلعك في المرآة صباحا؟ ماذا لو أحسست أن شخصا آخر يقف في الطرف الثاني من المرآة؟ ماذا لو نظرت من شرفة الحاضر على ساحة الماضي الرحبة فلم ترى الأشجار والألعاب والأصحاب الذين صنعوا معك حياتك؟ ماذا لو طرحت نفسك عليك سؤال هو الأصعب في الدنيا: من أنت؟

سؤالات حائرة، و عواصف تجعلك ريشة في مهب الريح .
ولكن هل تملك الشجاعة أن تجيب عن تلك الأسئلة؟ العجيب والمدهش أنك فعلا تعرف إجابتها يقينا، لكنك لا تجرؤ أن تذكر الإجابة و لو بينك وبين نفسك، تلك الأسئلة التي تعلم سلفا أن غيرك سيسألك إياها بعد عمر طال أم قصر عندما تكون وحيدا بلا مال ولا جاه ولا ولد.
عزيزي التائه، إن استطعت أن تجيب نفسك عن هذه السؤالات المحدودة، فاعلم أنك قد حللت نصف المشكلة، وبدأت في أول طريق إنقاذ نفسك من ذلك التيه .

ثم تأتي الخطوة الأهم بعدُ، فتمام الأمر هو الأهم؛ فالأمور بخواتيمها، ارجع بذاكرتك سنوات إلى الوراء ... لا لا سنوات أكثر وأكثر حتى تصل إلى نقطة مختلفة اللون عن أخواتها، ربما تكون سوداء... نعم سوداء، تأملها جيدا، إنها نقطة التحول في حياتك، تلك النقطة التي كانت حياتك قبلها كنبع الماء الصافي، تلك النقطة التي كنت قبلها تستطيع فيها الضحك من قلبك، تلك النقطة التي كنت قبلها تستطيع العمل مع الناس جنبا إلى جنب، قبل أن تصير الأمور غل وحقد، تلك النقطة التي كانت المسامحة والصفح والوفاء بالعهد قبلها دستورا ومنهجا لك، تلك النقطة التي كنت قبلها تجعل الله (تعالى) عليك رقيبا و حسيبا، تلك النقطة التي كانت حياة الضمير قبلها هي حياة النفس.

إذا أردت فعلا أن تنقذ نفسك من التيه والتخبط، وتنعم بسعادة الدارين، عد إلى ما قبل هذه النقطة المظلمة، عد إلى ذلك الوقت الذي كانت فطرتك فيه سليمة، وتوكلك فيه سابغ، وأمرك مع الناس سلام، عد إلى حيث بدأت تعبث في فطرتك.

٣٨: الإنصاف في الخصومة

لما ذم الله فريقا من أهل الكتاب على ما بدلوا في دينهم غير الحق، وبما افتروه على الله كذبا وبهتانا، لم يخفي على الله _ وهو العدل_ ما كانوا عليه من صفات محمودة، فقال (تعالى):" وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (آل عمران: ٧٥)
فبين الله أن منهم الأمين ومنهم الخائن، فلم يخف الله (تعالى) ما عند بعضهم من الأمانة، وهذا من باب الإنصاف والعدل.

وفي حديث جبير بن مطعم أنَّ النبيَّ (صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ) قالَ في أُسَارَى بَدْرٍ: "لو كانَ المُطْعِمُ بنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي في هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ له." [١]

وكان المُطعِمُ بنُ عَدِيٍّ ونفر معه هو الَّذي سعى في نَقضِ الصحيفةِ التي كانت علقتها قُريشٌ على الكعبة، وفيها مقاطعة بني هاشم وبني المُطَّلِب .
وكان للمطعم أيضا موقف مشرف آخر؛ إذ أجار النبي (صلى الله عليه وسلم) لما رجع النبي من رحلته من الطائف عندما أراد _ بأبي هو وأمي _ أن يدعو أهلها، وأراد دخول مكة، وخشي إيذاء أهلها، فأرسل إلى ثلاثة

---

[١] - رواه البخاري (٤٠٢٤)، وأبو داوود (٢٦٨٩)

من رؤوس قريش؛ هم الأخنس بن شريق، وسهيل بن عمرو، والمطعم بن عدي .
فأما صاحبا المطعم لم يجيبا دعوة النبي، وأما المطعم فقد خرج في أبنائه بالسلاح، يعلن بين أهل مكة أن النبي في جواره.
وبالرغم من عدم إسلام المطعم، إلا أن النبي (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين كانوا يقدرون له ما فعل، حتى قال النبي (صلى الله عليه وسلم) قولته التي قالها في الحديث الذي سقته آنفا.

إن مما عمت به البلوى في هذا الزمان تلك الصفة المذمومة، و المنقصة المشينة، والعلامة الواصمة، التي ذمها النبي ذما في حديثه:" أَرْبَعٌ مَن كُنَّ فيه كانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، ومَن كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ منهنَّ كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حتَّى يَدَعَهَا: إذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وإذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وإذَا خَاصَمَ فَجَرَ." (البخاري: ٢٤٥٩)
وما أريد إبرازه في الحديث الشريف (وإذا خاصم فجر) فهي كالجلمود في وقوعه إذا هو هوى من عَلَم قد ناطح السحاب، فترى الرجل يجالس القوم مجالسة الإخوان والخلان، حتى يصيروا كروح واحدة في أجساد شتى، وتسمع منهم عبارات المدح والثناء كأنك تسمع ثناء على ملائكة، حتى إذا نزغ الشيطان بينهم، أو تغير منهم بين تقلبات الزمان أحد، وجدت الرجل يستطير شرا معتَّقا في أخلاقهم وذممهم و أعراضهم، فيصبح نارا لا تبقي ولا تذر، تحرق كل ما تطاله من أخضر أو يابس .

وكأن القوم تراهم رأي العين، لم يعتبروا يوما ذلك الفضل بينهم، ولم يتذكروا يوما مواقف الأخوة والصحبة، وأنساهم الشيطان لحظات الصدق، فحولها في عقولهم المعطوبة إلى محض أوهام يفسرها لهم بكل تفسير سيء ونية خبيثة.

إن من يفجر حال الخصومة إنما هو امرؤ جمع سوء نية وسوء قول وسوء فعل، وهو يقينا لا ينعم براحة لسوء ظنه بالناس، ولا يداوم على صحبة لاشتهار طبعه في الفجور بين الخلق، ولا يسلم من إثم لوعيد الله له.

فاللهم إنا نعوذ بك من شعب النفاق جميعا، ونعوذ بك من خصومة تسد باب الإنصاف.

٣٩: الخوف من المجهول

من أكبر الجرائم التي يقترفها الإنسان في حق نفسه، تلك التي تجعله يقبل التعايش مع أمور وأوضاع يرفضها وينكرها؛ أوضاع لا تتوافق مع مبادئه أو أخلاقه، وكل ذلك بدعوى أنه ليس هناك أفضل من هذا الواقع الذي وصلت إليه، أو لخوفه من المجهول .

يبقى الإنسان حبيس ذلك السجن الذي يُعْلِي أسواره يوما بعد يوم برضاه على ما يرفضه عقله، ويمقته قلبه. تضيع ثواني العمر المعدودة، وهو قابع في قاع البئر الذي حفره يوما بعد يوم بمعول الخنوع و التسليم.

جنى الكثير من أصحاب منهج التخاذل والتقوقع على أنفسهم بما وقعوا فيه من ترك الأخذ بالأسباب و قلة التوكل، وغفل عن أصل عظيم أن الله (تعالى) أمر بالسعي والأخذ بالسبب وحسن التوكل عليه، فقال تعالى:" قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" (التوبة:٥١)

فالغيب لا يعلمه إلا الله، و سبحانه أنزل الأسباب وسببها، ثم أمر بحسن التوكل عليه .

وقال (عزوجل):" قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (آل عمران:٢٦)

فبعد تلك البشارات من الله (تعالى) أوصيك ونفسي: اسع متوكلا، وامض ثابتا ولا تجعل من تخذيل الشيطان قيدا تلفه حول قدميك، وتلبب به عنقك؛ فعن زيد بن ثابت (رضي الله عنه) قال، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم):" من كانت الدُّنيا همَّه، فرَّق اللهُ عليه أمرَه، وجعل فقرَه بين عينَيْه، ولم يأْتِه من الدُّنيا إلَّا ما كُتِب له، ومن كانت

الآخرةُ نيَّتَه، جمع اللهُ له أمرَه، وجعل غناه في قلبِه، وأتته الدُّنيا وهي راغمة" [1]

وهذا جانب آخر من كلام خير البشر، يوضح سببا أصيلا في الخوف مما يأتي والتخاذل أكثر وأكثر، ألا وهو طلب الدنيا والحرص عليها و خشية تغيرها، ونحن في الأصل لسنا من أهلها، إنما نحن قوم أمرنا بإصلاحها، ثم مردنا إلى حياة حقيقية أبدية .

الخوف مما يأتي وحش يلتهم سعادة الإنسان، ويحول حياته إلى أوهام وأحزان، ويسلب من المرء راحة البال، ويصرف الناس عن لذة العبادة؛ ألا ترى مصائد الشيطان الذي يسعى ليحزنك فيصرفك بهذا عن العبادة الحقة، فترى الرجل من شدة همه الذي أهم به نفسه وَهْمًا لا حقيقة يصلي الصلاة لا يذكر من أذكارها أو أركانها أو شروطها شيئا؛ بل لا يذكر أفعل أم ترك. هذه وغيرها كثير من الأمثلة التي تعرض للمرء في حياته من هذا الباب.

لو أن المرء أحسن الظن بربه وعمل بمقتضى ذلك لكفاه الله و وفَّاه وأتم أمره وأحسن عاقبته، وفي الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم)، يقول الله (تعالى):" أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وأنا معهُ إذا ذَكَرَنِي ، فإنْ ذَكَرَنِي في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وإنْ ذَكَرَنِي في مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ في مَلَإٍ خَيْرٍ منهمْ ، وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ بشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ ذِراعًا، وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِراعًا تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ باعًا، وإنْ أتانِي يَمْشِي أتَيْتُهُ هَرْوَلَةً ."[2]

فتعلم أن تحسن الظن بالله فيما هو آت فهو اللطيف الخبير، وهو أرحم الراحمين.

---

[1] - رواه بن ماجة (٣٣٢٩) وصححه الألباني

[2] - رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)

٤٠: حدود المدح.

روي أنَّ رجُلًا مدَح رجُلًا عندَ ابنِ عمرَ فجعَل ابنُ عمرَ يرفَعُ التُّرابَ نحوَه وقال: قال رسولُ اللهِ (صلَّى اللهُ عليه وسلَّم): " إذا رأَيْتُم المدَّاحينَ فاحثُوا في وجوهِهم التُّرابَ " [١] (صحيح ابن حبان)

وعَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ أَنَّ رَجُلاً جَعَلَ يَمْدَحُ عُثْمَانَ فَعَمِدَ الْمِقْدَادُ فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ -وَكَانَ رَجُلاً ضَخْمًا- فَجَعَلَ يَحْثُو فِي وَجْهِهِ الْحَصْبَاءَ فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ " [٢]

وباء مستطير فشا في جسد المجتمعات حتى صار من اعتياد الناس عليه لا يكادون يشعرون بأعراضه أو يتذمرون منه، مع أنه آخذ بهم عامل في أعضائهم عمل السوس ينخر في الخشب، فصار لعموم البلوى به من العادات المألوفة، أو صار عند البعض من الأخلاق المحمودة والفضائل الواجبة.
ذلك المدح المكذوب، وتلك الكلمات التي تسرع بها الألسن، فتزيف الحقائق، و تلوي أعناق الكلمات لترغمها على الالتفات إلى الباطل والزيـغ عن الصواب والحق.

---

١ - رواه أحمد (٥٦٨٤) ، وابن حبان(٥٧٧٠) ، والبيهقي (٤٨٦٧)

٢ - رواه مسلم (٣٠٠٢)

يسرع المرء إلى المدح ولمّا يعلم بعد حقيقة وطبيعة من يمدحه، يرفعه إلى عنان السماء وهو بعد لا يجاوز الثرى، وهو في ذلك مبالغ ليحصل منفعة أو كلف بحب أو صحبة إنسان فهو لا يكاد يرى له عيبا كالمفتون المسحور.

والمدح نوع من الشهادة، وأنت تشهد لإنسان بما ترى وتعلم وتوكل سريرته إلى الله، وهذا الأمر إن بدا منه صلاحا وخيرا، وأنت في هذه الحال مأمور أن تجعل الأمر بركة لك وله، وسلامة لك وشهادة خير له .
فعن أبو بكرة نفيع بن الحارث قال: أَثْنَى رَجُلٌ علَى رَجُلٍ عِنْدَ النبيِّ (صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ) فَقالَ: "ويْلَكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ أخِيكَ - ثَلَاثًا - مَن كانَ مِنكُم مَادِحًا لا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ: أحْسِبُ فُلَانًا، واللَّهُ حَسِيبُهُ، ولَا أزَكِّي علَى اللَّهِ أحَدًا، إنْ كانَ يَعْلَمُ." [1]
فهذا هو الواجب عليك إذا مدحت صالحا من الناس، وكان هذا في موقف أو موضع يستحق المدح حقيقة، وليس على كل حال .

أما إن مدحت من لا يستحق وأنت لا تعلم حقيقته، فتلك مصيبة ؛ لأن الناس تغتر بمدحك إياه، وقد يترتب على ذلك أمور شتى؛ من توثيقه واتباعه والشهادة له .
والمصيبة تكن أعظم و أجرم إن كنت تعلم أنه ليس أهلا لذلك المدح، وليس موضع ذلك الثناء، فتصير شهادتك زورا، وقد يزداد الأمر فيصبح مألوفا عندك، ويصير خلقا لك حتى يصبح ما تقول لتمدح به مخالفا لما وقر في قلبك؛ فتقع في الإثم الكبير والذنب العظيم، وأنت يا مسكين تحسبه هينا وهو عند الله عظيم.

---

[1] - رواه البخاري (٦١٦٢)، وابن ماجة (٣٠٣٣)

وكثرة مدح من لا يستحق تجعله يبقى على حاله _و لا غرو _ فالكل يمدحه، وقد يزداد تماديا فيطغى .

و كان من كلام ابن عمر (رضي الله عنه):"مَدحُك أخاك في وجهِه كإمرارِك على حلْقِه موسى رميضًا ؛ أي شديدًا ."
وكان من هدي السلف الصالح إذا مدح أحدهم، كان يقول، كما روى الإمام البيهقي في شعب الإيمان:" قَالَ بَعْض السَّلَف: إِذَا مُدِحَ الرَّجُل فِي وَجْهه فَلْيَقُلْ: (اللَّهُمَّ اِغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ، وَلَا تُؤَاخِذنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَاجْعَلْنِي خَيْرًا مِمَّا يَظُنُّونَ.)

فتعلم أن تكون من خيرية هذه الأمة الوسط، فاعتدل واعدل ولا تشطط، ومن مدحته بما ليس فيه لن يكون لك ظهيرا عند الله إن حدت عن الحق قولا وعملا.

٤١: الخنفشاري... إياك أن تكونه!

كان شيخ يرد على كل سؤال يُعرض عليه دون تردد حتى ارتاب به تلاميذه، فقرروا اختباره بما لم يخطر له على بال، فاختار كل واحد منهم حرفًا من حروف الهجاء العربية ثم ركّبوا منها كلمة لم يسمع بها أحد من قبل وهي (خُنفشار) وأتوا شيخهم، وقالوا له: ما الخنفشار يا مولانا؟

فأطرق هنيهة ثم قال: الخُنفشار يا أبنائي نوع من العشب وإذا وضع في الحليب فإنه يَعقده، ثم أنشد:

لقد عقدت مودتكم بقلبي .... كما عقد الحليب الخُنفشار

ثم قال: وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)... فوضع أحدهم يده على فمه؛ وقال أيها الرجل حسبك بهتانا؛ كذبت على علماء اللغة وعلى الشعراء وعلى الأطباء، والآن تريد أن تكذب على النبي (صلى الله عليه وسلم(

فأصبحت كل كلمة لا معنى لها يطلق عليها (خُنفشار)

وأصبح أدعياء العلم هم الخنفشاريون، وصار هذا مذهب سواد عظيم من أهل الزمان، أدعياء علم وطالبو شهرة وظهور .

لم يجل بخاطر أحد منهم أن التَّقُّول بغير علم إنما هو من أفرى الفرى و أكذب الحديث، فإن كان ما تقول به كذب على الله أو على رسوله، فهاذاك حكم النبي (صلى الله عليه وسلم) فيه، إذ قال:" إنَّ كَذِبًا عَلَيَّ

ليسَ كَكَذِبٍ علَى أحَدٍ، فمَن كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ." [1]

إن منهج الخنفشاري إنما هو دلالة واضحة على عُقَد نفسية بالغة، وعجز عن طلب العلم وخسة الطبع و مشاركة في فساد الأمم واضمحلالها .

وإن هذا المنهج إذا استشرى كان سبيلا حقيقيا في هلاك الأمم، بل إنه من علامات الساعة، ولا أبالغ في قولي هذا، فعن النبي (صلى الله عليه وسلم):" إنَّ اللَّهَ لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، ولَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بقَبْضِ العُلَمَاءِ، حتَّى إذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فأفْتَوْا بغيرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا." [2]
ومن الواجب على كل من وعي وفطن إلى الخنفشاريين أن يكون فعله بين أمرين ؛ الأول أن يتعلم ليفضح جهالتهم بعلمه، والثاني أن يخبر الناس بحالهم ومآلهم.

---

[1] - رواه البخاري (١٢٩١)، وابن ماجة (٣٤)، والترمذي (٢٦٦١)

[2] - رواه البخاري (١٠٠)

٤٢: خير من ملء الأرض من هذا

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: " مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَقَالَ لرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ: "مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا ؟ "، فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا ؟ "، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ المُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لاَ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لاَ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لاَ يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا [١] ." أطلق لخيالك العنان، وانظر على امتداد بصرك، ثم قم بعملية حسابية صغيرة، كم إنسان يتسع لهم المكان الذي تراه على امتداد بصرك؟ ثم اذهب لمنطقة أبعد، كم إنسان تسعهم مدينتك؟ وكم تسعهم دولتك ثم قارتك ؟
ثم تخيل الكرة الأرضية على رحابتها وقد ملئت بشرا، وفكر وتدبر الآن أن كل هؤلاء البشر _ وهم بلا شك أبرار صالحون _ لا يعادلون رجل واحد، نعم رجل واحد.

لكن السؤال الآن، لماذا ؟ لماذا هذا الإنسان أفضل من أمم الأرض مجتمعة؟ لماذا فضل النبي (صلى الله عليه وسلم) رجلا فقيرا، غير ذي نسب في قومه، وليس له عند الناس قدر بمقاييس الدنيا ؟

---

[١] - رواه البخاري (٦٤٤٥)

تدبر معي _ يرحمك الله _ ما ورد عن بكرُ بن عبدالله المزني في حديثه عن صديق الأمة:" ما سبقهم أبو بكر بكثرةِ صلاةٍ ولا صيامٍ ولكن بشيءٍ وقرَ في قلبه."
و إنما قال العلماء مثل ذلك لأمر عرفناه قبلا في قول الله (تعالى):" وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١). "(الليل: ١٧- ٢١)
وقد أجمع المفسرون أن المقصود في الآيات هو سيدنا أبو بكر (رضي الله عنه) وقد نال الصديق (رضي الله عنه) تلك المنزلة بما وقر في قلبه من يقين وتصديق و توكل و وإنابة وخوف ومحبة ورجاء .

ولما سئلت فاطمة بنت عبد الملك، زوج عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) عن عمله بعد موته، فقالت: والله ما كان بأكثر الناس صلاة، ولا بأكثرهم صيامًا، ولكن _ والله _ ما رأيت أحدًا أخوف لله من عمر. لقد كان يذكر الله في فراشه فينتفض انتفاض العصفور من شدة الخوف حتى نقول: ليصبحن الناس ولا خليفة لهم.
أصبح العالم أُقل حكمة وإنصافا وأصبح الجميع يحكم على الناس ويقدرهم بنوع الملابس و (البراند) التي وضعت عليها، وصار الناس يسألونك أولا عن بلدك ورصيدك من المال، ونوع سيارتك، و عن الجامعة التي تخرجت فيها.
وصار تقييمهم لك على المظهر و حكمهم عليك على الملبس فسبحان الله الذي لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسامكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم.

٤٣: تأثير الفراشة

مصطلح يفهمه الكثيرون بطرق مختلفة، ولكن يحلو لي أن أفسره بواقع عايشته مرة .
فقد كنت يوما وأنا طفل قد غضبت غضبا شديدا من موقف صار معي إذ صفعني أحد أخوالي بالقلم على وجهي، الأمر الذي جعلني أشعر أنه سلب روحي مع هذه الصفعة، وحاول الجميع حولي استرضائي بمداعبة أو إحضار هدية أو حلوى، أو حتى بالتهديد والكف عن تصنع المشكلات وإثارتها، ولم يجد كل هذا معي نفعا.

وذهبت فجلست تحت شجرة في مقتبل فصل الربيع، والحزن والهم يعصفان بي، ولا أكاد أهدأ حتى تتوالى على نفسي صورة الموقف الذي أفجعني طوال يومي، فتهب العاصفة تلو الأخرى كغول مسنون الأسنان يهم بي .
ويأبى الله إلا أن يكون الفرج بعد الضيق، وبعد العسر يسرا وفرحا .
كنت أضع رأسي بين ركبتي مطرقا، فسرى الله عني بأمرين معا ؛ الأول صوت عصفور ندي جعلني أرفع رأسي نحو مصدر الصوت، والثاني فراشة جمعت ألوان الربيع كلها على جناحيها، ولم أكن قد رأيت مثلها قط .
حولت تلك الفراشة كل تلك التلول على كاهلي إلى ريح الصبا محملة بروح من روح الجنة، ففعلت بنفسي ما عجز عنه الآخرون ترضية مرة وتهديدا أخرى .
جعل الله لها في نفسي تأثيرا عجيبا في لحظات معدودات، رسمت على وجهي بسمة مشرقة، وفرجت همي العظيم آنذاك، و أخذتني معها إلى عالم آخر بعيدا عن هذا العالم القاسي المتقلب.

لا يزال الموقف يخايلني كثيرا لا سيما عند اشتداد الخطوب وقسوة الأيام، وكلما تدبرته وجدت من المعاني ما أتعجب منه.
قد تكون هناك أشياء لا تلتفت لها، ولا تحسبها تحرك ساكنا، ولكنها في أثرها تعادل قوة محرك يستطيع تحريك الأرض كلها، مواقف يسيرة كبسمة في الوجه، أو إشارة لطيفة أو عبارة خالصة لوجه الله تكتبها، كل هذا قد يحرك الدنيا كلها يقيمها ولا يقعدها .

فلا تحقرن من المعروف شيئا، واجعل تأثير الفراشة تأثيرك فقد يغير حال الدنيا وأنت لا تدري.

٤٤: الصفر الذهبي

يرمز الصفر في حياة الكثير إلى الفشل والخسران والخيبة، والصفر هو لا شيء حصلته أو كسبته.

لكن أحسبك تنظر من الزاوية الخاطئة، تحرك قليلا إلى اليمين ثم انظر جيدا ... الآن صارت الرؤية أوضح، صف الآن ما تراه، أو دعني أصف معك .

الصفر عند علماء الرياضيات:

الصفر: الرقم الذي لا قيمة له بمفرده لكنه يمنح القيمة المادية والمعنوية أحياناً للأرقام التي يُوضع أمامها.

و الصفر في لفظه الإنجليزي (Zero) مشتق من العربية، فعالم الرياضيات الشهير (فيبوناتشي) يُسمي الصفر في إحدى مؤلفاته (زفيروم) ثم تحول إلى: (زفيرو) ثم إلى (زيرو)

والصفر في العربية عند الخوارزمي رقم يوضع على يمين العدد فقط ولا قيمة له على يساره، وكان العرب يستعملون الصفر مكان الفراغ حتى لا يلتبس مكانه على الناظر.

وقد حلت الكثير من مشكلات الرياضيات باكتشاف الصفر، وهو من حيث كونه رقم يعتبر الصفر الرقم الوحيد الذي لا يعد موجباً او سالبا، بل يعتبر بداية الأرقام والفاصل الحقيقي بين الأرقام الموجبة والسالبة.

وفي معنى ومدلول آخر للصفر يرمز معناه أنك لم تحصل هدفك في عمل ما أو تجربة مررت بها، وقد يكون علامة على خسارة فادحة وإحباط شديد.

ولكن ما رأيك لو حولنا هذا الصفر .... إلى الصفر الرياضي، الذي اكتسب قيمة لأنه كان سببا في حل مشاكل علم الرياضيات .
والمعادلة بيسر شديد هي أن كل تجربة لا تنجح فيها، أو كل هدف لم تحققه هي خبرة تتعلم منها، وكأنك تحقق نظرية (المحاولة والخطأ) ؛ فكل محاولة لا تنجح فيها في تحقيق هدفك فإنك تستبعدها، وهكذا في كل مرة، حتى تصل إلى الطريقة المثلى لتحقيق مبتغاك.
وتكون تلك المحاولات الخاطئة أيضا بمثابة معلم يُكْسِبك حكمة و خبرة في الحياة، تعلمها أبناءك وتنتفع بها .
فالصفر هنا كالصفر الرياضي الذي يعطي قيمة للأشياء ويجعلها أكبر وأعظم إذا وقف إلى جوارها، وأخذ بيد جاره من الأرقام ليخبره أنه هنا إلى جواره يدعمه ويثبِّته، الصفر إذن بهذا المفهوم ليس فشلا أو خسارة لكنه يصبح إذا تعاملنا معه صفرا مساعدا، أو صفرا سد بابا كنا نحسبه في البداية باب خير، إلا أن ذلك الصغير أخبرك بطريقته الخاصة أن ذلك الباب لا نفع منه، أو أنك تسلك طريقا مسدودا، هو في النهاية صفر غير عادي؛ هو صفر ذهبي.

٤٥_ إذا هبت رياحك فاغتنمها

إِذا هَبَّتْ رِياحُكَ فَاغْتَنِمْها * فَعُقْبَى كُلِّ خافِقَةٍ سُكُوْنُ

ولا تغفل عن الإحسان فيها * فلا تدري السكونُ متى يكونُ

نسبت هذه الأبيات لإمام الدنيا الإمام الشافعي، و ما أدراك ما الشافعي حين يشعر.

أصاب الشافعي - رحمه الله- الداء العضال لكل مجتهد في فن أو عمل، فأصحاب الملكات المجتهدون يحصل لهم من الفتور في علو الهمة والنباهة والفتح الرباني ما لا يكون في أوقات أخرى، ولكن العادة البشرية المحكمة، تحمل بعضهم أحيانا على الخمول والتكاسل، أو الاكتفاء بما قد أفضى .

وعائقه في ذلك شياطين الإنس والجن على السواء، ولو أنه أدرك قول الله تعالى:" وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (السجدة:٢٤) لعلم أن الأمر يستحق عناءً وتقلبًا في الفرش الوثيرة .

والله (عز وجل) لما قدر للمرء هبة أراد منه أن يأخذ بأحسنها ويقوم بحقها على الوجه المبين في بيان الله في كتابه أو سنة نبيه .

قال الله تعالى:" إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) " (الكهف: ٨٥-٨٤)

جعل الله لذي القرنين أسبابا فاتبعها وتوكل ولم يقصر أو يهن في أمر الله. فكان إماما في كل أمر أرعاه الله، فنفع الله به أهل الأرض، وأعلى قدره في الدنيا، وأدخر له في الآخرة ما الله به أعلم.

إن مفهوم انشراح الصدر من أعظم المنح الربانية للعباد، فذلك الفضل الرباني يجعل المرء في راحة وسعادة مهما كانت شواغله وأشغاله وتكليفاته، كما ذكره الله في قوله (تعالى):" أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ" (الشرح:١)، أي: نورناه وجعلناه فسيحا رحيبا واسعا.

فمن شرح الله صدره، وجعله مقبلا على أمر ما، فلا ينبغي له أن يضيع تلك النعم المهداة، والمنح المباركة، وليعلم أنه ما مُنِحَها إلا بقدر وحكمة، فليقم بها، وإذا هبت رياحه فليغتنمها، فلكل عاصفة سكون.
فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى فِي أَصْحَابِهِ تَأَخُّرًا، فَقَالَ لَهُمْ: "تَقَدَّمُوا فَأْتَمُّوا بِي وَلْيَأْتَمَّ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، لا يَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ حَتَّى يُؤَخِّرَهُمْ اللَّهُ " [١]
فكان تأخير الله لهم جزاء لتخاذلهم و خنوسهم [٢] فهذا مما كسبت أيديهم وخست هممهم، ولم يقدِّروا نعمة الله التي أنعمها عليهم من تهيئة النفس، وتيسير أسباب الأمور، لكنهم أخلدوا إلى الأرض، ما يريدون إلا شهوات البدن من الراحة والخمول والدعة، فذهبت رياحهم ولم يغتنموها، فإذا هبت رياحك فاغتنمها واركب على هامتها، لا تكون أبدا في آخر الأمر، فلربما لن تعود تلك الرياح للهبوب مرة أخرى.

---

١ - رواه مسلم (٤٣٨)

٢ - **الخُنُوس** : الانقباضُ والاستخفاء

٤٦: جمع حشفا وسوء كيل

من أمثال العرب الشهيرة (جمع حشفًا وسوء كيل)
والحشف في اللغة:
الحَشَفُ من التمر: أَرْدَؤُهُ، وهو الذي يجفُ ويَصْلُبُ ويَتَقَبَّضُ قبل نُضْجه فلا يكونُ له نوًى ولا لِحاءٌ ولا حلاوة ولا لحمٌ.[١]
والكيل في اللغة:
-بفتح فسكون مصدر كال، تقدير الأشياء بحجومها [٢]
- وقيل: الكَيْلُ: المِكْيال . غيره: الكَيْل كَيْل البُرِّ ونحوه، وهو مصدر كالَ الطعامَ ونحوه يَكِيلُ كَيْلاً ومَكالاً ومَكِيلاً . [٣]
وقد وضع هذا المثل كما يتضح لمن ساءت بضاعته وأَخْسَر وزنه، فهو إن باع، باع حشفًا، الناس في زهد عنه، وإن وزن طفف وأخسر في الميزان .
وما يدعو للحيرة والعجب ليس نوع البضاعة ولا تخسير الميزان، لكن العجب كل العجب أنك تجد من يذهب ليشتري الحشف وهو يعرف أصله و صفته، ويقبل بميزان ناقص وهو على يقين من تخسير الميزان.
ولعلك تحدث نفسك مثلي الآن، ما الذي يدفع مثل هذا الأخرق ان يفعل هذا بنفسه، فيرضى بهذا الزهم ويقبل بهذا الخسران.
قد تحتار في الإجابة، ولكنك تراها طوال الوقت، ولكنك قد لا تجد عبارة محددة تسطيع صياغتها بها .

---

١ - المعجم الوسيط
٢ - معجم المعاني الجامع
٣ - لسان العرب

ولكن قبل أن أصوغها في عبارة محددة، دعني اسألك، هل كنت من هذا النوع ا لذي يشتري الحشف، ويقبل سوء الكيل من قبل ؟!
إذا كانت الإجابة:" لا " فقد سلمت لا شك.
وإن كانت:" نعم " فأنت بلا شك نادم الآن.
ولي استدراك أخير لمن ظن يوما أنه لم يشترِ حشفا .

هل صاحبت يوما سيء خلقٍ، أو من تخلى عنك وقت شدة ؟
إن كنت فعلت فقد اشتريت حشفا.

هل كذبت يوما أو رآيت أو مَدَحْت إنسانا بغير حق ؛ لتحصل رزقا أو منفعة؟
إن كنت فعلت فقد اشتريت حشفا.

هل مالت بك الأهواء يوما، فتركت التبسم في وجه زوجك وولدك، ونثرت الضحكات والابتسامات والمجاملات والخدمات يمينا ويسارا، كأنك مزن السماء؟
إن كنت كذلك فقد اشتريت حشفا.

هل أعرضت يوما عن ذكر الرحمن، فجلست يومك في لعب أو لهو محرم ؟
تحسب أنك تروح عن نفسك، والحقيقية أنك اشتريت حشفا.
هل هجرت مصحفك حتى علاه التراب، لتنظر في حسابات تجارتك، أو تدبير أمر عملك ليل نهار ؟
إن كنت منهم فقد اشتريت حشفا.

هل جعلت الدنيا همك وهمتك وهواك وحاديك إلى ما تختار من فعل أو قول، وشهواتك مقدمة على أمر ربك؟
إن كنت فعلت فقد اشتريت حشفا.

هل جعلت آخرتك آخر ما تعمل له، لا تذكرها إلا طيفا ؟
إن كنت من هؤلاء فأنت قبلت الحشف وسوء الكيل .

وصدق الشاعر إذ قال:

لكل ساقطةٍ في الحيِّ لاقطةٌ * وكلُّ كاسدةٍ يوماً لها سوقُ

إن ما يدفع الحمقى والمغفلون على شراء الحشف، والقبول بتخسير الميزان هو هوى خفي استذله واستعبده، فهو يرضي بما اشترى لخسة في الطبع، وشهوة مستترة على الناس لم يستطع يوما مواجهتها كالرجال.

٤٧: احذر... صقر في السماء!

من سمات الصقر التحليق لارتفاعات عالية جدا، مما يعطي له رؤية رباعية الأبعاد للمكان، وله من حدة البصر ما يمكّنُه من اكتشاف أدق التفاصيل ليصل إلى فريسته بمنتهى الدقة والسرعة والقوة.
وقد صارت الصقور في السماء حولنا طوال الوقت، وعلى مدار الساعة، تراقب وترصد وتحلل وتحدد، وتتخير اللحظة المناسبة للانقضاض .
وأصبح من العبث محاولة الهروب من تلك الصقور المشرعة الأجنحة، الحادة البصر فوقنا طوال الوقت تتحسس وتتجسس، وزاد الخرق اتساعا، أننا نرشد بعض تلك الصقور إلى مخابئنا وأفكارنا و تفاصيل حياتنا .
وصارت تلك الصقور تتحكم في حياتنا، وحالنا بين خوف وطمأنينة، وأمل وياس.
أصبحت السماوات مفتوحة بشكل محموم، حتى أنك تستطيع بصورة أو بأخرى تعرف تفاصيل كل شيء؛ صديقك في العمل، أو منافسك في التجارة وأنت جالس على مقهى تحتسي قهوتك .
ومن ثم أصبح من العبث التعلق بسياسة (داري على شمعتك) بمعنى لا تحسب نفسك بمنأى عن الآخرين .
شئت أم أبيت أنت مراقب طوال الوقت، ولكن قرار الصقر اتخاذك فريسة من عدمه راجع لهواه ومزاجه، أو لسياسة يعتمدها لاصطياد فرائسه.
ويسأل سائل الآن، وما العمل إذن؟ هل سنظل فرائس ننتظر قرار الصياد، أم أن هناك حل ؟!
والرأي أننا لم يعد لنا إلا خيار واحد بعدما فرطنا في كل اختياراتنا و قرارتنا من قبل، هذا الاختيار هو بكل يسر مواجهة الصقر، بل وابتداره

بالمواجهة، بل السبق عليه بالهجوم، حتى يعلم أن العود اشتد و الأمر جد .
المواجهة ليست مواجهة سهام وسيوف أكثر منها مواجهة عقل بعقل وفكر بفكر، فسيف الزمان اختلف، ودرعه اتخذ صور غير التي ألفناها، تتباري العقول في ميدان جديد أشد بأسا من الحديد.

أما فكرة أننا آمنون طالما مازلنا لم نظهر للعلن، ولم نعلن للصياد عن أنفسنا، فذلك وهم، فالصياد صار عنده القدرة أن يرى ما تحت الأرض وما بين الصخور، بل يتوقع حركات الفريسة وسلوكها .
فمن لم يعلن عن نفسه وينصب رايته بين الأمم، فقد اختار أن يكون الفريسة، والصياد صقر ماهر خبير مكير.

٤٨: حفار الطين.

من يعمل بالزراعة، أو له علم فيها يعلم أن هناك نوعا من الحشرات التي تتغذى على جذور النباتات .
وأيا كان الاسم العلمي لتلك الحشرة، فهو يسمى في الريف المصري بـ (حفار الطين) .
وهذه الحشرة لها هيكل (كرياتيني) قوي يحمي جسمها، يجعلها أشبه بالمدرعة في مقدمة رأسها ما يشبه آلة للحفر، تستخدمه لحفر أنفاق لتصل إلى الجذور .
وبمجرد وصولها إلى الجذر تعتبر بداية النهاية للنبات، لأنها تتغذى عليه دون هوادة، فتمنع كل ما ينفع من الوصول إلى الساق والأوراق.
لهذا ينزعج الفلاحون جدا عند رؤية هذه الحشرة .

وكثير ما كنت أسمع التشبيه من كبار السن في قريتي، أن فلان يشبه حفار الطين، فكنت أنظر في وجه الْشَبَّه وأدقق في ملامحه لأرى وجه الشبه بينه وبين حفار الطين، وكثيرا لم أجد وجه الشبه، وقد سمعت تشبيها يوما من رجل أحسبه من الحكماء، فكان يقول: إن فلان يشبه حفار الطين، فكل عمله في الطين، و يا ليت عمله نفع، إنما هو يعمل في الطين ليهلك الشجرة. فسرعان ما أدركت الأمر، وفهمت وجه الشبه بين بعض الناس وحفار الطين.

لازمني هذا التشبيه على اختلاف مواقف حياتي، إذ كنت أراه أبلغ تشبيه لنوع من البشر لم يعتد العمل في النور، ولم يعتد المواجهة والصراحة .

وليس هذا وحسب، بل إن هذا النوع يعمد إلى الأصل ليهدمه، فهو في ذلك يشبه عمله عمل الشيطان، يعمل في الخفاء ليصل إلى قلبك يريد هلاكك.

يطل علينا أناس مع طلة شمس الصباح كالغمام، أو كالضباب يريدون حجبها، أولئك الحفارون للوصول إلى الجذور، غايتهم استئصال شأفة الشجرة.
ينخرون في الثوابت لا يراهم أحد، فهم مغموسون في طينهم، لا تراهم ولكنك تشعر بهم عندما تبدأ أوراق الشجرة بالذبول وأغصانها بالوهن، وساقها بالجفاف.
إنهم يعمدون إلى الجذور، فاحذروهم. فمن كان بلا جذر لا ساق له ولا ورق ولا ثمر.

٤٩: الانتحار وفعل الصالحين وقت الشدة

قال تعالى:" إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء" (النساء:٤٨)
قال الإمام ابن جرير الطبري _رحمه الله _ في تفسيره: " وقد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة: ففي مشيئة الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه عليها، ما لم تكن كبيرته شركاً بالله" . [١]
وعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ الله عنْه قَالَ: أُتِيَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِرَجُلٍ قَتَلَ نَفْسَهُ بِمَشَاقِصَ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ ." [٢]
وقال الإمام أحمد:" لا يصلي الإمامُ على قاتل نفسه ولا على غالٍّ، ويصلّي الناس عليه، وكذا قال الإمام مالك: المقتول في القوَد يصلّي عليه أهله، غير أن الإمام لا يصلّي عليه " .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ (صلى الله عليه وسلم) ": مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدا فِيهَا أَبَدا. وَمَنْ شَرِبَ سَمّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدا مُخَلَّدا فِيهَا أَبَدا. وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدا مُخَلَّدا فِيهَا أَبَدا." [٣]

---

١ - تفسير الطبري (٥/ ١٢٦)

٢- رواه مسلم (٩٧٨) ، وراه الترمذي (١٠٦٨)

٣ - رواه البخاري (٥٧٧٨)، ومسلم (١٠٩)، والترمذي (٢٠٤٣) واللفظ له، والنسائي (١٩٦٥)، وأحمد (٧٤٤٨)

وقد علم كل من له طلب للعلم أن هناك خلاف بين العلماء في فهم ألفاظ الحديث وتنزيلها على القواعد والضوابط الشرعية لفهم النصوص.

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: "لا يتمَنَّيَنَّ أحدُكم الموتَ مِنْ ضُرٍّ أصابَه، فإن كان لا بُدَّ فاعِلًا، فليقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي ما كانَتِ الحياةُ خيرًا لي، وتوفَّنِي إذا كانت الوَفاةُ خيرًا لي." [1]

فشرع لنا حال الضر الظاهر _ بادي الرأي _ أن ندعو الله بهذا الدعاء، ولعل كل منا يذكر كم من ضيق فرجه الله، وكم من أمر حسبه المرء ضيقا وهما و بلاء عظيما في أول الأمر ثم وجده نعيما وبركة، لسان حاله " فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ" (الحديد: ١٣)،
و لعله لو تذكر فيما يتذكر قوله تعالى:" وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" (البقرة: ٢١٦)
إن أعمال القلب هي المحرك لكل فعل للجوارح، فليس فعلها إلا فرعا على عمل القلب، فالقلب الوهن الذي ضعف إيمانه وقل توكله على رب العالمين، هو من يقدم أيضا على اليأس من أمر الله ويسئ الظن به، فيظن أن مصائبه لا انكشاف لها، ولو أنه علم لسلم، ولو سلم ما يأس، ولو يأس ما انتحر.

---

[1] - رواه البخاري (٦٣٥١)، ومسلم (٢٦٨٠)

كان سلف الأمة الذين شربوا من النبع المصفى لمنهاج النبوة، يُخْتبَرون ويُبْتَلون أشد البلاء، وكان ما يحدث لهم، لو تعرض أحدنا لعشره ما تحمل ولا طاق .
فهذا إمام الدنيا الإمام أحمد لما ابتلي وامتحن امتحانا عظيما في فتنة خلق للقرآن، فمنع من التحديث وسجن وعذب زمانا طويلا لم ييأس من روح الله، وعلم بقلبه السليم السالم المتوكل المصدق أنها حكمة بالغة وقدر محتوم، ووثق في نصر علام الغيوب وحكمته، فكانت المنحة في المحنة، وكان النصر مع الصبر، فلم يقل أو يقدم قط على ما يغضب الله العظيم .
وذلك الإمام العلم المفرد، الإمام البخاري، لما ابتلي في محنة في آخر حياته بلاء عظيما، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، ففعل فعل الثابتين الموقنين المحسنين، فقال بعد أن صلى:" " اللَّهُمَّ إِنَّهُ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، فاقْبِضْنِي إِلَيْكَ " فما لبث أن قُبِض .
وروى محمد بن أبي حاتم في طبقات الشافعية فقال:" فلما دفناه فاح من تراب قبره رائحة غالية فدام على ذلك أياماً، ثم علت سواري بيض في السماء مستطيلة بحذاء قبره فجعل الناس يختلفون ويتعجبون، وأما التراب فإنهم كانوا يرفعون عن القبر حتى ظهر القبر ولم يكن يقدر على حفظ القبر بالحراس وغلبنا على أنفسنا فنصبنا على القبر خشبا مشبكا لم يكن أحد يقدر على الوصول إلى القبر. وأما ريح الطيب فإنه تداوم أياما كثيرة حتى تحدث أهل البلدة وتعجبوا من ذلك، وظهر عند مخالفيه أمره بعد وفاته وخرج بعض مخالفيه إلى قبره وأظهر التوبة والندامة."

وروى الخطيب البغدادي قال: "أخبرنا علي بن أبي حامد الأصبهاني في كتابه قال: حدثنا محمد بن محمد بن مكي الجرجاني قال: سمعت عبد

الواحد بن آدم الطواويسى قال: رأيت النبي (صلى الله عليه وسلم) في النوم ومعه جماعة من أصحابه، وهو واقف في موضع فسلمت عليه فرد السلام. فقلت: ما وقوفك يا رسول الله؟ فقال: أنتظر محمد بن إسماعيل البخاري. فلما كان بعد أيام بلغني موته، فنظرنا فإذا هو قد مات في الساعة التي رأيت النبي (صلى الله عليه وسلم) فيها." وكانت وفاته ليلة عيد الفطر رحمه الله .
فسبحان الله الموت واحد لكن هناك من أراد تعجيل قضاء الله فوقع في الكبيرة وحُرِم الفضل، وهناك من صبر مع البلاء فكان الفضل والثناء.

وكان من سنته (صلى الله عليه وسلم):"لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه، فإن كان لابد فاعلاً فليقل: اللهم أحيني ما دامت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي ."

فالله أعلم بما يصلح عبده، وهو أدرى بقلبه .

٥٠: ذكريات مؤلمة.. ذكريات مفرحة

حياتك مخزنة داخل تلافيف مخك، مواقف وأحداث منها المؤلم الموجع، ومنها المفرح المبهج، وبكل أسف لا تسطيع التخلص منها، لأن التخلص منها يعني التخلص من ذاكرتك بل وعقلك بالكلية .
ذكريات الإنسان ما هي إلا ضحكات ودمعات، فكثير من المواقف العادية في الحياة، أو ما نسميه مجازا (روتين الحياة) تُنْسى، لكن ما يبقى هو ما يحرك عضلات الوجه ويغير ملامحه، بين دمعة وتقطيب جبهة، وبين لمعان عين وظهور أسنان وانفراج أسارير.
تغدو الذكريات وقودا ودافعا لاستكمال الحياة، فهي إما مؤلم موجع محفز، وإما مفرج مبهج محفز أيضا .
واسأل كل مجرب عن أثرها، تراه يخبرك الأعاجيب عن فعلها، والناس في هذا الأمر شتى .
ولكن دعوني أنظر إلى جانب آخر من كل ذكرى اختزتها في برج حصين حتى لا يطلع عليها أحد، ستجد أن تلك الذكريات قد كانت مع أناس تحبهم، أو كنت نحبهم، أو تكرههم أو كنت تكرههم، وعلى كل حال فالذكريات معلقة بأشخاص .
فماذا لو افتقدنا أولئك الأشخاص المتعلقة ذكرياتنا بهم حتى وإن كانوا خصومنا، هنا تتحول الذكرى إلى ألم و معوق ومحبط، فيهرب منها الإنسان ويتمنى ألا يذكرها فلا يجد من كانوا معه يوما جزءا منها .
إن من تعلقت ذاكرتنا و ذكرياتنا بهم هم من يجعلون للحياة مذاق، يحولونها من الأبيض والأسود إلى ألوان قوس المطر المبهجة .
لكن المفارقة أنْ لو كانت تلك الذكريات المتعلقة بشخص ما هي مصدر الألم ومصدر الفرح في ذات الوقت، فإن حاولت التخلص منها لقسوة

جزء منها وجدتها تسحب معها الحلو الطيب، وإن أبقيتها لحلاوة جزء منها تعذبت بكيٍّ نار الجزء الآخر، فماذا عساك تفعل؟
خذها نصيحة خالصة لله (تعالى) احمل الغث على السمين، واجعل مالهم من حسنى شفيعا لما عندهم من منقصة، واجعل المغفرة والمسامحة غطاء لسيئ الذكرى، وأقبرها في قبر التغافل وغطها بتراب الأخوة والمحبة، وضع عليها شاهدا من الرحمة والفضيلة، واسعد بما بقي حيا من ذكرياتك الطيبة مع من شاركوك تلك الحياة.

فكن مع من تحب لين هين، شاركه لحظات حياته كلها، وحتى مع من لا تحب ألقي إليه السلم، وكن له كما كان النبي (صلى الله عليه وسلم) حتى مع خصومه.

٥١: احذر جبل الجليد

من المعروف لدى البحارة الذين عادة ما يبحرون في مناطق مياه باردة أن بعض كتل الجليد التي تظهر فوق سطح الماء ما هي في الحقيقة إلا قمة جبل مهيب عظيم، قد ضرب عليه الماء ستارًا عظيما فلا يظهر منه إلا وجهه الأبيض الجميل الخيالي .

وليست واقعة السفينة (تيتانك) بخافية على أحد، فقد كان سبب غرقها الأساس ذلك الجبل المختفي معظمه تحت أستار وخبايا كثيرة .
وجبل الجليد كثيرا ما ينخدع الناس بمظهره، فيحسبون ما هو ظاهر منه هو كل ما يعلمونه، وهم بين مستمتع به على حاله، وبين مستخف بقدره، ولكنه في الحقيقة يخفي الكثير تحت مياه المحيط العميقة المظلمة.
كثير من الناس لا يظهر لك منه إلا حسن السمت وطيب الكلام، وما يخفى وراء ذلك أشد وأعتى .
قال الله (تعالى):" وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ" (المنافقون:٤)
ليس قصدي هنا بسط تعريف النفاق العقدي أو العملي، ولكن استشهدت بالآية الكريمة في جزئها الأول؛ أن هناك بعض الناس يعجبك قوله و شكله وهيئته،" وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ" (البقرة: ٢٠٤)
قد تمنى الناس من قبل زينة قارون، وتمنوا أن يكون لهم ما له، فلما أراهم الله آياته فيه، أفاقوا وندموا، وعلموا أن الزخرف الفتان الذي

تبدى عليه قارون، ما هو إلا اختبار لبصائرهم، التي ما لبثت أن تكشفت حقيقتها وأبانت لهم ما كانوا عليه من وهم .
كل ما يظهر لك بادي الرأي من بعض البشر، وحكمت عليه بمجرد النظر، أو بمعايير اتخذتها لنفسك تحكم بها على الناس، ما هو إلا مقياس لمقدار فهمك الحق لهذه الدنيا، ومعرفتك حقائق الأمور .
فلا تجعل كل سوداء عندك تمر، ولا يغرنك بريق الزجاج فكثيرا ما يشبه الماس،و عينك ليست عين صائغ، فتمهل في أحكامك على البشر من مظاهرهم .

٥٢: مواقف و ثوابت

لا يعيش الإنسان في العموم حياة سهلة رخية، فهو إن سلم من شياطين الجن، لا يكاد يسلم من شياطين الإنس .
والحياة في مجملها اختبار أعظم، لا يكاد المرء ينجح فيه إن لم يفهم جزئيات ودقائق منهجه.
و منذ العمر الأول للإنسان و هو يراقب ويسجل الآلاف من الأحداث التي تخايل بصره، يضعها في مكان مخصص في خانة تسمى فيما بعد الذكريات أو التاريخ أو الماضي؛ و مهما كانت التسمية تظل هذه الأحداث هي الدفة التي توجه سفينة حياته المندفعة باستمرار إلى وجهتها المحتمة.
تكون هذه الذكريات أحيانا سببا لمنعه من الانخراط في تجربة ما، أو كراهية طائفة أو فريق أو أمة، وقد تكون سببا في محبته أو قربه منهم.
وتظل هذه الذكريات والأحداث المخزنة في رأس كل منا حاكما ومتحكما في كل قرارتنا.
والإنسان بطبعه كائن يتعلم من التجربة والخطأ، وليس هناك ما يدعوه أن يثق في قول أحد يخالف تجربته الواقعية الحية .
و نأتي هنا إلى بيت القصيد، إن طبائع بعض الناس المستغربة والعجيبة عندنا ما هي إلا نتيجة محتمة لآلام رهيبة، و أوقات عصيبة عاشها أصحابها لم تشعر بهم مجتمعاتهم وهم تغص حلوقهم بمرارة الحنظل، بينما وجوههم تبتسم .
قدموا كل نقاء وفطرة ووفاء و شهامة و مرؤة، فما قوبلت إلا بكل لؤم وتنكر وخيانة و خسة .
ليس هذا مسوغًا بالطبع أن يخرج الإنسان من الحلال إلى الحرام، ومن الأخلاق الفاضلة إلى أخسها، ولكنه يحمل العديد من الناس على كف

خيرهم عن غيرهم، وعلى التصرف على غير سجيته، وإلى الحيطة والحذر أحيانًا، أو إلى حدة الطبع وضيق مسالك التسامح لديه، وقد يحمله الأمر على فقدان الثقة في العالم من حوله فلا يأمن أحدا، ويظن الناس كلهم أصحاب نقص وخلل.

إن المواقف التي تتسبب في إنشاء ثوابت عملية في نفوس بعض البشر،كانت من القسوة والشدة والفداحة ألا تجعل المرء يغيرها، ويصبح مع الوقت من ذوي السلوك المستغرب أو المخالف لما عليه الناس، فإذا وجدت أمثال هؤلاء فاعلم أن جرحهم مازال يثعب دمًا، وأن آهة توجعه لمّا تخرج بعد لتريحه، فكن له خير معين، و لا تزد همومه، وتلمس له الأعذار، وحذ بيده إلى حيث كان يقف مقبلا على الدنيا فرحا بها، قلبه مليء بالأمل والخير .

٥٣: هتْكُ الأستار

أخرج الإمام أحمد في مسنده عن أسماء بنت يزيد (رضي الله عنها) أنها كانت عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والرجال والنساء قعود عنده فقال:" لعل رجلا يقول ما فعل بأهله، ولعل امرأة تخبر بما فعلت مع زوجها، فأرَمَّ القوم؛ أي بفتح الراء وتشديد الميم ؛ أي سكتوا من خوف ونحوه، فقلت: (أي والله يا رسول الله إنهم ليفعلون وإنهن ليفعلن.) قال:" لا تفعلوا فإنما مثل ذلك مثل شيطان لقي شيطانة فغشيها والناس ينظرون" [١]

فسبحان الله الذي شرع للناس ما يكرمهم ويصونهم ويعلى أقدارهم، ولكن البعض يأبي إلا التمرغ في الوحل، والعيش في القحل.
كرم الله البشر ونزههم عن كل منقصة، فصار المسلم سمتًا ظاهرًا و اعتقادا باطنا نبراسا يُهتدى به، و آيات حية تمشي على الأرض .
و من تكريم الله لأهل الإسلام، أن حفظ أعراضهم وصانها، فجعل الستر سابغا تاما. وجعل لهم خلق الغيرة المحمودة والحمية في غير ريبة ميزة وعلامة عن غيرهم من الأمم، فصاروا مضرب المثل في صون أعراضهم وحميتهم على ذلك.
ولما كانت الغيرة على الأعراض بتمام الستر، نهى النبي (صلى الله عليه وسلم) كما في الحديث عن مجرد ذكر حال الرجل مع زوجه، لما في ذلك مفاسد عظيمة تستوجب غضب الله، تنافي غيرة المسلم، و يصيب المرء منها دخن الدياثة .

---

[١] - صحيح الترغيب والترهيب (٢٠٢٢)

و تأمل أن مجرد ذكر حال المرء مع أهله، كان فيه تشبه بشيطان ديوث مفضوح، فما بالك بمن لا خلاق له ولا غيرة عنده، بل صارت الدياثة عنده خلق وحضارة، فصار يختار ما شف و لف وصف وكشف من اللباس ليعري به بناته وزوجته، ثم تراه يزداد مجاراة لبعض جنس الحيوان في دياثته فتارة يصفق لزوجه وأخته أو بنته وهي ترقص أمام جموع الرجال، وتارة تراه يختار الذهاب إلى الشاطئ كي يستجم _ ولا عيب في ذلك _ لكنه نسي أن زوجه لها من الشروط الشرعية في الشارع ما ليس لها في البيت.

إن من هتك سترًا أمر الله بإسباله كان كالشيطان أو هو أضل سبيلا، فلا تهتكوا أستار الله التي ستركم بها، فتنتكس قلوبكم، سترنا الله وأهلنا في الدنيا والآخرة.

٥٤: أنت البطل

على الرغم من متابعتي فترة الطفولة لكثير من الأفلام، ولايزال كثير منها عالقا بذهني، لكن كان عندي قناعة تامة، أن ما يحدث على شاشات التلفاز، أمر خيالي، لا يحدث في الواقع .
وكان البطل تلك الشخصية المحورية في أي عمل درامي أكثر ما يثير سخطي، ويجعلني في حيرة شديدة .
فكثيرا ما يكون البطل شاربا الخمر، أو متعاطيا للمخدرات، أو تاركا للصلاة معتديا على الحرمات، متندرا مستخفا بحدود الله و...
فكنت أسأل سؤالا بديهيا؛ كيف لمثل هذا الشخص أن يكون (بطلا) وهل هذه هي حقيقة الحياة ؟! أم أن صناع الدراما يعملون وفق آلية محددة، ربما درسوها في معاهد التمثيل والسينما؛ ليغيروا هوية مجتمع كامل بكل عناصره وأطيافه، أم صاحب المنقصة يود لو كان الجميع مثله .
إن البطل الحق ذلك الذي استقام أمره على مراد الله، وتعهد هواه فحكمه، وواجه شهواته فقيدها، فلم يستعبده هواه، ولم تستذله شهواته، فهو مقدم أمر ربه على كل ما عداه، فلا صلاة يؤخر، ولا رحم يقطع، ولا كذب يذكر، ولا خير يمنع، ولا شر يقرب .
إن البطل الحق ذلك الكادح الصابر التقي الذي بذل الوسع حتى يطعم أطفاله حلالا، رضي برث الثياب، وتشقق الأيدي، وكل الكتف، و بسيط الطعام ؛ حتى يبر في أبنائه ما عاهد الله عليه.
إن البطل الحق ذلك البار بوالديه، فلم يترك موضعا ولا صنيعا يسعدهما إلا ابتدرهما به .

إن البطل الحق ذلك التقي النقي الخفي الذي يعمل عملا خالصا لله يبتغي رضاه، ثم نفع وطنه وأهله وأمته، لم يسرع إلى شهرة كاذبة، أو ثناء وحمد بباطل وزور.

إن البطل الحق ذلك الذي أحسن بذر نبتة الخير في أبنائه، فهو كحارس الحدود لهم يزود عنهم زود الأسود الأشاوس، يربيهم على كل فضيلة وحق، وإن صار الخلق من حوله غثاء .

إن البطل الحق ذلك الذي يأمنه جاره، ويرجوه في النوائب، يرعى الحرمات، ويصون العرض .

إن البطل الحق ذلك المستمسك بما رآه حقا، وإن جمع له الناس فما زاده هذا إلا إيمانا وتثبيتا، قلبه ثابت ثبات الجبال الرواسي، وعامر كالكرم .

إنك أنت البطل الحق بما تحفظ ما بينك وبين الله، وتصون ما بينك وبين الناس، تَطْعَم وتُطْعِم حلالا طيبا، تصون الحرمات وتصل الرحم وتؤدي الحق .

٥٥: شر الرعاء الحُطَمة

عن الحسن البصري أن عائذ بن عمرو دخل على عبيد الله بن زياد، فقال: أي بني، إني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: إن شر الرعاء الحطمة فإياك أن تكون منهم، فقال له: اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) فقال: وهل كانت لهم نخالة ؟ إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم." [١]

والرعاء مفردها راعٍ، وشرهم من إذا شردت من قطيعه غنمة ضربها فحطمها.

وإنهم لَكُثر الذين يفعلون هذا الفعل الشنيع، فيمن هم مسؤولون عنهم، كلما زل أو أخطأ من يرعاه كان كالسيف القاطع يهوي عليه بكل صارمة وبتر فيقطعه قطعًا.

وأكثر ما يقع من شر الرعاء مع الأبناء، يُولد الصبي مفطورا على كل حق وعدل وخير، لكن طبيعة البشر تغلب وتحكم أحيانا، لا يلزمها إلا التعهد والتذكير والنصح، وهي بطبعها رجاعة آوابة، لكن الخطأ اليسير الذي يقابل بتحطيم الرؤوس و كسر القلوب وغبن النفوس ما هو إلا كمن أشعل النار في غطائه ليقتل حشرة لبدت فيه.

والحملان مازالت غضة بها جهالة وقلة خبرة، منها من يضل الطريق لجهالته، ومنها من يشرد لعدم خبرته بالطريق، فإذا طالت عصا ذلك الراعي الغليظة تلك الحملان الشاردة حطمتها فلم تبقي لها رجعة، فكيف بنا نرى من حولنا، نرى بعد ذلك أناسًا بين الورى يعيشون جسدا سليما و روحا محطمة .

---

[١] - رواه مسلم(١٨٣٠)

لا يدرك ذلك الراعي عظم جرمه في حق غيره، بل يظن أنه بفعله قد حماه، وفعل الصواب والحق، ولكن النبي (صلى الله عليه وسلم) أخبره أنه شر الرعاء .
وليس الأمر متعلقًا بالأبناء وحسب، ولكن لكون الأمر في الأبناء أعظم وأجل وأظهر .
إنما هو ممتد في كل ذي شأن مسؤول عن غيره، فهو بين المعلم وتلاميذه، وبين المدير و فريقه، وبالطبع بين الأب أو الأم وأبنائهما.

فاحذر أن تكون شر الرعاء.

٥٦: لا ترى العالم من ثقب بابك

إن الذين ينظرون من ثقب الباب إلى ذلك العالم الذي مده الله وأبدعه، وأودع فيه من الحكم والأسرار و الآيات والمعجزات، هم أقصر الناس نظرا، وأعدمهم بصيرة، و أضعفهم عزيمة.

أراد هذا الناظر فقط أن يري عينيه ذلك الإطار الذي حدده بثقب الباب، وهيئ عقله للتصديق أن هذا هو العالم، وأن ما يراه بعينيه ويعيه بعقله هو الحقيقة الحقة، والحكمة البالغة، وأنه صار حكيما خبيرا عالما ببواطن الأمور وحقائقها ودقائقها.

و هو على هذا يواجه كل دعوة لفتح الباب والنظر عبر مساحة أوسع بالرفض والعناد، بل إن الأمر قد يصل أحيانا إلى اتهام الآخرين بتخريب عقله، والاجتراء على تراث الآباء والأجداد.

ولعل الخوف من المجهول يكون دافع بعض هؤلاء على البقاء على حالهم المعهود؛ فالناس أعداء ما يجهلون، لكن الأمر في الحقيقة خسة همة، أو أنه شيء أكبر.

فمن خست همته كان إلى الأرض ألزم وإلى موضع بيته ألصق، ومن قل توكله كانت الهواجس والأوهام من الغد عنده أكبر وأعظم، وكان خوفه من خوض معالي الأمور أشد وأكثر.

ولقد قال (تعالى): قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠: العنكبوت)

وكان الصحابة الأطهار الأبرار ومن بعدهم رجالات هذه الأمة يخوضون غمار المعالي، ويجوبون الدنيا طولا وعرضا، يتعلمون ويعلمون، يتدبرون ويتفكرون، يتفقهون ويرحلون الأيام الليالي لطلب شذرة من علم وفهم .

فافتح الباب، وكف عن النظر إلى الدنيا من ثقب الباب، واطلب المعالي كما طلبها العوالي.

٥٧: إدارة الغضب

ليس هناك أنفع من وصية النبي (صلى الله عليه وسلم)، ولقد وصى من سأله يوما كما في حديث أَبي هريرة: أَنَّ رَجُلًا قَالَ للنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي، قَالَ: لا تَغْضَبْ، فَرَدَّدَ مِرَارًا قَالَ: لا تَغْضَبْ." [١]
قال ابن حجر الهيتمي - رحمه الله -: هذا الحديث من بدائع جوامع كلمه التي خص بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وقال بعض أهل العلم هذا الحديث جمع خيري الدنيا والآخرة.

إنه عدوك المضل المبين يظل متربصا ينتظرك أن تلقي إليه ما غث من غضبك الذي لاتزال تطلق له العنان، فيتحين الفرصة حتى يمسك باللجام فيتحكم بك ويوجهك كيف شاء، و هو غذاء الشيطان المفضل يعمل سريعا إذا وجد بذرته فيرويها ويغذيها بالجهالة والحمق والريبة؛ فيغيب العقل وينفث في الروع وينفخ في الأوداج و يهمز الجسد؛ فتنتفخ الأوداج و يحمر الوجه و تغشى العين و يرتفع الصوت، ويصير في الجسد قوة غريبة تحمل الإنسان على الانتقاص كودق قد شحن بالبرق، أو بركان احتبس بالحمم، فمن أطلق العنان لذلك البرق أو تلك الحمم فقد مكن الشيطان من نفسه، لكن من قدم أمر الله وأمر رسوله، فقد ضيع على الشيطان عمله، وأرضى ربه، واستن بسنة نبيه، وفيما يلي المنهج النبوي في إدارة الغضب.

---

[١] - رواه البخاري (٦١١٦) ، والترمذي (٢٠٢٠)

كان من تمام الفضل وعظيم الرحمة، أن أعطانا الله من الوسائل والأسلحة ما نقطع به الطريق علي الرجيم، ونرد كيده، فيدير الإنسان غضبه بمنهج نبوي مبارك .

فقد أخرج البخاري في صحيحه عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ قَالَ كُنْتُ جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم)وَرَجُلانِ يَسْتَبَّانِ فَأَحَدُهُمَا احْمَرَّ وَجْهُهُ وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ فَقَالَ النَّبِيُّ(صلى الله عليه وسلم):" إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ لَوْ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ فَقَالُوا لَهُ إِنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ تَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَقَالَ وَهَلْ بِي جُنُونٌ." [1]

وفي الحديث أكبر وأدق بيان على عمل الغضب في نفس الإنسان، وأنه لا علاج له إلا التعوذ، فهذا الرجل أَخْرَجَه غضبه عن العقل و الاعتدالِ، وحتَّى زجَر الناصح الَّذي أراد له الخير، ورد نصحه، وظنَّ أنَّه لا يَستعيذ مِن الشَّيطانِ إلَّا مَن به جُنون، وهذا أيضا من عمل الغضب، أنه يقلل الفقه ويغيب العقل ويورث الكبر.
وفي رِوايةِ أخرى للحديث أنَّ مُعاذَ بنَ جَبَلٍ رَضيَ اللهُ عنه هو الَّذي ذهَبَ إلى الرَّجلِ الغَضبانِ، فقالَ الرَّجلُ: "وهلْ بِي جُنونٌ؟!" وهذا مِن قلَّةِ الفقه وسوء الفهم، فقد جعله الغضب يخرج عن اعتدالِ حالهِ ويَتكلَّمُ بالباطل، ويغل الحقد على ناصحه، ويلقي من يديه وهو في حربه مع الشيطان أقْوى سِلاحٍ.

---

[1] - رواه البخاري (٣٢٨٢) ، وابن حبان (٥٦٩٢)

وكلام النبي بين واضح فصيح فصل فقد نظم الخطاب فجمع وأوجز، وفصل الجواب لمن سأل، ووصف الدواء لمن سقم، فقال قل: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"

وزادنا الهادي البشير أدوية بها الزيادة في الخير، والراحة للنفس، والسلامة من أدواء الغضب وأعراضه، فقدثبت عنه (صلى الله عليه وسلم) كما في حديث أبي ذر (رضي الله عنه) انه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع " [1]
وهذه في الأخير وصية من حبيب لمحب، وهذا بيان لمن سأل عن الكيفية، فأثبت النبي في حق كل مسلم العلم والكيفية في إدارة الغضب، وجعل له من الخطوات الواضحة والسبيل الممهدة والكيفية المستنيرة ما يدير به غضبه ويرد عمل الشيطان في نفسه.

وليس كل الغضب مذموما، فهناك من الغضب ما يغيظ الشيطان ويرضي الرحمن، وهو الغضب لله إذا انتهكت محارمه، والغضب للمظلوم إذا سُلب حقه، وللحرة إذا اعتدي على جنابها، وللإنسان إذا حرم من إنسانيته .
والثابت أن النبي (صلى الله عليه وسلم)غضب غضبا شديد، حتى كأنما فقئ حب الرمان في وجهه الكريم، لما كان الأمر فيه تجرأ أو غلط في دين الله .
فليكن غضبك لله تؤجر، ولا يجعلك الشيطان مطية في غضبك فتندم.

---

[1] - رواه أبو داود (٤٧٨٢)، وأحمد (٢١٣٨٦)

٥٨: درع وسيف

يستخدم المصطلحان في التعبير عن مدى استعداد المرء لخوض غمار الأمر، والانخراط في كل حرب يخوضها دون خوف، أو وجل .
وقال الصحابي الجليل عمرو بن معدي كرب يصف تلك الحال:

أَعْدَدْتُ لِلحَدَثَانِ سابِغَةً وعَدَّاءً عَلَنْدَى
نَهْداً، وذا شُطَبٍ يَقُدُّ البَيْضَ والأَبْدَان قَدَّا
وَعلْمِتُ أَنِّي يومَ ذاكَ مُنازِلٌ كَعْباً ونَهْدَا
قَوْمٌ إِذا لَبِسُوا الحَدِيدَ تَنَمَّرُوا حلَقاً وقِدَّا
كُلُّ امْرِئٍ يَجْرِي إلى يَوْمِ الهِياجِ بِما اسْتَعَدَّا

فعبر عن حال ذاك الذي جهز نفسه ليوم الكريهة، وأحسن إعداد ما استطاع من أسباب القوة وأدواتها، فلما احتاجها وجدها العون والسند، ولم يكن أمره فرطا.
ولعل غالبنا يذهب بعقله إلى الأسباب المادية وحسب، وهذا قد يقع في هذه الحياة لكل أحد إلا المسلم، لأن الله وعده بالتمكين والنصر ليس فقط إن أجاد العمل وأحسنه، وأخذ بكل سبب مادي، ولكن إذا جمع السببين جميعا، إيمان وعمل، معنوي و مادي .
فلو أخذ المسلم بكل أسباب التقدم، وكل وسيلة ممكنة ليصل إلى مبتغاه، دون الأخذ بالسبب الأعظم وهو توكل ونية وإخلاص وتوحيد لما حصل شيء، كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه.
وهو مع ذلك مأمور أن يحسن الأخذ بالسبب، وحسن الإعداد والتدبير، وسيرة النبي عامرة لمن أراد المراجعة .

وحسبك من ذلك كله قول الله تعالى:" وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠: الأنفال)

فالله (تعالى) قادر على نصر عباده

فكل سبب مشروع يستطيع أن يحصله الإنسان يتقي به من حوادث الزمان وجب عليه الجد في طلبه وتحصليه، ألا يكون حاله كحال القائل: كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْجَا بِغَيْرِ سِلاَحِ.

ودرع المرء إنما يكون للدفاع وتلقي غدرات وسوءات أهل الغدر والسوء، فلماذا السيف؟ ليس السيف هنا للهجوم، ولكن هناك من ينتظر أن يراك بلا سيف، فيستل طاعنه لينال منك.

مفهوم السيف والدرع مفهوم قديم منذ قدم التاريخ، فهمه أهل العقل وأصحاب النظر والرأي والعزيمة، واتخذ.

٥٩: قاسية هي دروس الأصدقاء

إذا كنت ممن يعرفون حق الصحبة، ويجعلون الصديق مقام الأخ الشقيق، وكنت ممن يستحضرون في أنفسهم كيف كان حال خير البشر (صلى الله عليه وسلم) مع أصحابه، وكيف كان حالهم (رضوان الله عليهم) معه

ستعلم أن ذلك الألم الذي يعلكك كالمضغة، ويعركك عرك الأديم، وتلك الأنياب والمخالب التي تعمل في لحمك وعظمك وعصبك، وتلك الظلمة التي تغشى عينيك، عند غدر الأصحاب وتنكرهم وقت الشدة، أو تبدلهم، وكأن حالك مثله كمثل تلك (البروتونات) التي تدور حول نواتها في تناغم وانسجام، حتى حفزها عامل خارجي فاستحالت (قنبلة نووية) انفجرت في صدرك وحدك، فصارت كل تلك الأصوات، وكل هذه الحرارة التي تذيب كل ما يقف في طريقها، وكل ذلك اللهب، وكل هذا الدمار ساكن بين أضلعك .

وأنت مع ذلك لا تستطيع أن ترفع صوتك بالتوجع، أو بقول (أوَّه) ولن تستطيع، فالجرح نافذ، والألم رهيب ومخيف لن يمكنك من فتح فاك. ولن تستطيع لأن الاختيار اختيارك، والتقدير تقديريك، فأنت من اخترته صاحبا، ونثرت له نفسك، وعميت أن ترى تلك الثقوب السوداء.

على كل حال، لم أكن يوما أحسبني سأوافق قول الشاعر:

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة * فلربما انقلب الصديق فكان أعلم بالمضرة

فلله الأمر من قبل ومن بعد .

لعل كل ما يشعر به المرء من هذه الحسرات، ما هي إلا ترجمة لنقاء نفسه التي كانت تحسب كل الخلق مثلها، وترى مكنون غيرها كمكنونها.

لن أكون متجنى، ولن أكون مطريا نفسي أو لغيري ممن يعرف للصحبة حقها، فلسنا أنبياء أو صحابة أو صديقين، فلكل منا ما لا يعلمه إلا الله من الذنوب، سترها الله بستره وفضله.

ولكن علمني النبي (صلى الله عليه وسلم) أن الصَدِيق هو الصِّدِيق أبو بكر الذي نثر للنبي (صلى الله عليه وسلم) ماله ونفسه وأهله في خدمته.
علمني النبي أن حق الصحبة والأخوة في الله، أن يتنازل الرجل لأخيه عن نصف ماله عندما آخى بين المهاجرين والأنصار.
علمني النبي أن الصديق درهمك درهمه ودينارك دیناره، وهمك همه وليس ما يهمه، وأن الأمر إيثار لا أثرة .
علمني النبي أن أولئك القوم على منابر من نور، وأولئك القوم المستظلين بظل الله يوم لا ظل إلا ظله هم صحبة تحابوا في الله، اجتمعواعليه وافترقوا عليه .

فاللهم ارزقنا صحبة كأصحاب النبي، واجعلنا ممن تحابا فيك.

٦٠: الاحتراق الداخلي

بعيدا عن كونه مصطلح يستخدمه علماء النفس والتربية، وله دلالة علمية في أدبيات وقواميس التربية، تعالى معي نستكشف كيف يحترق أحدنا من الداخل إلى الخارج، وزد على ذلك أنه يكون أثناء رعي النار في أحشائه وروحه تراه مبتسما.

يبدأ كل شيء طبيعي تبدأ رحلتك الحقيقة في الحياة بعد انتفاض الزغب ونبات الريش على جناحيك، فتبدأ بالتحليق في سماوات شتى، تستكشف و تختبر وتتعلم من نزعات الحياة و غَدَراتها.

في البدء يبدأ كل منا في التعرف على تلك الدائرة الكبيرة التي تحد حياته من مركز صغير جدا لا يتعدى والديه وإخوته، الذين هم مادته وحوطه وسيفه ودرعه، ثم لا يلبث أن يغادر المركز ليعلم بث تلك الدائرة الواسعة، وهو مفعم بالأمل متقد الحماس كجذوة نار متأججة، يضع النموذج الذي غادره لتوه نصب عينيه؛ فيجعله المرجع والمعيار، وفي ظنه أن الرجال مثل أبيه وإخوته والنساء مثل أمه وأخواته.

يحمل وصية رشيدة خالصة من والديه، توعيه وترشِّده أن يسلك هذه الطريق أو تلك، وأن يلزم هذا الوتر أو ذاك، حتى يستطيع أن يستكشف محيط الدائرة، دون أن يضل أو يتوه فيها، و كلنا يحمل الوصية فمنا حافظ ومنا مفرط.

يعاين المرء حوادث كثر، ويختبر مواقف مشهودة، ويقلب في أنواع البشر؛ ليرى الأنجع فيتخذه صاحبا أو خليلا أو حبيبا، ولا يسلم من لدغات الأفاعي والعقارب المختبئة له في بنيات الطريق وعطفاته.

وكلما مشى على وتره المختار في اتجاه حدود تلك الدائرة كلما رأي وسمع واختبر ما لم يكن يحسب، وقد يخرق الوصية أثناء ذلك فيبدل طرقه وأوتاره، ويحاول أحيانا أن يتوقف ولا يستكمل رحلته، أو يرجع إلى

المركز خائفا، لا يريد المضي في هذه الدائرة الكثيرة الأوتار الفائقة الطرق، لكنه مضطر؛ إذ إن من توقف في الدائرة، لا يُترك بل يطرد خارج حدودها.
يظل يغير طرقه مرة بعد مرة، وهو في ذلك يحاول أن يظهر التماسك لأهل الدائرة، حتى لا يصمونه بالعجز أو التخاذل أو الفشل، فيتحامل على نفسه، ويجبرها على فعل مالا تحب، وقول ما لا ترضى، وسلوك ما تنكر، يظل من عمره يحاول مسح محيط الدائرة كلها، وقد يستغرق حياته كلها في معرفة حقيقتها، وفهم دروبها، وإرضاء أهلها.
يجلس ذلك الخائض في الدائرة مع نفسه يوما، ليقيم رحلته بداية من مغادرة المركز ونصيحة والديه، حتى يوم تلك الجلسة الثمينة، فيرى أن عمره قد انتهى أو كاد، وأن جل من حوله ما كانوا يهتمون أن يرشدونه إلى طريقه الصحيح، وإذا توقف عن الفهم والاستكشاف والمعرفة لا يتركونه وشأنه.

يغيب الساعات والأيام والأعوام الطوال فيكتشف بعد مدة من التخبط_ قد تطول أو تكثر_ أنه يحترق بنار لا يشعر بها إلا هو، ولا تراها إلا روحه، ولا يكتوي بنارها إلا نفسه، وهو يومئذ بين أمرين؛ الأول أن يظل يتخبط و يحترق، أو يقرر أن يطفئ تلك النار، وأن يختار الطريق الأنسب لمعرفة حقيقة الدائرة غير عابئ بأهلها وأقوالهم وغمزهم ولمزهم، مسترشدا بالوصية الأولى من والديه، أو من قام مقامهما في التجربة والخبرة.
فلا تشعل نارا في نفسك، ثم تصب عليها زيتا من غيرك، لتكتوي بها وحدك، ثم لا تجد لك مطفئا لها أو مواسيا لك.

٦١: هل حقا تقرأ ما أكتب!

كان الرافعي (رحمه الله) لمن تابع الحركة الأدبية في مطلع القرن المنصرم رمزا ومصباحا منيرا، مقاوما لتيار التغريب، والانسلاخ من الهوية الإسلامية للأمة فيما يتعلق بالأدب، ولعل معاركه الأدبية مع طه حسين، خير ما ينطق بالعبارة والدلالة على ذلك .

ولكن ما جرى بين العقاد والرافعي، هو حقا أمر محير، إذ كان كلاهما يسلك مسلك الدفاع عن رموز الأمة وثوابتها، ولكن هي الدنيا لا تبقى على حال.

اشتدت المساجلة، وبدأت طبول الحرب الأدبية في مقالات نشرها كل منهما في مجلات كانت تزخر بها القاهرة آنذاك، وما لبث وطيس الحرب بينهما أن قوي وصارت حربا معلنة لا تخفى على أحد من أهل الأدب عامتهم وخاصتهم آنذاك .

ولم تكن تلك هي القضية، فكلا الرجلين في رصيده ما يشفع له، وما يضعه في مصاف أكابر أدباء الأمة في العصر الحديث، لكن القضية كانت في جماهير القراء للأديبين، فقد انتصر كل فريق لصحابه، ودافع عنه دفاع الأم عن صغارها، لكن المعضلة أن غالبهم لم يتكبد عناء النظر فيما يقول الرجلان، أو حتى يكون عنده إنصاف فيما يعرض عليه .

بل إن هناك موقفا هو الأشهر، أثناء وبعد هذه الفتنة الأدبية، هذا الموقف لأديب آخر معروف كان يحب العقاد حبا شديدا، ويدافع عنه في كل ما يخط .

قام هذا الأديب بشن هجوما، أو بالأحرى حربا على الرافعي، دون أن يكون له من الخبرة في أدب الرافعي ما يؤهله لذلك، ودون دراسة نقدية واضحة لما كان بين الرجلين . فانبري يجندل الرافعي، وينزع عنه ما هو أهله من لباسه الأدبي الموشى .

وهذا ما دفع شيخ العربية وقتها؛ الأديب الألمعي، وإمام اللغة والأدب، أبا فهر الشيخ (محمود شاكر) أن يقوم مقام الحكم المنصف، وكدأبه دوما، زاد عن حياض العربية وأهلها .

فقال معلقا على هذا القول الذي ذكره ذاك الأديب المنحاز للعقاد:" والكلمة الأولى من كلمتي، إنما تدور رحاها ورحى (بغضائه) للرافعي - أو كما قال - عن نفي الإنسانية عن ذلك الإنسان (رحمة الله عليه)، وخلوه من النفس، وفقدانه الطبع، وفقره إلى الأدب النفسي - وما إلى ذلك من لفظ قد ضل عنه معناه، وتهافت عليه حده - وأنه كان (رحمة الله عليه) ذكيا قوي الذهن، ولكنه كان مغلقا من ناحية الطبع والأريحية، وأن أدبه كان أدب الذهن لا أدب الطبع، فيه اللمحات الذهنية الخاطفة، واللفتات العقلية القوية، ولكن الذي ينقصها أنه ليس وراءها ذخيرة نفسية، ولا طبيعة حية، إلى غير ذلك مما حفظه الأستاذ من شوارد اللفظ، وأوابد المعاني. وأسمع جعجعة ولا أرى طحنا، وأنا كنت أتنظر بالأستاذ أن يأتي في كلمته الثانية بشيء من النقد ينسي إليه ما قدم في الأولى من سوء العبارة وشنعة اللفظ في ذكر الرافعي الميت؛ ولكن خاب الفأل، وجاءت الثانية تدل من يغفل عن الدلالة البينة، على أن هذا الأستاذ الجليل لا يزال يستملي ما يكتب من بغضائه. "
فأوضح شيخ العربية أبو فهر أنه كان ينتظر من ذلك الناقد دليلا - غير بغضه للرافعي - على ما اتهمه به، أو يكون عنده نقد علمي مبني على أصول على ما قرأ للرجل، لكنه ما كان يملك إلا الإحن [1]

[1] - الغل في الصدر (لسان العرب)

وهنا بيت القصيد، فكثير من الناس لا يقرؤون، والقارئ منهم بين اثنين؛ فقارئ محقق مدقق، وناقد ببصيرة وعلم، وآخر عالة على غيره في الرأي ليس عنده ملكة الترجيح، ولم يرق علمه و لم تسم معارفه إلى الجرح والتعديل، أو أنه صاحب هوى وغل ينطق عنهما، وهذا تراه في كثير من أصحاب الفن الواحد، فمن ذلك ما ذكره الطوسي قال: وجه بي أبي إلى ابن الأعرابي لأقرأ عليه أشعارا، وكنت معجبا بأبي تمام. فقرأت عليه من أشعار هذيل، ثم قرأت أرجوزة أبي تمام على أنها لبعض شعراء هذيل:

وعاذل عذلته في عذلهِ ... فظن أني جاهل من جهلهِ

حتى أتمتتها، فقال: اكتب لي هذه، فكتبتها له، ثم قلت: أحسنة هي؟ قال: ما سمعت بأحسن منها! قلت أنها لأبي تمام! فقال: خرق خرق! أي مزق، مزق!

فهذا الذي استطاب شعر أبي تمام حتى أنه طلب من الرجل أن يكتبه له في رقعة يحفظها، ما لبث أن تحول هذا الإعجاب وذلك الإنصاف إلى تنكر وجحود وعدم إنصاف.

فترى آفة المثقفين النقل عن شيخوهم في الفن الذي يتعلمون، دون أن يكون لهم بحث وتمحيص وتدقيق، أو حتى قراءة متأنية متدبرة، أو هوى منعهم من إظهار الحق.

و إذا تخيلنا أحد المنقودين أو المجروحين، يتوجه بالكلام لمن يشتد في أمره، ستراه يقول له:" هل حقا تقرأ ما أكتب؟!"

٦٢: كن إماماً

كان من دعاء الصالحين (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤: الفرقان(
والإمامة نوعان، فرق الله (تعالى) بينهما في كتابه، فقال:" وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣: الأنبياء)

وقال تعالى:" وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢: التوبة)
والإمامة التي أريد بيانها هنا بالطبع إمامة الهدى.

واختلف أهل التأويل في تأويل (إماما)، فقال بعضهم: معناها: "اجعلنا أئمة يَقْتَدِي بنا من بعدنا."
وقال بعضهم:" أئمة نقتدي بمن قبلنا، ونكون أئمة لمن بعدنا."
قال أبو جعفر:" وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: واجعلنا للمتقين الذين يتقون معاصيك، ويخافون عقابك إماما يأتمون بنا في الخيرات، لأنهم إنما سألوا ربهم أن يجعلهم للمتقين أئمة ولم يسألوه أن يجعل المتقين لهم إماما."

والإمامة لا تكون في الدين وحسب، فالله لم يخلق الناس كلهم علماء، وكذا لم يخلقهم كلهم أغنياء، أو أقوياء... فالناس مختلفون اختلاف الفرقد والرماد، فمنهم من يسره الله لعلم شرعي، ومنهم من يسره الله لحرفة يدوية، ومنهم من غلب عليه الأدب، ومنهم من اتقن الحساب

والجبر، ومنهم من برع في الطب، ومنهم من لا يحسن إلا الرعي، فالبشر في هذا على ألوان شتى .

والإمام في كل درب هو من يقتدى به، وهو سباق لكل خير ونفع، لا يكونن إمعة يسير مع الناس حيث ساروا، ويلقى شيصه حيث ألقوا .
وهو مفرِّد، كأولئك المفردون الذين مدحهم خير البرية بقوله:" سبق المفردون"
وقيل، أيِ المُفَرِّدونَ أَنفُسَهم عن أَقرانِهم، المُميِّزونَ أَحوالَهم عن إِخوانِهم بنَيلِ الزُّلفَى والعُروجِ إِلى الدَّرجاتِ العُلى؛ لأَنَّهم جَعَلوا رَبَّهم فَردًا بالذِّكرِ، وتَركوا ذِكرَ ما سِواه.
وقيل المُفرِّدونَ هُمُ الَّذين هَلك أَقرانُهم وانْفَردوا عَنْهم فَبَقوا يَذكُرون اللهَ تَعالى.
فكن مثالا يحتذى به في كل فن، فخذ بأقوى الأسباب، فكن كذي القرنين لما آتاه الله الأسباب أخذ بها واتبعها، حتى صار له ملكا وفضلا وعلما وذكرا، وصار إماما من أئمة الدنيا.

فكن إماما كالأنبياء تشبها، كانوا أئمة لأقوامهم، بل للدنيا بأسرها .

كن إماما بالثبات على الأصول كما فعل الأئمة الأعلام، كأحمد والشافعي ومالك وأبي حنيفة وابن حزم والليث و سفيان وغيرهم .
كن إماما في فنك، كالعلماء الذين برعوا في الطب وفي الهندسة وفي العمارة وفي التربية وفي كل فن فكانوا ذخيرة لأوطانهم.

وللإمامة شرط إن لم تحققه لن تدرك تلك المنزلة المباركة، وهو شرط الله القائل في كتابه:"

وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ" (٢٤: السجدة)

الصبر والإيمان، الصبر على كل شدة وضيق، واليقين في نصر الله ووعده.
ومن شروط الإمامة علو الهمة، وقد سئل الإمام العلم المفرد، الإمام البخاري عن سبب نبوغه وحفظه العجيب، وفقهه الفريد، قال:" إنها نهمة الرجل ومداومة النظر" يقصد بذلك علو الهمة والصبر.

ومن بركة الإمامة في كل ما ينفع الناس، أنك إن كنت إمام هدى ونفع في محفل أو فن، وتبعك الناس على هداك، أو انتفعوا بما أرشدهم، كان لك مثل أجورهم عند الله، فتظل مأجورا مثابا حتى بعد موتك، ومن بركة الإمامة الدخول في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله، فكن إمام هدى.

٦٣: الإسقاط

كان مما أفضله من مواد الدراسة في كلية التربية مادة الصحة النفسية، وكان يسترعني دوما مبحث رائع يسمى (الحيل الدفاعية) وهو مبحث يتحدث عما يلجأ إليه الإنسان عند التعرض للخطر، أو الوقوع في موقف محرج؛ ومن أمثال هذه الحيل التبرير، والقلق وغيرها .

ولكن أكثر هذه الحيل الدفاعية إثارة للانتباه و حثا على التفكر والتدبر في حال النفس البشرية، هو ما يسمى اصطلاحا (بالإسقاط)، وحتى نفهم المعنى، دعوني أضرب لكم المثل .
فلو أن إنسانا يطرق مسمارا بالمطرقة، وأخطأ وهو يدق ونزلت المطرقة على إصبعه، فأول ما يفعله أنه يصب جام غضبه على المطرقة، فيلقيها في الأرض غضبا وقد يسبها أو يحاول كسرها، بالرغم أن المطرقة ليس لها ذنب من قريب أو بعيد، والفعل فعله، والخطأ خطؤه.
فهنا قام صاحبنا بإسقاط خطأه على غيره، وحمل الأمر ما لا يطيق، فرمى غيره بدائه وانسل.
هل بدأت تتخيل مواقف مرت عليك في حياتك الآن؟ أم هل قمت باستحضار بعض المواقف المشابهة لأشخاص تعرفهم جيدا؟

نعم يحدث هذا كثيرا في حياتنا، يسميه علماء النفس الإسقاط، ويسميه آخرون الظلم، ويسميه غيرهم الفشل. على كل حال، ما اقترفته يداك وما أحدثته معلوم عند رب العباد، مرقوم في كتاب معلوم .
ولعلك قدمت كل الأعذار واتهمت كل الناس فيما آل إليه حالك، وفيما فعلت من أخطاء و سقطات .

فكثير ممن زل و سقط وزاغ يقدم الأعذار والمسببات التى جعلته يقدم على كذا وكذا، والله (تعالى) قال:" بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥) (١٤:١٥ القيامة) أي: هو شهيد على نفسه، عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر[١]

فهذا الذي يسرق يتعذر بضيق الحال، وتلك التي تتهتك وتتمايل أمام خلق الله طلبا للرزق، تتذرع بأنها لم تجد غير ذلك عملا تتقوت منه، وآخر تاجر في كل مسكر ومغيب لغاية خبيثة في نفس أخيث، ورابع اتخذ الربا له تجارة، وأخرى لم تتق الله في بيتها وزوجها، وغيرهم كُثر اتخذوا الذنوب لهم شعارا يتذرعون بكل سبب ليزينوا لأنفسهم سوء أعمالهم.

كل أولئك وغيرهم وجدوا في أنفسهم الإسقاط المناسب على شخص أو ظرف أو حتى على المجتمع؛ ليفعلوا ما عقدت به نواياهم المعطوبة، وقصدهم غير المحمود.

لسان حالهم كتلك المعادن، فكلها تدخل التنور منها ما ينقى عنه الخبث فيخرج ذهبا خالصا، ومنها ما يتحول ويتبدل، ومنها ما يذوب، ومنها ما يتبخر، ومنها ما يتحول إلى رماد.

فاعدل ولا تسقط أخطاءك على غيرك، واستقم على أمر الله، وكن صادقا مع الله حتى يصدقك الله، فأول منازل الأوبة والرجوع والصلاح هي الاعتراف بالخطأ والذنب.

---

١ - تفسير بن كثير

٦٤: اجعل أحلامك عظيمة

عن معاذ بن جبل (رضي الله عنه) قال، قال (رسول الله (صلى الله عليه وسلم):" ذرِ النَّاسَ يَعمَلونَ، فإنَّ الجنَّةَ مائةُ درجةٍ، ما بينَ كلِّ درجتينِ كما بينَ السَّماءِ والأرضِ، والفِردَوْسُ أعلاها درَجةً وأوسَطُها، وفَوقَها عرشُ الرَّحْمنِ، ومِنها تُفَجَّرُ أنْهارُ الجنَّةِ، فإذا سألتُمُ اللَّهَ فاسألوهُ الفِردَوسَ."[١]

فسبحان من بيده خزائن السماوات والأرض القائل في كتابه:" قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦: آل عمران)

والقائل (عزوجل):" فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧ آل عمران)

فكان من العقيدة الراسخة كرم الله البالغ في كل شيء الذي بلغ المنتهى و الكامل و التمام .
ونحن الموحدين نطمع فيما عند الله بكرمه ومنِّه وفضله، فهو العاطي الوهاب الرزاق المنان.

---

[١] - رواه السيوطي في الجامع الصغير (٤٣٠٦)، والترمذي (٢٥٣١)

فاجعل أحلامك تتناسب مع اعتقادك بعظمة ربك، ولا تستبعدها، فوالله إن الله لا يعزب عليه شيء في الأرض ولا في السماء.
ولكن كن موقنًا مصدقا كما كان أصحاب النبي الذين صدقوا وعد الله .
فانظر - يرحمك الله - كيف صدقوا الله، فصدقهم الله، بعد أن كان الرجل فيهم يستخفي بدينه ويخشى إعلان اسلامه، ويترك أرضه وماله؛ فكانوا إذا مروا على مشركي قريش آنذاك تغامز أولئك عليهم، فقالوا لمزًا:" جاءكم ملوك العرب." ولكن كانت آمالهم في الله لا تنقطع، و يقينهم في وعده لا يتغير . فصاروا بفضل من الله وبركة ملوكا وسادة ومعلمين للدنيا.

فهذا سراقة بن مالك (رضي الله عنه) لما قال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم):" رد عنا ولك سواري كسرى" وهو أعرابي من بني مدلج .
فلما كانت السنة السادسة عشرة من الهجرة في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لما وردته غنائم موقعة القادسية، وكان من ضمن الغنائم (سواري كسرى) فقال عمر (رضي الله عنه):" أين سراقة بن مالك الأشجعي)، فقال سراقة:" ها أنا ذا يا أمير المؤمنين " فقام إليه عمر حتى ألبسه السوارين، ثم قال باكيا:" الحمد لله الذى أرى عمر بن الخطاب أعرابيا من بني مدلج يلبس سواري كسرى "
فهؤلاء هم الصحابة رضوان الله عليهم، ما كان أحدهم يأمن على نفسه لكن هممهم وأحلامهم كانت عظيمة حتى منض الله عليهم بمُلك ملوك الدنيا تحت أرجلهم.
وعلى السالك إلى الله (تعالى) أن يطمع في فضل الله وبركاته، ويجعل ما يتمناه وما يحلم به عظيما فما عند الله هو خزائن السماوات والأرض التي لا تنضب، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال:" بيْنَما أيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيانًا، خَرَّ عليه رِجْلُ جَرادٍ مِن

ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ، فَناداهُ رَبُّهُ يا أيُّوبُ أَلَمْ أكُنْ أغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى ، قالَ بَلَى يا رَبِّ، ولَكِنْ لا غِنَى لي عن بَرَكَتِكَ." [1]

فأحلامهم وآمالهم لم تكن دنيا، ومقصدهم لم يكن سرابا، وظنهم بالله يقينا ،فكن ذا أمل في الله بالغ، وكن ذا همة وعزيمة حتى تجعل أحلامك عظيمة.

[1] - رواه البخاري (٣٣٩١)

٦٥: كن نسخة منك

قال تعالى:" وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " (٧٨: النحل)
وقال تعالى:" إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ " (٤: الليل)
فجعل لنا الله الوسيلة المُتَوصَّل بها إلى العلم والفقه، وفضلنا بآية العقل العاملة المتدبرة، ولم يكلف (سبحانه) من لا عقل له، وخفف التكاليف عن أصحاب الأعذار ممن فقد وسيلة للعلم، أو القيام بالواجبات .
والله مع هذا كله يعلم أن الناس مختلفون كل الاختلاف، تتابين أفهامهم و هممهم، ولم يكلف الله تعالى نفسًا إلا وسعها .
وجعل الله من الأصول العامة للشريعة (المشقة تجلب التيسير) فصار هذا أصلا عظيما من أصول الإسلام.
وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) لا يكلف أحدا من أصحابه قدرا لا يطيقه، لأنه يعلم أن الله خلق الناس مختلفين، بقدرات وطاقات مختلفة.
وعلى هذا الأصل العظيم كن نفسك ولا تستنسخ شخصًا آخرًا تحاكي قوله وفعله وعقله، بل اعلم أن الله اختص كل مخلوق في هذا الكون بصفة وميزة وخصيصة تميزه عن كل الخلق، ولكن الإنسان نفسه هو الذي قصرت به الهمة والتدبر حتى يفهم ما اختصه الله (تعالى) به .
فكل ما عليك هو استكشاف جوانب أخرى في نفسك، هي موجودة فيك فعلا، ولكنك لم تحرك ساكنا لفهم بعض ما ميزك الله به، ولما كان الناس في الغالب في هذا الزمان موجَّهين توجيها غير طيب القصد؛ ليصدقوا أنهم لا يستطيعون هذا أو ذاك، أو أن قدراتهم لا تؤهلهم لفعل أمر محدد، أو أنهم غير مؤهلين لأمر ما، أو أنهم لا يستحقون شيئا ما،

أو أنه أُخْفِي عنهم حقائق وثوابت، لأمر أو لغاية _ كان من الضروري بيان الأمر لأصحاب النهى والألباب، فوجب على كل ذي عقل، أن يبذل الوسع في التعلم والعلم، لأنه السبيل الوحيد الذي سينير له الطريق، ويجعله يعرف حقيقة نفسه.

فكلما ابتعد المرء عن مصدر الضوء كان هذا سبيل الإيغال في الظلام، و مصدر الضوء في حياتنا هو وحي ربنا، ذلك العلم الخالص اليقيني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ من قرآن وسنة.

فتعلم حتى تعلم حقيقة نفسك، ولا تضطر إلى تقليد نسخ مزيفة من بني البشر، تعلم حتى تكون نسخة منك .

واعلم في الأخير أنك لو حاولت جعل نفسك نسخة من الآخرين لصرت تائها متخبطا لا تدري أنت هو ذلك الذي تعرفه من قديم؟! أم أنك أجزاء متفرقة جمعوها كالآلات ثم ركبوا فيها برنامجا لكي يشغلها فهي تنفذ أوامر وضعها فيها الآخرون، وتستنسخ نسخا لِمَا رأته وليس لما فهمته وتعلمته ثم شيدته صرحا متينا من العلم والعمل.

٦٦: احذر أن تتحول إلى ريمورا!

الريمورا من الأسماك البحرية التي تنتشر في المياه البحرية المدارية، و تستوطن أيضا المحيطات الاستوائية المفتوحة، ولكن وجدت أسماك الريمورا في بعض الأحيان في المياه المعتدلة أو الساحلية والبحر الأسود. تتحوّل زعنفتها الظهرية الأولى التي تقع في مقدّمة الرأس إلى ممصّات تساعدها على الالتصاق بسمكة أو كائن بحري آخر. يتراوح طولها بين ١٨ سنتيمترا وحتى متر واحد، وتتميّز جميعها بجسمها النحيل والطويل وبحراشفها الدائرية الصغيرة، لكن أكثر ما يميزها الممص الذي تستخدمه لتثبيت نفسها على الأسماك والحيتان والسلاحف وغيرها.

تعيش صغارها حرة ولا تلتصق بالأجسام العائمة في الماء سواء الميتة أو الحية منها قبل أن يصل طولها إلى ٤٠ أو ٨٠ مم، و تعد سمكة القرش أكثر الأحياء البحرية التي تلتصق بها الريمورا؛ لهذا يطلق عليها الكثيرون (قملة القرش)، فهي تلتصق بممصاتها بالقرش أو الحيتان حتى تنتفع وتتغذى على بقايا ما تفترسه المفترسات الضخمة في المحيط، وفي نفس الوقت تساعدها على تنظيف الفوضى التي تحدثها الأسماك العملاقة عند الافتراس.

هذا عن سمكة الريمورا، فماذا عن الكائن الذي يشبهها؟! أما حدثتكم عن؟! أحسبني لما أفعل، ولكني الآن محدثكم عن خبر الكائن الريمورا،أو الإنسان الريمورا، فهو يختلف عنها اختلافا كليا ويتفق أيضا اتفاقا كليا، ونحن إذا عقدنا مقارنة بينهما في أوجه الشبه والاختلاف لوجدنا الآتي:

أولا: أوجه الاختلاف، يختلف الكائن عن السمكة في البيئة، وطبيعة التغذية، والشكل؛ فهو لا يقتصر في وجوده على البيئة البحرية، فهو يتواجد في كل البيئات بحرية أو صحراوية، ريفية أو مدنية، بدوية أو

حضرية، وكذلك ينتشر انتشارا كبيرا وواسعا في مؤسسات المال والأعمال والسلطة .
ولا يقتصر غذاؤه على بقايا الأسماك كالريمورا، لكنه يتغذى على كل ما يصل إلى فمه بداية من الدماء حتى الروث، ولا يحدث معه فارق أن كان ما يتغذى عليه ميتا أم حيا، صغيرا أم كبيرا، قويا أم ضعيفا.
أما من ناحية الشكل فهو هلامي الشكل، ويتخذ أشكالا عديدة وألوانا مختلفة، تراه أحيانا في صورة حمل وديع، وأحيانا في صورة وحش مخيف، وأحيانا أخرى في صورة شخص وسيم أنيق يلبس حلة غالية الثمن، ورابطة عنق رائعة، وبدت عليه علامات الثراء والنعمة .

أما أوجه الشبه فتتلخص أن كلا السمكة والكائن لهما ممصات قوية تستخدم للاتصاق والتثبت، وكلاهما لا يعتمد على نفسه فقط، فدائما ما يسعى إلى الوقوف في ظل الآخرين، والانتفاع بكل وسيلة ممكنة من عملهم، وكلاهما أيضا مرتبط وجوده بوجود غيره، وعمله بعمل غيره، فإن عَدِمَ من من يراعيه ويحوطه ويوفر له بيئة النمو لهلك.

بعد هذا العرض، أحب أن أتوجه بسؤال لأشخاصكم الكريمة، ما أخبار الكائن الريمورا في حياتكم؟

٦٧: أسطورة أبو رجل مسلوخة، وتدمير الشخصية.

(نام وإلا هجيب لك أبو رجل مسلوخة) عبارة يكاد يكون جميعنا سمعها، أو سمع ما يشبهها، ألفاظ معدودة، ومن ورائها كوارث غير محدودة.
ينسى أو يتناسى الآباء أحيانا، في ظل ضغوط الحياة أن كلهم راع، وكلهم مسؤول عن رعيته. تخرج منهما عبارات أو أفعال لا يلقون لها بالا، لكنها أشد أثرا من ضرب الحسام .

إن حق الأبوة أن يعد الأب ابنه لزمان غير زمانه، وأن يقيمه على أمر الله حتى يسلمه للحياة دوحا مثمرا ثابتا ضاربا بجذوره بعيدا في أرض الفضيلة والأخلاق، فإن فرط أو قصر فقد جعله كريشة في مهب الريح، أو كقارب صغير في بحر لجي يغشاه موج كالجبال.
لا أحد منا ينكر بعض الأخطاء في تربية الأبناء، ولكن منها ما قد يمر ويغتفر، ومنها ما قد يدمر ولا يُزَال أثره بسهولة.
وكان من العبارات المشهورة المستخدمة في تخويف الأطفال أو ترهيبهم، تلك العبارات من أمثال (نام وإلا هجيب لك أبو رجل مسلوخة) أو (السلعوة) أو (الرجل أبو شوال) أو ما يشبهها .
كلمات معدودة تخرج من الأب أو الأم بلا تفكر أحيانا، يحسبها ستفي بالغرض وتحل المشكلة .
هي بالفعل حلت مشكلة مؤقتة، لتفتح بابا لكارثة قادمة .

إن هذه الكلمات أشبه بمن اعتاد المسكنات، دون البحث عن أصل الألم ومصدره فيعالجه، كل ما يهمه هو عدم شعور بألم مؤقت، بينما هناك داء عضال يستمكن من الجسد يوما بعد يوم .
إن كلماتك التي لا تراقبها اليوم تزرع حنظلا وشوكا، فإذا جئت تسلك نفس الطريق بعد سنوات آذاك أو منعك المرور.
إن بذور الخوف التي تنثرها عشواءً في صدر أبنائك، ستنبت نباتا ضارا متسلقا، لن يسمح لأي نبتة أخرى تنمو معه .
تلك البذور التي تجعل كل سلوكه خوفا من مجهول خرافي حتى يعتاد هذا الأمر، فيصبح كل مجهول لديه (أبو رجل مسلوخة) أو (أمنا الغولة) ويصبح الخوف خُلُقَه دون أن يدري حقيقة ما يخاف منه.
عزيزي الأب، عزيزتي الأم كل لفظ مكتوب محسوب وإن لم تُلقِ له بالا، فاحذر ذلك الشرر المتطاير، فأكبر النار من مستصغر الشرر .
وأقولها بملء الفم، كم من نباتة كان يرجى ثمارهم، وَأَدَها الآباء دون قصد منهم . فلا ترح نفسك لتتعب أجيالا بعدك.

٦٨: كن عزيزا، وما قُدِّرَ لك يأتي.

عندما تطرق أذن أحدنا بعض العبارات وتعرف أنها قد وجدت طريقها إلى القلب مباشرة، فاستقرت فيه استقرارا، وصارت تنتقل منه إلى اللسان تجري مجرى الحكمة، وتسير مسرى المثل السائر _ تعلم أنها كلمات من مشكاة النبوة، ومن بركات السلف الصالح.

وكان مما وفقني الله له أن قيد الله لي من علمني، فقال لي يوما ناصحا:" يا بني كن عزيزًا وما قُدِّرَ لك يأتي، واطلب العلم فإنك إن عشت لن تُعْدَمَ قوتًا، وإن متَّ لن تُعْدَمَ قبرًا"

وكانت هذه العبارة عندي منهجا، وأسلوب حياة بعد ذلك، وكلما تأملتها، وجدت فيها من الخير ما لا يعلمه إلا الله.

ولا أحسبني انتفعت بنصيحة أكثر منها في حياتي، فكنت كلما عنَّ لي موقف، أو طرأ لي ما لم يكن في تدبيري وتقديري، كان أول ما أراه نصب عيني تلك النصيحة المباركة.

ولقد رأيت من بركتها احتراما وتقديرا من العدو قبل الصديق، ومن المبغض قبل المحب.

ولقد مدح الله عباده بمثل هذا، فقال (تعالى): "وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ" (المنافقون:٨)، وقال (عزوجل):" وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ" (آل عمران: ١٣٩) فجعل الله (تعالى) عزة المرء في إيمانه وعمله وما وقر في قلبه من توحيد واتباع.

وما كان من العبد من قلق وخوف من تبعة ونتيجة هذه العزة فقد كفل الله أنه سينجيه ويعلي قدره مهما كانت العواقب، فقال (تعالى):" قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ

مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (آل عمران: ٢٦)

وهذا الفاروق قد ضرب المثل في أمر العزة وكيفيتها ووجه مدحها، فقد روى الحاكم في مستدركه عن طارق بن شهاب قال: خرج عمر بن الخطاب إلى الشام ومعنا أبو عبيدة بن الجراح فأتوا على مخاضة وعمر على ناقة له، فنزل عنها وخلع خفيه فوضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة، فقال أبو عبيد: يا أمير المؤمنين أأنت تفعل هذا؛ تخلع خفيك وتضعهما على عاتقك، وتأخذ بزمام ناقتك، وتخوض بها المخاضة؟ ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك، فقال عمر: أوه لو يقول ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالا لأمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)نا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله" هذا حديث صحيح على شرط الشيخين

فجعل رضوان الله عليه عزة المرء بما تمسك واستمسك به من الديانة، وبما وقر في القلب من اليقين في أمر الله ودينه. وليست العزة مذمومة قط إلا في موضع واحد بيَّنه الله (تعالى):" وإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ " (البقرة: ٢٠٦)

وقدر الله محتوم سائر على كل الخلق، فلا راد لقدر الله، فكن حكيما واعزز نفسك ولا تخشى شيئا فإنه القدر، وأمر الله كله خير، ولا ترضى المذلة في أمر دينك أو عرضك أو كرامتك، فإن القدر نافذ، الذل عار وشنار فلا تطلبه لنفسك.

٦٩: لماذا لا تبدأ يومك بعد صلاة الفجر ؟

سؤال طرحته على نفسي مرارا وتكرارا، لماذا لا تبدأ الأمة يومها بعد صلاة الفجر؟! ونحن أولى الأمم بهذا وأحق .
إن كلمات المستشرق والسياسي الألماني المسلم (مراد هوفمان) هي خير مقدمة لسطوري الآتية، فقد قال يوما:" أيامي تتشكل أكثر فأكثر تبعا لمواقيت الصلاة، وليس تبعا للساعة التي تسبب القلق و التوتر."

قالها الرجل وهو يعلم قدر كل تكليف وترتيب رباني لحياتنا، فهو الذي قضى أكثر من ٤٩ عاما على غير الإسلام، و قد رأى البون الشاسع بين من فوض أمره إلى الله في ترتيب حياته، وبين من اجتهد اجتهادا عظيما في تنظيم وقته.
ونعرج على عالم الرياضيات الأشهر، (د. جيفري لانج) الذي تحول للإسلام بعد أن كان من أشهر ملحدي العالم، فيتحدث عن صلاة الفجر، فيقول:" إن صلاة الفجر بالنسبة لي هي إحدى أجمل الشعائر الإسلامية وأكثرها إثارة، هناك شيء خفي في النهوض ليلا - بينما الجميع نائم - لتسمع (إيقاعات) القرآن تملأ سكون الليل، تشعر كأنك تغادر هذا العالم، وتسافر مع الملائكة لتمجد الله بالمديح، عند الفجر.
فانظر في كلام الرجلين من ناحية تنظيم الحياة وبركتها، تستشعر مزيجا فريدا من الإيمان والبركة والنظام .
وتعالى معي في رحلة نبوية أخرى نوضح فيها البركة والنظام في صلاة الفجر، من كلام خير البشر (صلى الله عليه وسلم)، فعن جَرِيرِ بنِ عبدِ اللهِ (رَضِيَ اللهُ عَنْه) قال كنَّا مع النبيِّ (صلَّى اللهُ عليه وسلَّم) فنَظَرَ إلى القمرِ ليلةً - يعني: البدرَ - فقال: إنَّكم ستَرَوْنَ ربَّكم كما تَرَوْنَ هذا القمرَ، لا تُضامُونَ في رُؤيتِه؛ فإنِ استطعتُم أنْ لا تُغلَبوا على صلاةٍ قبلَ طُلوعِ

الشَّمسِ، وقبلَ غُروبها فافْعلوا، ثم قرأ: وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ[ق: ٣٩] [١]
فكان من أسباب رؤية الله (تعالى) يوم القيامة صلاة الفجر.

وعن صَخْرٍ الغَامِدِيِّ. رضي الله عنه. عن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال:" اللهمَّ بارك لأُمتي في بُكُورها"، وكان إذا بعث سَرِيَّةً أو جيشًا؛ بعثهم من أول النهار. وكان صخر رجلًا تاجرًا، فكان يبعث تجارته من أول النهار، فَأثرَى وكَثُرَ ماله.
قال الألباني في تخريج سنن أبي داود:حديث صحيح، وحسنه الترمذي، وصححه ابن حبان، وقوّاه ابن عبد البر، والمنذري، والحافظ ابن حجر، والسخاوي.
ولن أزيد في أحاديث الباب عن هذين الحديثين، ويكفيك هذا السر العظيم في وقت الفجر، والذي اختصه الله أيضا بقوله:"
أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨: الإسراء)
عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر " . ويقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ("وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا" .[٢]
وقال ابن المديني (رحمه الله)، قيل الشعبي:" من أين لك هذا العلم كله؟ " قال:" بنفي الاعتماد _ يعني اعتماده على نفسه أو غيره دون

---

١ - رواه البخاري (٥٥٤)
٢ - تفسير ابن كثير

التوكل على الله _ والسير في البلاد، وصبر كصبر الحمار، وبكور كبكور الغراب. [1]

فتأمل -يرحمك الله- مرة بعد مرة ما جعله الله من بركة في طلب المعايش وتحصيل العلم والفضل في بكور النهار _ أي بعد صلاة الفجر.

وقد حدثني كثير من الزملاء الذين سافروا إلى بلاد غير عربية، أن غالب الموظفين يبدأون يومهم منذ الخامسة صباحا، بل إن بعض الدول غير مسموح بها السهر بعد الساعة التاسعة في أيام العمل الرسمية. ولعل العديد من الدراسات العلمية، التي أجريت على ما تفرزه خلايا الجسم في وقت معين من اليوم وهو وقت الفجر، ولعل ها ما جعل القوم ينحون هذا النحو، وقد تكفي هه الدراسات لمن ينظر للأمر نظرة صحية .

أسباب كثيرة اجتمعت لو تمعن الإنسان فيها لرأي أن من باب ورضا الله أولا وأخيرا، ومن باب الحكمة والبركة والصحة أن يبدأ يومه بعد الفجر، ينال الثواب والعافية والبركة .

---

١ - سير أعلام النبلاء

٧٠: إنما جنتي في صدري

أثر عن شيخ الإسلام ابن تيميّة _ رحمه الله_ في [الوابل الصيب، كما نقله عنه الحافظ ابن رجب الحنبلي في ذيل طبقات الحنابلة ٤٠٢/٢][أنه قال مرة لتلميذه العلم الفذ، (ابن القيم): " ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني"

وكل ما أحاول الذهاب إليه هو تأمل هذه العبارات مرارا وتكرارا، ثم سؤال النفس، هل اختبر أحد منا مثل هذا المعنى من قبل؟ هل عاش أحدنا لحظات الأنس بالله ؟ هل مس الإيمان شغاف قلبه من قبل، فهو يتحلى من هذا العسل المصفى ؟ هل عاش في جنة أرضية أنبتها الله له دون الناس؟هل... وهل...؟ وهل...؟

إنما جنة المسلم في الدنيا هي قلبه، يزرعها الله له حقولا مُعْتِمة، فيها رياض من ألوان النبات وريحه وثمره، وينعه، وبهجته.

إن قلب المسلم ذلك الكرم العامر هو أثمن ما يملكه، وإن الشيطان ذلك المتكبر المبلس يأبى إلا القلب، فهو يعرف قدره .

وإن للقلب قول وعمل؛ فقول القلب التصديق، وعمله أمور شتى كالتوكل والإنابة والخوف والرجاء والمحبة والأنس بالله .

فاجعل لك غرسا من كل قول أو عمل يثمر لك ثمارًا كأنها من الجنة، لا يتذوقها أحد سواك، ولا ينعم بها إلا أنت.

ذلك العالم الذي يراك محروما بائسا غير مستمتع بنعم الله، تخلو حياتك من اللهو ومن ملذات الحياة،

ذلك العالم الذي يرى ظاهر حياتك محض مشقة وحزن وعبوس، هو عالم موهوم محروم، ولو أراد أحد منهم أن يعرف الحقيقة فأتعب نفسه بضع خطوات ليعبر السور بينك وبينه لاكتشف حجم وهمه

وحرمانه وترديه في غيابة جب الشهوات والأهواء، وأدرك أكبر خدعة خدعه بها من يواليه من شياطين الإنس والجن.
أيها السالك إلى الله، أيها التقي الذي اخترت الدرب معتدلا مستقيما، أكثر من غرس تلك الجنة في صدرك، وأعرض عنهم، فحسبك الله .
وقد قيل:" المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى والمأسور من أسره هواه"، فكن من أولئك النفر الصالحون الذين وسعتهم هذه الآية المباركة:" قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨: يونس)
ومن عاش جنة الدنيا هو لا محالة سيحيا في جنة الآخرة، اللهم اجعلنا ممن عاش الجنتين و حصل السعادتين.

٧١: روح معذبة

تلك الروح التي غمست وجهها في مساحيق التجميل، فترى ألوان قوس المطر على محياها، لم تضعها لزوج قريب، بل لغريب مريب، تستهوى كل ذي مرض في القلب.

- تلك الروح التي تنفث دخانا أزرقا داخل قلبها فتطلق سحبا رمادية تحجب عنها رؤية الطريق .

- تلك الروح التي أتقنت رسم البسمة على الوجه من الوتين إلى الوتين لكل الناس إلا لتلك التي تتمنى رضاها، وأولئك الذين يتخذونها قدوة من زوجة وولد وإخوة وعائلة.

- تلك الروح التي استمتعت _ جسدا _ بكل ما ابتدعه البشر من ألوان المتع نهارا وليلا حتى إذا دنا لقياه ربه في صلاة؛ تقر بها روحه وتصفو بها نفسه نفر كالحمر تفر من قسورة.

- تلك الروح التي حلفت كل يمين غموس، آلت على الله ما هو محض زور وكذب تريد تحصيل مال تكنزه، وتستعلى به على الخلق.

- تلك الروح (المتقملة) تأبى إلا العيش على مص الفِكَرِ من رؤوس الخلق كالقمل، فهي لا تعيش إلا على سرقة كدَّ الخلق، ولباب عقولهم.

- تلك الروح اختارت غياب العقل على حضوره، فهي لا تهوى حضرة العظماء، أبت إلا مخادنة المخدر أو الخمر، فخبثت و غصت.

- تلك الروح التي نسيت رحما آواها، وصدرا أرضعها، وعينا حرستها، فهي تملأ فاها بأفٍ، وتشيح بيد كانت تُقَبِّلُ في المهد .

- تلك الروح التي تتبعت عورات الناس، فلا نقيصة إلا في غيره، ولا كمال إلا لنفسه.

- تلك الروح التي اتخذت دين الله ستارًا تستتر به خلف أغراضها، فأنى لها الستر من رب العالمين يوم يبعثون.

- تلك الروح التي علقت عينها وقلبها بما في يد الخلق مما أنعم الله عليهم، تريد إن استطاعت رد أمر الله وتقديره.
- تلك الروح المنانة التي ما تعطي إلا بسمٍّ يفري الأكباد، ويكسر النفوس، ويمحو المعروف.
- تلك الروح التي استعبدها الثوب الحسن، والنعل الحسن، والمسكن الحسن، لا تأخذ قدرها ولا تشعر بقيمتها إلا بنوع ما تلبس، و مكان ما تسكن.
- تلك الروح اللاهثة وراء المال، لا تدري من أي باب حصلته، ولا أي حرمة انتهكت لتصل إليه، فحالها كالشارب من ماء البحر، كلما ازداد شربا ازداد عطشا.
- تلك الروح التي سنت قلمها لتكتب في كل حدب وصوب، لم تبال إلا الشهرة.
- تلك الروح التي تاجرت بالجسد، فهي تبدي وتخفي و تشف وتجسد، فصارت لحم على وضم، فأصبحت مطمع الذئاب والذباب.
- تلك الروح التي سرها فواجع الناس ومصابهم، فلا ترقب في الناس دينا، ولا خلقا.
- تلك الروح التي عملت لغير الله، فهي تراعي كل عين، إلا عين الله الناظرة إليها، وهي لا تخلو منها.
- تلك الروح التي جافت سنة النبي، ادعت الحضارة والمدنية فهي تأبى تحت هذه الدعاوى إلا مخالفة الهدي.
- تلك الروح التي احتلت واستعمرت الشعوب، جاءوا كأمواج الوباء، يأكلون الأخضر واليابس، ما دفعهم إلا حقدهم القديم وأنفسهم الواهلة.

٧٢: عقلي العزيز .. قلبي الغالي.

عقلي العزيز، قلبي الغالي، رسالة أحببت أن أتوجه بها إليكما، وفضلت أن تكون مكتوبة، حتى تطالعاها، كلما طال بكما الزمان، أو كلما نسيتما، ورسالتي إليكما هي:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فأنا محبكما ومقدركما المخلص الأمين، أنتما أغلى وأعز من عرفت وصحبت وأحببت في هذه الدنيا، ولكما علي من الفضل ما ليس لغيركما، وأنتما سند وعون زرقني الله بكما، قد أدركتماني في الملمات، كنتما الناصح الأمين و المقوِّم الحكيم، كنتما نعم المستشار المرشد عند الحيرة واختلاط الأمر، و أشهد أنكما ما تركتماني قط في سعة أو ضيق، فكم وكم مرة كنتما سبب سعادتي وهنائي!

صحيح كان أحدكما أو كلاكما يشتد عليَّ أحيانا، فيلوم ويضَجّع، لكني كنت على يقين أنه ما كان يفعل إلا لنفعي و خيري.

ولكن لاحظت مؤخرا خلافا حادا نشب بينكما، واستعر حتى ظهر جليا للعلن، وعيت كل الجوارح أن تحتوي هذا الخلاف، وصار الأمر جد خطير، وكان لابد لي أن أتدخل، لحق الصحبة والمحبة والخلة بيننا.

وأنا لا أعلم لماذا تأججت نار الفرقة و الخلاف، ولكن أرجو الله ألا أكون سببا فيها، وإن يكن فأخبراني، علني أراجع نفسي فأرجع عما بدر مني .

وإن كان غير ذلك فأنتما تعلمان جيدا أنني منكما كصحبة الأنبياء والصالحين، فأنا فَرَطكم في كل أمر، وقد نثرت لكم كل ما لدي قبلًا حتى تستقيما على أمر رشَدَا، ولن أتوانى إن جدَّ أمرٌ اليوم أو غدا.

وأوصي حبيبي وصغيري الأثير، وعقلي المقدم في عظائم الأمور، أن يعرف لأخيه الأكبر ورفيق دربه ونور بصره (القلب) حقه، وما له من فضل وحكمة، وقَدَم صدق وإخلاص عنده وعند غيره.

وأوصي خليلي وكبيري المكرم، و فؤادي الصادق فيما يقول ويعمل، أن يحفظ لأخيه الأصغر وعونه وسنده (العقل) فضله، وما له من مواقف مشهودة، وحسن تدبير للأمر .

أيا صاحبي المحببين، أنتما لي كالجناحين للطائر لا يقوم إلا بهما، فإن صار بينكما الشقاق والخلاف، صرنا جميعا كالفرخ الوليد، تتداعي عليه الأكلة من كل حدب وصوب، وأصبحنا للسهم كالغرض في أرض فضاء. فاستقيما يرحمكما الله، ولا تختلفا فتنهشكما دواب الأرض، و تهدما صرحا طالما بنيتما لَبِنَاته يدًا بيد، واعتصما بحبل الله، فلا حبل سواه.

عقلي العزيز، قلبي الغالي، هذه رسالة مَنْ أَخْلصَ المحبة وصَدَق النية، وقد بينت ونصحت ما استطعت، وأنا متلهف، لأسمع أو أقرأ منكما ردا.

محبتكما المخلصة (النفس اللوامة)

٧٣: قلب جليبيب

من لي بمثل سيرك المدلل .. تمشي رويدا و تجي في الأول
إن هذا بلا تفصيل مضرب المثل لحال المسلم في الدنيا، يمشي رويدا، لا يلهث خلف لعاعاتها، ولا يريق لها ماء وجهه، ولا يبيع دينه بعرض منها، وهو مع هذا الدلال و الهوينى يصل قبل الجميع ويسبق الجميع، معادلة تكسر قوانين الفيزياء! نعم هي كذلك .
ولكن عَوْدٌ على القوانين، إن رب القوانين والأسباب جعل هناك سببا واحدًا يَجُبُّ كل الأسباب، ويمحو كل القوانين، جعل من وجوده وجود غيره، ومن انتفائه انتفاء من هو دونه.
علك بدأت تحار في هذه الألغاز، لكن لا تعجل عليَّ، وأبصر معي _ يرحمك الله _ ما يلي من هذه القصة المفرحة للقلب، والمنبهة للب، ففيها حل اللغز وبيان القصد.
عن أبي برزة الأسلمي، قال: كانت الأنصار إذا كان لأحدهم أَيِّم لم يزوجها حتى يعلم هل للنبي (صلى الله عليه وسلم) فيها حاجة أم لا.
فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) لرجل من الأنصار: "زوجني ابنتك" قال:" نعم وكرامة يا رسول الله ونعمة عين." فقال (صلى الله عليه وسلم):" إني لست أريدها لنفسي" قال: فلمن؟ قال(صلى الله عليه وسلم):" لجليبيب "، فقال:" يا رسول الله، أشاور أمها ."، فأتى أمها فقال:" رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يخطب ابنتك." فقالت:" نعم، ونعمة عين." فقال:" إنه ليس يخطبها لنفسه؛ إنما يخطبها لجليبيب ." فقالت: أجليبيب ابنه؟ أجليبيب ابنه؟ ألا لعمر الله لا نزوجه، فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله فيخبره بما قالت أمها، قالت الجارية:" من خطبني إليكم؟ فأخبرتها أمها؛ قالت:" أتردون على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أمره ؟ ادفعوني إليه؛ فإنه لن يضيعني،

فانطلق أبوها إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فقال:" شأنك بها فزوجها جليبيبا" قال:" فخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في غزوة له، فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه (رضي الله عنهم):" هل تفقدون من أحد؟ قالوا:" نفقد فلانًا ونفقد فلانًا ." قال (صلى الله عليه وسلم: «انظروا هل تفقدون من أحد" قالوا: لا. قال (صلى الله عليه وسلم):" لكنني أفقد جليبيبا، قال (صلى الله عليه وسلم):" فاطلبوه في القتلى" فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه، فقالوا: "يا رسول الله، ها هو ذا قد قتلهم ثم قتلوه." فأتاه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فقام عليه فقال:" قتل سبعة وقتلوه، هذا مني وأنا منه" مرتين أو ثلاث، ثم وضعه رسول الله على ساعديه وحفر له، ماله سريرٌ إلا ساعد النبي(صلى الله عليه وسلم)، ثم وضعه في قبره .[1]

وفي رواية أن النبي أشاح بوجهه بعدما حمله، ثم قال لأصحابه:" أتدرون لما أشحت بوجهي، قال: والله إني رأيت زوجاته من الحور العين قد تسابقن إلى احتضانه، وأعرفه رجلا غيورا، فأشحت بوجهي، حتى لا يغار."

هنا تتهاتن الدموع رغما عنك، ليس لاستشهاد جليبيب (رضي الله عنه) وحسب، ولكن تتسأل: أي أمر حمل النبي الكريم على السؤال عليه من دون الناس، وأي فضل اختصه الله (تعالى) به حتى يفتقده النبي، ولا يفتقد إلا الحبيب العزيز الغالي، ثم أي شرف استحقه هذا العَلَم الأشم، يقول عنه النبي:" هذا مني وأنا منه"، وأي نعيم فقد في الدنيا حتى يدركه نعيم الآخرة من زوجات هن حوريات لسن من البشر يتسابقن إليه .

---

[1] - رواه مسلم (٢٤٧٢)

إنه أمر وقر بين أضلعه وثبت في روحه ثبات الجبال الرواسي، إنه ذلك القلب الذي اصطفاه الله وطهره، وعلم فيه نورا ليس لأحد غيره من العالمين.

لقد كان جليبيب امرأ غير ذي نسب في قومه، وغير ذي جمال بين أقرانه، لكنه ملك الذي بأمة قد يزن، ملك ما جعله غال عند الله ورسوله، إنه قلب جليبيب.

٧٤: إشارات ربانية

لما اشتد الحال بخير البشر النبي العربي الخاتم (صلى الله عليه وسلم) فقضى الله أن مات عمه ثم زوجه أم المؤمنين خديجة (رضي الله عنها) وهو الثابت الواثق بربه، الحامل للأمانة القائم عليها،
والله أعلم بحاله؛ من الهم مع الثبات، ومن الضيق مع الحمد، ومن البلاء مع الصبر .
لم يكن الله ليذره على ما هو فيه حتى يسري عنه، ويريه من آياته ما يزيل همه ويثبت فؤاده، فكان ما كان من عظيم منح الله بأن آمنت به قبائل الجن، وآمن به رجل من غير العرب؛ وهو عدَّاس غلام شيبة بن ربيعة، وكأنها كانت البشرى أن يا محمد لاتبتأس فقومك إن لم يؤمنوا بك فهناك أمم وأقوام من أجناس شتى سيؤمنون بك وينصرونك، وليبين له الله قدره ومنزلته، ثم زاد الله من فضله على عبده بأعظم رحلة خاضها مخلوق قط، فسرَّى الله عنه وسرَى به إلى حيث لم يصل مخلوق قط .
كل هذه المنح الربانية والفضل الإلهي، ليثبِّت الله فؤاد نبيه، و يعلمه قدره عنده سبحانه.
و من تمام إيمان العبد بربه وحسن اعتقاده أنه لا يخلو من عين الله، وأن الله لا يحب له إلا الخير، وأنه بين أمر الله في سعة وضيق اختبارا وتمحيصا .
وعندما يميل أمر الإنسان إلى إفراط أو تفريط يريه والله آية أو إشارة من عنده، عله يرجع عن الطريق الذي سلكه، ويقيم عليه حجته البالغة .
فإن تنبه الإنسان لها فقد ربح وسلم، وإن أعرض عن آيات ربه فقد ساء حاله و مآله في الدارين .

ومن تمام رحمة الله بعباده أنه إذا ابتلاهم وهو أعلم بهم، يبتليهم ليرفع درجتهم، أو لأنه (سبحانه) يعدهم لأمر عظيم، فإذا اشتد البلاء مع صبر العبد، فتح الله له أبوابا من نعيمه وفضله يثبت بها فؤاده ويجزيه على ما صبر وشكر.

وكان أمر الله قدرا مقدورا، فمن كان منا ذا عقل، علم أن ما يحدث له من خير أو شر إنما هو إشارات ربانية، تأتيه من لدن عليم خبير؛ إما لتثبته على أمره، وإما أن ترده عن زيغه.

وكم لله من مدخل خفي يبين للإنسان فيه إرادته ومشيئته ولطفه!

فقد تأتيك إشارة في مصحفك تفتحه فتجده على آية بعينها، أو يُسْمعك الله بينما تمر مسرعا من أمام المسجد عبارة قالها الشيخ في موعظة، أو ينطق ابنك الصغير بلفظة تقع في قلبك وقوع القطر على النبات، وغيرها مما يعرض لك في حياتك من أمور كلما تدبرتها تجد أن الله قد أوجدك في الزمان والمكان وفتح أذنك وقلبك يريد أن يرسل إليك إشارة منه.

فتنبه _ يرحمك الله _ لتلك الإشارات الربانية، فقد لا تأتي بعد ذلة أو إعراض منك عن مقتضاها، فالله لا يزال بعبده يرده عن طريق الغي، حتى إذا نظر إليه نظرة غضب _نعوذ بالله من غضبه_ أوكله إلى نفسه، فسبحان الله العلي الكبير.

٧٥: غبن النعم

قال (تعالى):" وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا" (إبراهيم: ٣٤)
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: " خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَالَ: (مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ) ؟ قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: وَأَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا قُومُوا، فَقَامُوا مَعَهُ فَأَتَى رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَيْنَ فُلَانٌ) ؟ قَالَتْ ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنْ الْمَاءِ إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَصَاحِبَيْهِ ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي، قَالَ: فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ، وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ)، فَذَبَحَ لَهُمْ فَأَكَلُوا مِنْ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ وَشَرِبُوا فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ الْجُوعُ ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ) . [١]
وفي لفظ الترمذي (٢٣٦٩): (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مِنْ النَّعِيمِ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ظِلٌّ بَارِدٌ وَرُطَبٌ طَيِّبٌ وَمَاءٌ بَارِدٌ) .
ليت شعري، أقوام يرفلون في هواء بارد في الصيف، وساخن في الشتاء يحولون دفة قطعة صغيرة من المعدن فينزل الماء باردا فلما يديرونها الجهة الأخرى فترى ماء حميما. يسافر بن البلدن على مثل البساط، أو

---

[١] - رواه مسلم (٢٠٣٨) .

كأنه ينتقل فيما يشبه بيته لكنه يتحرك به أينما وجَّه فيما يشبه الأحلام والخيالات، كلما اشتاق إلى أحد من أهله وأو أصحابه ضغط ضغطة فسمعه ورآه وكلمه واطمأن عليه، يحمل بطاقة يتحكم فيها بكنوز ككنوز قارون، يسر الله له فاكهة الصيف والشتاء وطعام الهند والصين وأوروبا و أمريكا و أفريقيا و كل فج من الأرض في المحل جوار بيته.
عنده في آلة بحجم كف اليد مكتبات كان يحلم الأئمة الأعلام عبر الزمان باقتناء عشر معشارها، يستطيع الوصول إلى علماء الأمصار الذين كانت تضرب إليهم أكباد الإبل في ثوانٍ معدودة، يستطع طلب العلم وهو في غرفته يجلس على أريكته.
يشترى ما شاء من أي مكان على وجه الأرض ويصل إلى باب بيته دون أن يخرج في قافلة أو ؤسس شركة أو ينتظر وصول السفن المحملة.
تحوى خزانته من كل نوع اللباس ولونه، ومن كل مريح النعال وصوره، ومن كل ريش وزينة يتحلى بها من ملبس.
يعيش في مساكن وبيوت كان يعتبرها الماضون قصورا لا يسكنها إلا الملوك والأمراء، قد عمرت بكل لون الخدم من آلة تغسل، وآلة تطبخ، وآلة تعجن، وآلة تطحن، وآلة تنظف، و...

هل أكتفي بهذه النعم أم مازلت بحاجة إلى تعديداتي، إن كنت قد اكتفيت فهلم أسألك سؤال؛ هل نحن أعز على الله وأكرم أم السابقون الصالحون من هذه الأمة؟ والجواب ظاهر معلوم يقيني عند الأمة كلها؛ فهم بلا شك أعز وأكرم. ونحن مع ذلك في نعم لا نستطيع حصرها، لم تكن عند هؤلاء الأبرار الأطهار، وهم على هذا الأمر ما كانوا يتركون شكر الله ليل نهار على أقل القليل من هذه النعم أو ماشبهها، مع اختلافنا في كثرة النعم وتعددها وتنوعها.

فالنعم التي تكون لأمة دون غيرها إنما هي اختبار حقيقي؛ اختبار الشكر أو اختبار الجحود، إن كانت الأولى أعقبها البركة والدوام والعاقبة، وإن كانت الثانية أعقبها الزوال والسخط والخسران. ثم إن النعم على كثرتها أو قلتها مقرونة دائما بعبودية أخرى وهي الرضا؛ فالنعم قد تكون قليلة لكن أصحابها راضون شاكرون فيشعرون بقدرها ويحفظونها ويشكرون الله عليها؛ فيرزقهم الله الرضا ويدخر لهم حسن الثواب في الآخرة، وقد تكون النعم تترا ممتابعة وأهلها مغبونون فيها؛ فلا شكر ولا صَوْن ولا رضا، فترى أمر الله فيهم عجيب، فقد يفتح الله عليهم نعما أخرى ويزيدهم حتى يغريهم على ما هم فيه، وهذه عقوبة خفية شديدة، وقد يمنعهم ما كانوا فيه حتى يرجعون وهذه عقوبة أخف وطأة من أختها لمن تدبر ونظر.

فمما ابتلينا به في أيامنا هذا أننا مغبونون في النعم، لا نكاد نؤدي حقها ولا نعرف قدرها، ولا نكاد نصرفها في وجهها الذي أمرنا الله به.

ألم تتدبر قوله (تعالى):" اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُور"(سبأ: ١٣) وشكر النعم يكون بتوجيهها واستخدامه فيما جعلها الله له.

ثم اعلم _ يرحمك الله_ أن الله قرن شكر النعم بدوامها وزيادتها وبركتها، وكفران النعم وغبنها بذهابها ثم العذاب.

فقال (تعالى):" وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ(٧) " (إبراهيم: ٧)

٧٦: العاطفة الدينية و المنهجية الشرعية

من منا لم تصله رسالة على هاتفه، أو طالع منشورا على صفحات التواصل الاجتماعي يطلب منه نشر حديث، أو دعاء، أو أثر نسب لأحد الصالحين .

بل يزيد البعض تنطعا وغلوا ويستحلفك بالله أن تنشر ما أرسل إليك، وهو في غالب الأمر لم ينظر فيه مجرد النظر.

وينشطر المنطق شطرين عندما يتوعدك البعض أنك إن لم تفعل ستكون كذا وكذا أو سيحدث لك كذا وكذا.

وليست المعضلة في هذا، لكن تكمن العجائب و الغرائب والطرائف والمعضلات التي لا تفسير لها، فتجد من يسرع لنشر أو مشاركة كل ما يرسل إليه، وهو بين أمور ثلاثة؛ أولها أنه لم يقرأ ثانيها أنه لم يفهم ثالثها أنه لم يستيقن أو يتبين .

وهنا قطب الرحى، فقد ثبت عن المعصوم (صلى الله عليه وسلم) أنه قال كما في رواية حفص بن عاصم: "كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع [١]"

أضف إلى ذلك _ كما هو مقرر لدى أهل مصطلح الحديث _ مما اجتمع عليه العلماء من عدم جواز نقل خبر المجهول؛ مجهول العدالة أو مجهول الحال، أو مجهول العين .

فترى الرجل العاقل الذي سبق اسمه عشرات الألقاب والدرجات العلمية بمجرد ما يرى الخبر يسارع في نشره، ولم يتجشم عناء الرجوع

---

١ - رواه مسلم في (مقدمة الصحيح) (٥)، وأبو داود (٤٩٩٢)، وابن حبان (٣٠)

إلى أهل الاختصاص أو كتب الأصول، مع أنه لو مرض لذهب لجهابذة الأطباء.
ولعل دافع ذلك كله هو العاطفة الدينية التي سكنت قلوبا طيبة في هذه الأمة، ولكن دين الله القيم وشريعة الله التامة الكاملة لا يكون علمها وفهمها ونشرها بهذه الطريقة وبتلك الوسيلة، ولكن ما أصَّله الأكابر المفردون من علماء هذه الأمة من منهجية علمية حسدنا عليها الشرق والغرب وغبطنا فيها العلماء المنصفون في كل الأمصار،بل وفي كل فن من الفنون، تلك المنهجية العظيمة التي تقضي أصولا و ثوابتا في نشر الخبر أو القول به. فصار العلم بحال الراوي من جهة العدالة والضبط أصل أصيل، وبصحة المروي من جهة نسبه إلى صاحبه عين العلم، ثم الدليل على الرأي أو القول أو الحكم ووجه الدلالة فيه = صار كل ذلك وغيره منهجية وأصلا للتعاطي مع ما يصل المسلم من أخبار.
وحسبنا فخرا وشرفا أن ديننا هو الدين الوحيد الذي له سند متصل لم ينقطع لحظة من لدن النبي حتى قيام الساعة بحول الله وقوته.
فلينظر كل منا ما ينقله ولا تأخذه مجرد العاطفة تحصيلا للثواب والأجر، فيقع في شر ما منه فر، فقد يكذب على النبي دون أن يدري وقد ينقل بدعة أو أقولا فيها إثم عظيم وهو لا يدري، بل عليه أن يستن بسنة النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه المهديين المباركين من بعده.
قال (تعالى): " وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (الإسراء: ٣٦)

٧٧: هم رجال ونحن ذكور

قال تعالى:" مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (الأحزاب:٢٣)
وقال تعالى:" مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (الحجرات: ٢٩)
فكان مدحهم في الجملة من رب العالمين بإيمانهم وتصديقهم قبل عملهم. فجمع الله عليهم بفضله وحوله وقوته سلامة الظاهر والباطن، صدقوا الله فصدقهم الله، كانوا كما وصفهم ابن مسعود (رضي الله عنه):" من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم)؛ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا وأقومها هديا وأحسنها حالا، قوم اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم "
ولا شك أن هذا المدح الذي هم مستحقوه، وهذا الثناء الذين هم أهله، لم يتأت لهم من الخالق والمخلوق إلا بشيء وقر في قلوبهم وصدقه عملهم.
فمنهم من اهتز عرش الرحمن لموته، ومنهم من وافق القرآن رأيه، ومنهم من سماه الله في ذكره، ومنهم من عادل إيمانه أمة.
فاستحقوا وصف الرجال بكل معانيه، ولا مجال للمقارنة بين خير جيل رأته الدنيا من لدن آدم (عليه السلام) وبين أجيال تلت، ولكن هؤلاء

المفردون هؤلاء الأطهار الذين قالوا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم):" اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون "
هؤلاء الصادقون الذين ما وجدوا في أنفسهم حرجا أن يتركوا ديارهم وأموالهم و أهليهم هجرة لله.
هؤلاء الصالحون الذين ما كانوا يقدمون بين يدي الله ورسوله حتى أنهم ما كانوا يسمعون الأمر من الله و رسوله إلا أسرع أحدهم إلي تطبيقه والقيام به قبل أن يقوم من مقامه.
هؤلاء الصامدون الذين دفعوا أموالهم وأرواحهم لله، في ساحات الشرف والجهاد .
هؤلاء الثابتون الذين حملوا الأمانة بعد موت النبي (صلى الله عليه وسلم) فما بدلوا ولا غيروا، ولم يعطوا الدنية في دينهم.
هؤلاء أجدادي وقدوتي، هؤلاء رجال أمتي لمن أراد أن يقتضي أو يستن أو يتعلم معنى الرجولة.
ولكن ما حدث بعد سنوات وسنوات طويلة من صون هؤلاء الجبال، وتكريمهم في كل محفل، وتعظيم قدرهم عند كل مسلم مخلص وعدم اقتحام جانبهم العالي أمر عظيم، وشر مستطير، وخبث ظاهر، ابتلانا الله بما ليس لنا عليه صبر، من اقتحام بعض من حثالة البشر العالة الرويبضة الجَعَابِيبُ الصخابون الجعاظون، لجناب أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) وكأنهم أأرادوا إسقاط ما في نفوسهم الخبيثة، وطبائعهم الردية على أطهر البشر .

وهم في ذلك يتمثلون قول المتنبي:
ومن يك ذا فم مُرّ مريض ... يجد مُرّا به الماءُ الزلال
أرادوها عوجا، كمثل ذلك الذي أراد لما عصى وتكبر وجهل أن يجر الناس كلهم إلى مصيره المشؤوم .

انبري من ظن أنه مُكّن له في الأرض وأعطاه الله قلما يخط به كل ضغث من القول _ يفند ويصنف الصحابة المقطوع لهم بالجنة، والمشهود لهم من فوق سبع سماوات بسلامة القلب وسداد العمل .
لا ورب العرش العظيم ما بلغ أولئك شراك نعل أحدهم، ولكن هي المحن والبلايا، والأيام حبالى يلدن كل عجيب، وعند الحوض سيعلمون .

أما من ادعى أنه بما قضى الله بحكمه وقدرته أن يخلقه بخلقة تمايز فيه عن النساء، أنه رجل، كلا فالرجال هم من وصفهم الله بوصفه في كتابه. وفعلهم ما أنزله الله عليهم من الكتاب والسنة، ومن كان غير ذلك فهو ذكر وليس برجل.

٧٨: أنا أسعد بالدنيا منك

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" لو علم الملوك ما نحن فيه من السعادة لجالدونا عليها بالسيوف" كلام الصالحين الموصلين بربهم من السلف الصالح كلام يستحق التأمل والنظر، وهو أولى من غيره بالعناية والفهم والنشر بين الناس.

والسعادة بلا شك من أعظم نعم الله على عباده، ولكن أولا ما تعريفك للسعادة؟
بالطبع الإجابات متباينة و النفوس مختلفة، فالناس كما وصفهم باريهم مختلفون، قال تعالى: " إن سعيكم لشتى "(الليل _٤) فمن الناس من كانت سعادته في المال، و منهم من سعادته في كثرة العيال، ومنهم من سعادته في ولاية أو جاه، وغيرهم يرى السعادة في ألوان المتع المحرمة، و آخر في مكان بعيد ينأى فيه عن البشر، و غيره لا يرى إلا هدى الرحمن و بركة التنزيل سببا في كل مسحة من سعادة مست شغاف قلبه. يرفل في النعيم، و يعيش في جنة على الأرض مرضية، يراه الناس في عذاب وهم وانقطاع عن متع الدنيا، ولسان حاله قوله (تعالى) تعالي:" يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ" (١٣: الحديد)
يا أيها السالك في وادي الظلمات، مسكين انقطعت بك الطرقات لا أبقيت لك ظهرا من عمل صالح، ولا واديا قطعت باتباعك الشهوات والأهواء، تحسب نفسك سعيدا فائزا وأنت روح معذبة، وضعت بسمة مزيفة بمساحيق التجميل الغربية والشرقية، إنك تراني دائما بين دفتي مصحفي، أو ناصبا وجهي لربي في محرابي، لا تسمع مني إلا لين

الحديث، ولا تشم مني إلا طيب الريح، أصون عرضك من مال وحريم ودار، أسرع إليك في الشدائد بنفسي ومالي، أدعو لك بظهر الغيب، أرد غيبتك ما استطعت، ما تسمع مني من قول ولا ترى من فعل إلا ذكرتك بسنة النبي، إذا أنا دخلت بيتي هششت وبششت ولاعبت وداعبت، وإذا تاجرت بينت وصدقت و اؤتمنت، وإذا عملت اتقنت، أسعى أن أكون عبدا صالحا سعيدا فرحا بديني، شاعرا برضا ربي علي، متوافقا مع من حولي من البشر.
تحسبني _كما أرادوا أن يصورني _ متزمتا متشددا منغلقا أحمقا مقلدا، تحسبني ناظرا إليك نظرة احتقار وبغض وكبر، تحسبني _ كما اتهموني زورا وبهتانا _ذاك الموزع لرحمة الله والممسك لها، فهو يوزع صكوك الصلاح و الغي.

يا أخي لست بأمثل عند الله منك، فكلانا بشر نخطئ ونصيب، قد يسبق بك عند الله حسنة لا أدري ولا تدري قدرها عند الله .
يا أخي أنا لك ناصح أمين، بنصح الله الرحمن الرحيم:" قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُون"ِ (يونس:٥٨)
لكن سعادتي وسعادتك في اتباع كل أمر، واجتناب كل نهي، والتأسي بالسنن ما علمت.

٧٩: أدمنت النظر إلى السماء

أطالع السماء بعد عناء يوم اشتدت فيه الخطوب، صار طعم الماء في حلقي علقما لا أكاد أصيغه، لم أعرف للزاد طعما منذ أن شق النهار بصري، الهم تجسد له أنياب زرق مسنونة كأنهن أسنان أغوال، وجهه كأنه شعلة نار قد شابها سواد الفحم، تنميل في أطرافي أفقدني بعد فترة الإحساس بها، قدماي اللتان طالما عَدَت عدو الضواري في الغابات لا تحملاني، ظلمة غشيت بصري فلا أكاد أبصر إلا قطع من الليل، دقات قلبي كأنها طبول الحرب، كل خلية في عقلي تغلي غليان مرجل ثائر، جف الحلق كقفر الربع الخالي، وصارت نسمات الهواء كأنها نفح بركان قد انتفض، وماجت الأرض تحت قدماي كأنها موج بحر هائج، وضاقت الدنيا حتى كأنها بما رحبت سم الخياط، ولولا النهي عن تمني الموت لتمنيته، وغشيني ما غشيني عن يمني وعن شمالي ومن تحتي، حتى فاضات علي في لحظة نفحة من نفحات الرحمن، وبما تبقى لدي من قوة وقدرة على الحركة، رفعت رأسي إلى الاتجاه الوحيد الباقي لدي؛ رفعت يدي إلى الأعلى فاتصل بصري بزرقة السماء، ففاضت عبرات قلبي وعيني معا كمزنها قد انهمر، ورفعت قوة خفية يداي إلى باريهما، وانطلق لساني بما لم أحسبني أعرفه من الكلمات، وكأن أحدا يعلمني ويملي علي الحرف بعد الحرف، وصار قلبي كطائر أطلق لتوه من محبسه، فهو يغرد بأصوات لم تطرق أذن بشر من قبل، وكأن نورا من السماء قد شق أجواء الفضا شقا .

لحظات لا توصف إلا أنها ليست من هذه الدنيا .

فتحول الحال من ظلمات إلى نور، من قفر الصحارى إلى جنات و أنهار، من وعورة الجبال إلى سهولة المروج، من اختلاج الصدر إلى انشراحه،

من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن سجن الهم، إلى فضل الرحمن.

فصار ما كان من جبال من الهم والغم الجاسم فوق صدري منذ لحظات هباءً منثورًا، وأدركت وقتها حق اليقين، أن كل ما يلزمك عند تحول الزمان، وتغير الإنسان، وتكالب الخطوب، وانقطاع الدروب، وهو رفعة يد، وخشعة قلب، ولهجة لسان يلهج بالحمد والثناء على رب السماء .

ومنذ تلك المنحة الربانية، والفضل الإلهي وأنا أدمنت النظر إلى السماء.

٨٠: الوجه الآخر للقمر

ليلة التمام.. البدر يدل بأسمى آيات العظمة والجمال، سبحان الذي خلق فأبدع على غير مثال سابق. نسمات من ريح الصبا تدفع بعضها بعضا في موجات متتالية، السكون يستحث الخطى ليدرك الليل من أوله، فلن يضِّيع وجه القمر .
يتهادى البدر المنير، يصد ويبدي من خلف خمار نسج من حرير أبيض كالصفا.
يسقط النصيف رويدا رويدا. الحسن يتجلى الكل يتملى في بديع خلق الله، الآن اكتمل الحسن
استل كل شاعر قلمه، ونضدد كل كاتب دفاتره، استأنس العمال في سواد الليل بالوجه المليح، الكل هيأ نفسه ليأخذ من جمال القمر بنصيب.

إلا ذلك المبتور ذا القلب المغلول والطبع الردي انزوي في ركن بعيد بين أطلال أشبه بالقبور ينشد الظلمة ثوبا، ويري القمر المنير محض قفار وصخور، يحدث الناس أن وجهه الآخر زمهرير مستطير، وظلام فاق في الوصف كل الأساطير، إنه من كل رمز للجمال خال ولا و ليس فيه ما يشغل البال، ولا ما يحرك الخيال، كل داء له داء .
إن الكمال لله وحده سبحانه ولا يشبه خلقه في شيء لا مثيل ولا ند له. جعل الله لكل كمال من خلقه نقصا، وكل مخلوق له عن غيره اختلاف قد نراه عيبا ومنقصة وقد يراه غيرنا فضلا ومحمدة، وهذه حال البشر لم يُعْصم منهم سوى الأنبياء، فكانت سنة الله في خلقه نقص في البشر يعتريهم، فمنهم المقتصد ومنهم المفرط .

يستر الله كلا الصنفين برحمته وحكمته، ويتوب الله على من تاب، ويزيد المحسن إحسانا .
ولكن هناك دائما عينا شيطان تفتش عن كل نقيصة، وكل عيب و ذلة تعتري غيره ليظهرها وينشرها بين الناس، غلًا وحقدًا وحسدًا، أو نقصًا يعتري نفسه المعطوبة .
إن ما يبدو لنا من الخَلق من حسن خلق وطيب قول و جميل فعل هو ما أبداه الله لنا، وما ستره علينا في حق إخواننا وقومنا لسنا منه في شيء، فلسنا قضاة حتى نحاسب الناس، ولم نؤمر أن نفتش عن نواياهم، وحسبنا أن نرى من الناس الحسن ونتغافل عن السوء إن علمناه، فتمتع ببهاء القمر ولا تعمل أفكارك في وجهه الآخر.

٨١: أم المعارك

معركتك الحقيقة مع الشيطان فإن هزمته فقد هزمت أولياءه، يحاول عبثا أن يخفى صورته الحقيقية في أشكال شتى، يحاول أن يغلف الجحيم بطبقة من سكر، يجلس في ركن بعيد يحاول أن يظهر في صورة البريء المسالم، وهو يوسوس و ينفث و يهمز وينفخ.
إن التحدي القائم ليس نفيه من هذا العالم أو قتله، لكنه البقاء على الثغر الذي أُمرت بحراسته، وقبول هذا التحدي، و إعداد ما استطعت من قوة ومن رباط خيل التوحيد، ترهب به عدو الله وعدوك الأزلي .
إن الشيطان يرى البشر دائما جنسا أقل منه، ويرى لنفسه الأفضلية والعلو، وهو في ذلك ساعٍ إلى إثبات نظريته المدحضة أن البشر جنس ضعيف أمام شهواته، مهوس بهواه و رغباته .
نصب التحدي الأكبر يوم عاقبه الله بمخالفة أمره باللعن والطرد من رحمته والخلود في العذاب، فجعل بني آدم مهمته وتحديه الأكبر، فحشد كل جنده، وشحذ كل أسلحته، وخرج علينا غير خافٍ ولا مستخْفٍ، شاهرًا ذلك السلاح في وجوهنا، مظهرًا احتقاره و استصغاره لنا بني البشر.
إن عَجْز الشيطان وعطب فكره واضح في كونه اتخذ آدم و أبناءه من بعده أعداء، لظنه أفضليته على بني جنسنا، ولكن الكبر مرض من آثاره عمى القلب، وخراب العقل، وهذا المرض قد أصاب الشيطان الأول، وأورثه ذريته من بعده، ولو تدبر لعلم أنه هو نفسه سبب مأساة نفسه، وأنه يحاول عبثا الانتقام .
إن الشيطان أعلن عصيانه وتحديه لرب العالمين، وجعل البشر عمله وشغله وهمه، فصار منهم فريقا مطايا يركبهم الشيطان وحزبه، فهم للشياطين ظهور مذللة، رمز على مكسبه في حربه الخاسرة .

ولكن على الجانب الآخر، لا يستطيع أن ينظر إلى وجوه الشطر الثاني من بني آدم يخاف أن يذوب، فلا طاقة له بنور قلوبهم، وصدق ألسنتهم، و سجود جباههم.
ولكنه لا ييأس من أولئك النفر، فجعل معركته الكبرى معهم، وهي أم المعارك، فهو له حيل خبيثة، فلا طاقة له بمواجهة مباشرة، إنما يعمد إليهم متلونا متواريا في كل ما يستطيعه من صور.

لما سئل أحد السلف يوما:" ما لليهود لا يوسوسون في صلاتهم ." فقال:" وماذا يفعل الشيطان بالبيت الخرب. "
وهذه العبارة هي بيان الأمر مع مع ذلك الملعون، فهو إنما يريد الكَرْم، لا يريد القواحل.
فإن كنت على درج الإسلام فارقَ صعدا، وأعلم أنه سيشغب عليك بكل ما أوتي من قوة، يريد أن تزل قدمك من على الدرج فيندق عنقك، وأنت أيها السالك إلى الله اعلم أن أم المعارك في حياتك هي هزيمته بكل ما يغيظه، ويرد كيده، وليس أَعْمَل لذلك في نحره من الفرار إلى الله واللوذ بحماه، والاستعاذة بوجهه الكريم وبسلطانه القديم من الشيطان الرجيم.

٨٢: أنواع بني آدم.. ثلاثة

أصحاب السبت قصة يعرفها القاصي والداني، وقد كان بيانها على أتم ما يكون في سورة البقرة.
وخلاصة القصة أن الله (عزوجل) أمر قرية من بني إسرائيل ألا يصطادوا من صيد البحر يوم سبتهم، وأراد الله أنا يبتليهم ويختبرهم، فكانت الحيتان _ وهي الأسماك _ تأتيهم بكثرة يوم السبت الذي نهاهم الله (تعالى) عن الصيد فيه، فإذا كان اليوم التالي، لم يجدوا في البحر صيدا، أو وجدوا النذر اليسير، فاحتال فريق منهم؛ فكانوا يحفرون الأخاديد، ويتخذون الحياض، فتدخل فيها الحيتان ثم يغلقونها، فلا تستطيع الحيتان العودة إلى البحر، فإذا كان يوم الأحد تناولوها بالصيد. وظل هذا حالهم ردحا من الزمان، حتى ظنوا أن الله لن يعاقبهم، بل زاد الأمر حتى قال بعضهم لبعض:" ما نرى السبت إلا قد أحل لنا."
ثم ما لبث الأمر أن صار لهم عادة وأمان من العقوبة، لكن لله عبادا علموا أنه حيٌّ ستير، صبور على عباده علهم يرجعون إليه منيبين، ولم يغتر هؤلاء النفر الصالحون بما صنع أولئك المجترئون على أمر الله، فلم يصنعوا صنيعهم.
ولكنهم كانوا أيضا فريقين؛ فمنهم من أنكر واعتزل، ومنهم من اكتفى أنه لم يشارك من عصى.
فانقسم القوم ثلاث فرق؛ فريق عصى، وفريق لم يعص وأنكر على العصاة، وفريق لم يعص واكتفى ولم ينكر؛ حتى أن الفريق الثالث اعترض على الفريق الثاني بقولهم، كما ورد في آية سورة الأعراف: " إِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤: الأعراف) ولعل الفريق الذين لم ينكر كانت هذه طاقته.

فصار الناس في حكم الله ثلاثة، وهو إن بصرت حال البشر على وجه البسيطة، لن ترى أحدا من البشر يخرج عنهم.
ولكن القصة لم تنته عند تصنيف الناس إلى أولئك الثلاثة، لكن التبعة و المآل هو ما يجعلك تسأل نفسك أي الأقسام أنت؟!
فالله مسخ أهل السبت الذين اعتدوا قردة وخنازير، وكان هذا بعد صبر الله عليهم يتوبون، أما من أنكر نجاه الله، وأما الفريق الثالث الذي كره فعلهم ولم ينكر عليهم فاختلف المفسرون فيه بين من قال بنجاتهم، وبين من قال بهلاكهم، وإن كان الراجح نجاتهم مع عدم سلامتهم من ذنب عدم الإنكار، ولعل ما فعله الفريق الذي أنكر وحقق شعيرة الأمر بالمعروف كان سببا لعدم عقوبتهم إذ أنهم قد كفوهم وعظ المخالفين، ولعل نجاتهم أيضا كانت لأنهم كرهوا فعل العصاة فكأنهم أنكروا بقلوبهم.
ولكن ماذا لو لم ينكر أحد مطلقا .
بيان هذا في حديث النبي (صلى الله عليه وسلم) أن أبا سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال:" سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: مَن رَأَى مِنكُم مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسانِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسانِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وذلكَ أضْعَفُ الإيمانِ" [1]
لعل الحال الذي نراه فيما وصلنا إليه في أيامنا هذه من أن بعضنا قد لا يأمن أن يسير بعض الطرقات منفردا، أو أن نأمن على صغارنا أن يخرجوا لأول الشارع ليشتروا الحلوى، هو ما يجعل شعيرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أولى الشعائر بالإحياء.

---

[1] - رواه مسلم (٤٩)

فمن الناس من أبقى وازع الله في قلبه حيا، ومنهم من مرض قلبه أو مات، فالنوع الأول ابتلاه الله (تعالى) بالنوع الثاني، والنوع الثاني جعل له الله(عز وجل) حقا في رقبة النوع الأول، فالله يبتلي الناس بعضهم ببعض.

لكن المعضلة تكمن فيمن عَلِمَ عِلْم اليقين، و صَمَت، فلا هو نصح بعدل ولا هو صدح بحق، فانتقص بهذا من خيريته، ألم تسمع قول الله (تعالى):"كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ" (آل عمران: ١١٠)

٨٣: بُحْ

يموت البعض وفي صدره بقية من شيء نقي طاهر حلال مبارك، آثر أن يبقيه في سجن يحمله بين جنبيه .
أوهام و محض خيالات تعشش في ثنايا عقله المتعب، خوف أسره ووضعه في القيد سنين عددا، و بصيرة قصرت عن استشراف حوادث الزمان .
سكن كهفا منعزلا بعيدا، وأبى أن يركب سفينة النجاة، صار صدره ضيقا كمدًا، وهن من كثرة ما فيه، وضع قيدًا بعد قيدٍ على لسانه فصارت بُكْمةً ملازمة له من غير عَطَبٍ في الآلة، جعل الحروف حائرة والكلمات مسجونة، والعبارات ملقاة في جب عميق.

يا أيها المعذب نفسه، اكسر قيد الأوهام وخوف الخيالات، وبُحْ بما في نفسك، لا تخف من الغيب فإنه بيد الله، فقط اتبع الأسباب .
باختصار شديد إذا كنت ممن يسكنون كهف أنفسهم في جبال شاهقة، اخرج من كهفك، وانزل من جبلك العالي، وأَعْرب عما في نفسك تُرِحْ وتسترح.
بُحْ لصاحبك بما وجدت عليه من قول أو فعل فبوح المحب وعتابه زيادة في المحبة .
بح لابنك الصغير بأنك تحبه، وأنه قطعة منك، وأنه عصفور جنتك الصغير، وأنه كذا وكذا، فوالله إن وقع كلماتك على نفسه، كوقع المطر على أرض يباب.
بح لزوجك بما تجد في نفسك لها فليس هذا ضعفا فقد فعله خير الخلق، وبح لها أيضًا بما تحب فتلزمه فتسعدا، وبما تكره فتتركه وترضيا.

بحْ لمن تراه على خطأ، فتكن مرآة له عند فضله أو سوأته، وتكن عند الله قائما له بالحق، وتكن أمام نفسك شريفا عفيفا عادلا.
بح لأخيك بأنك تحبه في الله ولله، فوالله إن هذا قول النبي وفعله.
بحْ للدنيا بما أنت عليه _ ما لم تخض في حمى الله _ فأنت ما أنت عليه، فاختلافك ميزتك، وقلبك كنزك وكلماتك مفتاحه.

بحْ فإن البوح يقطع الطريق على الشيطان، ويغيثك من مصائده، ويجعل ما بين الناس مباركا، فأنت من المذكّرين الناصحين .
بح ولا تكن كأصحاب السبت.

٨٤- احذر هذه العبارة

أكل عيشي... كم مرة سمعت هذه العبارة؟ أستطيع الجزم أنك تسمعها يوميا مرات عديدة، تتبدل دلالات الألفاظ بحسب المجتمع والزمان والبيئة، لكن الذي لا يتغير ولا يتبدل حكم هذه الدلالات، وفي حالتنا هذه دلت العبارة على مدلول يعرفه القاصي والداني وهو العمل، لكن ما وراء العمل هو ما وراء الأكمة فقد يكون وراءها مرج من رياحين تسكنه الفراشات، أو مستنقع منتن تسكنه الأفاعي والحيات.

(أكل العيش) أو تحصيل الأرزاق أمر اشترك فيه كل بني آدم، وصار لكل منهم حرفة أو مهنة أو طريقة يأكل بها ذلك العيش، ومنهم من رضي بالعيش (الحاف) ومنهم من أراده مغموسا بالسمن والعسل وكل ما لذ وندر وطاب... ولا نكران على كلا الفريقين، فتلك نعم الله أنعمها على عباده، لكن الوقفات والنظرات و الأنات تكون كلها لطريقة تحصيل لقمة العيش وما ينطوي عليها من انهيار للقيم، واستمراء للمعصية، واستخفاف بالكبيرة، وركون إلى أرذل الأمر.

قال (تعالى):" وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ" (الذاريات: ٢٢)

وقال (عزوجل):" فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ" (الملك: ١١)

وقال (سبحانه):" فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢)" (نوح: ١٠ – ١٢)

ولعل من أراد تحصيل الرزق و (أكل العيش) بمفهوم كسب المال وحسب، لايهم من أي طريق جاء_ واقع في محظور عظيم، فهو بالإضافة أنه خالف أصلا عظيما في الشريعة وهو التوكل، يسوقه هذا سوقا إلى الوقوع في الكبائر، نعم الكبائر، أليس اليمين الغموس من

الكبائر، أليس الربا من الكبائر، أليست تجارة الخمر والمخدر من الكبائر، فمن كان المال هو همته وجد لنفسه ألف مسوغ لتحصيل المال، عملا بقاعدة (أكل العيش) فهي عند بعض الناس مهارة و تجارة، وبيع وشراء، لكنها في الحقيقة عبادة للمال، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم):" تعِس عبدُ الدينارِ، تعِس عبدُ الدرهمِ، تعس عبدُ الخميصةِ، تعس عبدُ الخميلةِ، تعِس وانتكَس وإذا شيكَ فلا انتقشَ"[1]

فهذا الساعي إلى المال بكل وسيلة لا يراعي أيها أخذه في سبل المهالك، وأيها سلمه منها إنما استعبده ماله و (أكل عيشه)

[1] - رواه البخاري (٢٨٨٦)

٨٥- من الداخل إلى الخارج

قال (تعالى):" يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ " (٢٦: الأعراف)

قال ابن كثير في تفسيره: يمتن تبارك وتعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش فاللباس المذكور هاهنا لستر العورات - وهي السوءات والرياش والريش: هو ما يتجمل به ظاهرا، فالأول من الضروريات، والريش من التكملات والزيادات .[١]

فجعل الله اللباس لستر العورات ولا بأس بالتجمل والحسن، فإن الله (تعالى) جميل يحب الجمال، لكن الله (تعالى) بين في الآية أن هناك لباسا آخر يزين المرء ويستره سترا أعظم ويزيده جمالا وبهاءً ظاهرا وباطنا، وهو قوله (تعالى):" وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ"، وفي التأويل كما ذكر ابن كثير في تفسيره مما حكاه عن أهل العلم، فقال:

واختلف المفسرون في معناه، فقال عكرمة: يقال: هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة .

وقال زيد بن علي، والسدي، وقتادة، وابن جريج: "ولباس التقوى"الإيمان .

وقال العوفي، عن ابن عباس (رضي الله عنه": ولباس التقوى " العمل الصالح .

وقال زياد بن عمرو عن ابن عباس: هو السمت الحسن في الوجه .

وعن عروة بن الزبير: "لباس التقوى "خشية الله .

---

١ - تفسير بن كثير

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم:"لباس التقوى" يتقي الله، فيواري عورته، فذاك لباس التقوى .
قال ابن كثير: كل هذه متقاربة. [1]

فكانت الخيرية والشأن لما بطن ولم يَظْهر من لباس التقوى، تلك الحلل البهية من إيمان وخوف ورجاء ومحبة، تلك الحلل التي يبصرها ذوي البصائر، ويعرف قدرها الصالحون، ويحرص على اقتنائها ولبسها المحسنون.
وقد كان هذا فهم الصحابة الأبرار الأطهار وعملهم به، فمهما كان اللباس الظاهر والريش _ وإن كنا مأمورين بتحسينه_ لا يُتَخَذان حَكَمًا على الناس، ولا أصلا في تزكيتهم، فهذا ربعي بن عامر (رضي الله عنه) يعلمنا ويعلم الدنيا أثر لباس التقوى.

لما كانت القادسية بعث سعد إلى رستم بن فرخزاد _ قائد الفرس_ رسولا بطلبه، وهو ربعي بن عامر(رضي الله عننه) فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابي الحرير، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة، والزينة العظيمة، وعليه تاجه، وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب، ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضة على رأسه، فقالوا له: ضع سلاحك. فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت. فقال رستم: ائذنوا له. فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها، فقالوا له: ما

---

[1] - تفسير بن كثير

جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضي إلى موعود الله. قالوا: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. فقال رستم: قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: نعم، كم أحب إليكم؟ أيوما أو يومين؟ قال: لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. فقال: ما سن لنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل. فقال: أسيدهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم . فاجتمع رستم برؤساء قومه، فقال: هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك لهذا الكلب! أما ترى إلى ثيابه؟! فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل، ويصونون الأحساب . [١]

فهذا الجبل الأشم ما راعه زخارف الدنيا وزينتها، بل كانت لباس التقوى الذي يغلف قلبه أعز وأكرم وأعظم من كل زينتهم، بل من كل زينةالدنيا. وقد وعى هذا الأذكياء من خصوم هذه الأمة وأعدائها، ألم ترى كيف قال رستم؟

ثم انظر يرحمك الله إلى باس الغرب ومأكلهم فيما يعرض علينا من صور و أفلام قد انتشرت بفعل التقنيات الحديثة، ومنا من خالطهم، فترى

---

١ - البداية والنهاية، ط عالم الكتب، ص٦١٩

كثير منهم رقيق الحال في اللباس والطعام، وهو مع ذلك مالك لأكبر الشركات، أو عالم مرموق في تخصصه.
فانظر إلى لباس التقوى الذي يستر داخل النفس لا لباس القماش والريش الذي يستر خارجها حتى تعلم معادن الناس وحقيقتهم.

٨٦- أجب عن السؤال التالي

من أنت؟
قبل أن تحدد نوع إجابتك دعني أوضح أمورًا قد تساعدك على إجابة هذا السؤال؛ لمَّا أشارت مريم (عليها السلام) إلى نبي الله ورسوله ابنها عيسى بن مريم (عليه السلام) كانت الإجابة كما أثبتها القرآن الكريم كما في قوله (تعالى):" قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠: مريم)
فقدم مقام العبودية على مقام النبوة، فما يكون الثاني إلا بعد الأول، ولا ينال المرء شرف النبوة إلا بعد تحقيق العبودية التامة.
وقال (جل ذكره):" وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧)وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨)" (٦٣: ٦٨ الفرقان)
فعدد الله صفات بدأها بالعبودية

ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون" (٧٥)" (٧٥: النحل)

وعن أَبِي مَسْعُودٍ(رضي الله عنه)، قَالَ أَتَى النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ فَقَالَ لَهُ:" هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ " (رواه بن ماجة)

وبعدما قدمت لك تلك البراهين القاطعة على شرف مقام العبودية، وفخر الأنبياء والمرسلين والصالحين من بعدهم أن يتصفوا بتلك الصفة وأن يقوموا في هذا المقام، دعني أوضح أمرا آخر، لابد أن يكون أصلا أصيلا عندك تعتقده، وهو أنك لا ولن تسطيع يوما أن تكون ربا أو إلها؛ فلا أنت تخلق ولا أنت تملك ولا أنت تدبر ولا أنت تقوم على أمر الخلق ولا أنت سيد عليهم، فلست بهذا ربا.
ولا أنت تستحق أن يعبدك الناس؛ فالنقص يعتريك والحاجة إلى غيرك تحوطك، وأنت تجوع وتعرى وتأكل وتمرض وتموت، ولا يكون هذا أبدا في الإله المعبود.
إذا لماذا يجب أن تكون عبدا؟
العبودية لله هي تمام الحرية، فأنت إن اخترت أن تكون عبدا لله فقد تحررت من كل عبودية أخرى... فأنت بهذه العبودية قد اخترت أن تكون عبدا لمن لا يريد منك إلا سعادتك، ولا يطلب من رزقا، بل إنه أقامك في مقام العبودية لأن هذا ما يضمن سلامتك، فهو خلقك وركبك وهو أدرى بما يصلحك، ألم ترى (ولله المثل الأعلى) ذلك الصانع أو المهندس الذي يصنع آلة ما،، ألا تراه يكتب تعليمات تشغيلها وكيفية الحفاظ عليها وضمان كفائتها وطول عمرها، فسبحان الله الذي له صفات الكمال ونعوت الجلال، الذي تنزه عن كل نقص، له العلم كله وله الحكمة البالغة قد جعلك عبدا له وحده حتى يحفظك نفسا مطمئنة وروحا طيبة، ثم يجزيك الجنة وحسن المآب.

٨٧- من صدق اللّه صدقه اللّه

قال (تعالى):" يَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤: الأحزاب)
واعلم _يرحمك الله_ أن من الثوابت أن الجزاء جزاءان؛ جزاء في الدنيا وجزاء في الآخرة؛ إن خيرا فخير وإن شرا فعقوبة وعذاب.
وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: قيل لرسولِ اللهِ (صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ): أيُّ الناسِ أفضلُ؟ قال:" كلُّ مخمومِ القلبِ صدوقِ اللسانِ" قالوا:صدوقُ اللسانِ نعرفُه، فما مخمومُ القلبِ؟ قال:" هو التقيُّ النقيُّ لا إثمَ فيه ولا بغيَ ولا غِلَّ ولا حسدَ". [١]
فاللسان صادق والقلب أصدق، وكلاهما معين لصاحبه واعظ له ومرشد، فصدق اللسان فرع على صدق القلب، وقد نال صاحبهما عند الله المنزلة والدرجة.
والصدق منقبة ووصف الأنبياء، ألم ترى كيف كان المشركون يصفون النبي قبل البعثة، كان عندهم الصادق الأمين، وكان من وصف الأنبياء دائما الصدق، فقال الله عن يوسف (: (عليه السلام):" يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ" (يوسف: ٤٦)، وقال (تعالى) عن إبراهيم (عليه السلام):" وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا " (مريم: ٤١)، وقال الله عن إسماعيل (عليه السلام):" وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا " (مريم: ٥٤)، وقال عن إدريس (عليه السلام): " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا " (مريم: ٥٦)

---

[١] - رواه ابن ماجه (٤٢١٦) واللفظ له، والطبراني (١٢١٨)، والبيهقي (٤٨٠٠)

ولا غرو إذ كيف يقبل الناس أخبار السماء وشرع الله من كاذب أو خائن، فيا لها من منقبة يحمد عليها كل من كانت له خلقا.
وليس لخلق أثر وفضل غير الصدق، فهذا الصادق تجد له في نفوس الناس _ العدو قبل الصديق _ قدرا ومنزلة؛ فتجد العدو ينظر إليه بشرف وتقدير على عدواته وخصومته، وتجد الصديق يؤمِّنه على ما لا يؤمن عليه أحد من العالمين. لكن الجائزة الكبرى والفوز العظيم هو فعل الله معه فالله (تعالى) جعل له منح ربانية جزاء لفعله.
ومنها أَمْر الله بالحرص على صحبته؛ لقوله ()تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ" (التوبة: ١١٩)
وجعل (سبحانه) مع الصادق بركة وزيادة في الرزق فقال ﷺ: في شأن الصادقين في بيعهم"فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بورك لهما في بيعهما". [١]
بل إن أرجى منزلة للصادقين الثناء في الملأ الأعلى، وحسن الخاتمة؛ فمن كتب عند الله صديقا فهو بلا شك كما في الحديث من الأبرار، والأبرار في الجنة.
عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم)، قَالَ: " إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ صِدِّيقًا. وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا" [٢]
ومنها عدم الخذلان بين الخلق في الدنيا؛ ألم ترى قول أم المؤمنين خديجة (رضي الله عنها) كما في حديث بدء الوحي لما قالت للنبي(صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم): (إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ،

---

١ - رواه البخاري (٢١١٠)
٢ - رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧)

وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ علَى نَوَائِبِ الحَقِّ) [1] فجعلت من جملة صفاته التي استدلت بها أن الله (تعالى) لن يخزيه (صلى الله عليه وسلم) الصدق.

فإن كنت صادق اللسان صادق القلب صدقك الله في حالك في الدنيا، ومآلك في الآخرة .

---

[1] - رواه البخاري (٦٩٨٢)

٨٨- كف عن الناس شرَّك تكن من الفائزين

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قالَ رَسولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ):" قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: إذا تَحَدَّثَ عَبْدِي بأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً، فأنا أكْتُبُها له حَسَنَةً ما لَمْ يَعْمَلْ، فإذا عَمِلَها، فأنا أكْتُبُها بعَشْرِ أمْثالِها، وإذا تَحَدَّثَ بأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، فأنا أغْفِرُها له ما لَمْ يَعْمَلْها، فإذا عَمِلَها، فأنا أكْتُبُها له بمِثْلِها. وَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: قالتِ الملائِكَةُ: رَبِّ، ذاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، وهو أبْصَرُ به، فقالَ: ارْقُبُوهُ فإنْ عَمِلَها فاكْتُبُوها له بمِثْلِها، وإنْ تَرَكَها فاكْتُبُوها له حَسَنَةً، إنَّما تَرَكَها مِن جَرَّايَ. وَقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: إذا أحْسَنَ أحَدُكُمْ إسْلامَهُ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُها تُكْتَبُ بعَشْرِ أمْثالِها إلى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ، وكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُها تُكْتَبُ بمِثْلِها حتَّى يَلْقَى اللَّهَ. " [١]

ومحل الشاهد في الحديث الشريف "فإذا هم بسيئة ولم يعملها كتبت له حسنة" وهذا _ والله_ من روعة وجمال وبهاء وتمام وكمال وحسن تلك الشريعة الغراء المباركة، فمهما قل نفعك للناس تؤجر. وكيف هذا؟ هذا كما وضح النبي (صلى الله عليه وسلم) فقط بأن تكف عن الناس الأذي الذي يَرِد على خاطرك ويطرأ على نفسك فتؤجر وترد كيد الشيطان، بل قد يكتب لك الله منزلة في قلوب الناس، ودرجة عنده أن كنت كافًا لشرك عن الخلق. فهذا بيان أن كف شرك عن الناس تؤجر عليه، وإن لم تكن لهم نفعا.

وليس هذا تخذيل عن العمل أو كف الهمم عن الاجتهاد والسعي، أو تعطيل لشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن الأمر قد يغلب

---

[١] - رواه البخاري (٤٢)، ومسلم (١٢٩)، وأبو نعيم (٣٤٩)

الإنسان عليه، أو تنزع نفسه لسبب أو لآخر إلى الشر والأذي فإن جاهدها وكفها فهو والله عمل عظيم، بل هو نوع من الجهاد .
وعنه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ:" أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ"
وجهاد النفس يكون بالمنع والحث؛ بالمنع عن المعصية والأذى والحث على الطاعة؛ وكف أذاك عن الخلق من جهاد النفس.
قال ابن القيم: " فالجهاد أربع مراتِب: جهاد النفس، وجهاد الشياطين، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين .

٨٩- الذاكرون والذاكرات

قال عنترة العبسي:

ولقد ذكرتك والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم

فوددت تقبيل السيوف لأنها برقت كبارق ثغرك المتبسم.

هذا هو حال المحب الحق، وبه يضرب المثل في صدق المحبة، فهذا الذي يعاين الموت ورؤوس تتطاير وأعضاء تبتر ودماء تسيل وسيوف تبرق ورماح تخترق وفرسان تصول وأشاوس تُقْدم، وهو في خضم هذه المعمعة وهذه الحوادث يتذكر ابتسامة امرأة، ويالله العجب! فما ذكَّره بابتسامتها إلا لمعان السيوف التي تكاد تهوي عليه فتهلكه.

وهذا بحق حال المحب يذكر حبيبه في كل موضع من شدة أو لين، من هم أو فرح، من عافية أو مرض، فهؤلاء المحبون حقا، وفيهم قال رب العزة:" الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" (آل عمران – ١٩١)

هؤلاء الذين مدحهم الله في مواضع شتى من كتابه، وهؤلاء الذين جعل الله لهم الذكر مادة القوة والصبر والنصر والتقوى و الفوز والرباح والمغفرة، فقال (تعالى):" وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ " (الأعراف: ٢٠٥)

وقال (تعالى):" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (الأنفال: ٤٥)

وقال (عز وجل): "رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ "(النور: ٣٧)

وقال (سبحانه): " اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ" (العنكبوت: ٤٥)
وقال (تبارك وتعالى):" وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" (الأحزاب: ٣٥)
وقال (جل ذكره): " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا " (الأحزاب: ٤١)
وقال (تعالى): " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ " (المنافقون: ٤٢)
وقد ورد في فضل الذكر ودرجته، ومنزلة الذاكرين وأثر الذكر في حياتهم أحاديث لا يتسع سفر عظيم لذكرها، نذكر منها ما يلي من النذر اليسير والأثر الكبير.
فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال النبي (صلى الله عليه وسلم):" سبَق المفردون، قالوا: وما المفردون يا رسول الله، قال: الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات" [١]
وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (مثلُ الذي يذكُر ربَّه والذي لا يذكر ربَّه، مثلُ الحي والميت" [٢]
و عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل: أي العباد أفضل عند الله يوم القيامة؟ قال: (الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات)، قلت: يا رسول الله، ومَن الغازي في سبيل الله، قال:

---

١ - رواه مسلم (٢٦٧٦)، وابن حبان (٨٥٨)
٢ - رواه البخاري (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩)

"لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دمًا، لكان الذاكرون الله أفضل منه درجة" [١]

و عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم):" ألا أُنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخيرٌ لكم من إنفاق الذهب والوَرِق، وخيرٌ لكم من أن تلقوا عدوَّكم، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ذكر الله" [٢]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):" قال الله (عز وجل): "عبدي أنا عند ظنك بي، وأنا معك إذا ذكرتني" [٣]

وعن عبدالله بن بُسر (رضي الله عنه) أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثُرت علي، فأخبرني بشيء أتشبث به، قال:" لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله" [٤]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقول الله عز وجل: (أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكَرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هم

---

١ - رواه الترمذي (٣٣٦٧)

٢ - رواه الترمذي (٣٣٧٧) واللفظ له، وابن ماجه (٣٧٩٠)، وأحمد (٦/ ٤٤٧).، ومالك في الموطأ (٥٢٤)

٣ - رواه الحاكم في المستدرك (١٨٥٢)

٤ - رواه الترمذي (٣٣٧٥) ، وابن حجر في الفتوحات (١/ ٢٥٧)

خيرٌ منهم، وإن تقرَّب مني شبرًا تقرَّبت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت منه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيتُه هرولةً." [1]
وحسبك من آيات وأحاديث الذكر ما قد قدمت حتى تعرف المنزلة والدرجة والبركة، لكن هناك شيء يميز الذاكر أنه موصول دائما بربه، سائر دائما في معيته، عائذ دائما بجنابه، لائذ دائما بحماه، لا يعرف له في الملمات مُستغاثا يستغييثه سوى ربه، وفي الرخاء محمودًا يحمده سوى ربه، وفي المرض شافيا يشفيه سوى ربه، وفي الضيق رازقا يرزقه سوى ربه، وفي الاختلاط هاديا يهديه سوى ربه.
فكيف به وهو على كل حال يذكر ربه، أتراه سيكون مهموما؟! أتراه سيكون محزونا؟! أتراه سيكون يائسا مكتئبا؟!

تدبر حال الذاكرين والذكرات ستجدهم _ والله _ أسعد الناس، فهم صادقو المحبة و مخلصو النية، هم الذين لا يفترون عن الذكر لأن ذكر المحبوب هو شفاؤهم وسلواهم وقوتهم وزادهم وسعادتهم.
وتدبر حال المعرضين عن الذكر، ويكفيك قول الله (تعالى):" وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى" (سُورَةُ طه: ١٢٤).

[1] - رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)

٩٠- أنت المُخاطب.

قال (تعالى):" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا " (النساء: ١)
قال (تعالى):" قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ" (النور:٢٩)
وقال (تعالى):" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ " (فاطر:٣)
وقال (تعالى):" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا (٦) " (التحريم: ٦)
وقال (تعالى):" يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِين (١٥٣) " (البقرة: ١٥٣)
وقال (تعالى):" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(٧١) " (الزخرف- ٧٠: ٧١)
وقال (تبارك وتعالى): " يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ "(يونس:٥٧)
وقال (سبحانه):" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ "(لقمان: ٣٣)
وقال (جلَّ ذكره:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا" (فاطر: ٥)
تعددت صيغ الخطاب من الله (تعالى) لعباده برهم وفاجرهم، مسلمهم وكافرهم، العالم منهم والجاهل، المحسن منهم والمفرط، وكل متدبر

ينظر الخطاب وحاله، وينظر في نفسه أهو المقصود بهذا الخطاب؟ هل هذه الآية تعنيه هو؟ هل حاله من الحالات الآنف ذكرها فيتنبه لمقتضى الخطاب؟

والموفق حقا هو من هداه الله (تعالى) فيقع الأمر في قلبه ويدرك أنه المخاطب كلٌ بحسب حاله ومقامه وعمله.

ثم تأتي الثانية فبعد الفهم والعلم يأتي العمل، لكن من أعظم عقوبات الله الخفية على العبد ان يصرفه عن الفهم أن يجعله أن يظن أنه ليس من أهل هذه الآية أو تلك، فلا تراه يهتدي أو يسأل عن حاله وحكمه فيثبت أو يرجع، وهذا والله من شدة غضب الله على عبد.

فقال تعالى: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا " (الكهف: ٥٧)

فانظر كيف كانت العقوبة لمن ذكر فأعرض عن مقتضى الخطاب ظنا منه أنه ليس المخاطب كبرا كان أو تفريطا.

ثم تدبر برويّة قوله (جل ذكره):" وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ" (الأعراف: ١٧٥)

فهذا الذي خاطبه الله بكل سبيل ترهيبا وترغيا، وعدا ووعيدا لم يرد إلا سبيل الانسلاخ فكان صيدا سهلا سمينا للشيطان فغوى.

بل إن من أشد العقوبات على ذلك المعرض عن مقتضى الخطاب قوله (تعالى):" قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥)" (مريم: ٧٥)

والله (تعالى) اصطفانا واختصنا دون الأمم بكتاب أحكمت آياته، أنزله علينا بلسان عربي مبين، مع خير رسله النبي الأمين، فقال (تعالى):" لَقَدْ

مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ " (آل عمران:١٦٤)

فلما كانت تلك النعمة ظاهرة قائمة دائمة محفوظة وجب على كل موحد عاقل أن يعمل بقوله (تعالى)

:" قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (يونس: ١٠٨)

وقوله (تعالى):" الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَـٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨)" (الزمر: ١٨)

ولا يكن ممن قال الله فيهم:"وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا " (نوح: ٧)

أي: سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه . كما أخبر (تعالى) عن كفار قريش": وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) " فصلت: ٢٦)

" واستغشوا ثيابهم " قال ابن جريج، عن ابن عباس: تنكروا له لئلا يعرفهم . وقال سعيد بن جبير والسدي: غطوا رءوسهم لئلا يسمعوا ما يقول .

فأنت المخاطب فاستمع بالأذن والقلب، لأن ذلك أرجى وأيسر في عمل الجواح، فأنت المخاطب فلا تعرض فيعرض الله عنك

٩١: كن شجرة

نعم كن شجرة لا شيئا آخر، واختر أي نوع تحب لا يهم، المهم كن شجرة، غيِّر أوراقك كل فصل، أو ألقها مطلقا، أو حتى احتفظ بها طوال عمرك، اختر لنفسك ما اشتهيت من لون الأوراق؛ إن شئت أخضرا، أو أحمرا، أو أصفرا، أو اجمع بينها جميعا.

أمر آخر غير مهم أيضا؛ لا يهم طولك أو حجمك عندما تتحول إلى شجرة؛ تناطح الجبال طولا، أو تبقى في ظلال إخوانك من أشجار البلوط والكافور والزيتون والفواكه والصندل، وغيرها، أيضا لا يهم، حتى كونك تصبح شجرة لا تثمر أمر مثل ما سبق غير مهم.

إذن ما المميز في كوني شجرة، بعدما عدَّدت تلك الأهميات المنعدمة، أو المهملة... المميز يا صديقي أنه سيكون لك جذور وأصل ثابت في أرض مباركة، تروى بماء طاهر، وتعيش في صعيد طاهر، لا تقدر عليها ريح السموم، ولا تزيلها السيول.
فإن أصاب أوراقك وأغصانك يوم من الدهر _ وأنت شجرة_ مرض أو داء، فتساقط الورق ووهن الغصن، بقى لك الجذر أمانا وأملا في الانبعاث من جديد، وإن تداعى عليك شارد من طير أو حيوان أو هامة فأكلوا منك الأخضر، وكسروا منك الغض و الأوطاب، أمدك الجذر بما يعيدك مخضرا متجددا مرفوع الرأس.

يا معشر الأشجار قد تكونوا ثابتين في أماكنكم، لم ترتحلوا مع الأيام ارتحال الطير والهوام، ولم تروا تقلب الناس في البلاد ولا العمران، لكنكم

الأكثر ثابتا وصلة، والأعظم برا ومرحمة، تفيضيون بالخير و تحفظون الإرث، وتحرسون الفضيلة، و تثبتون الحياء على البقاء.

يا صاحب الجذر الأصيل التليد، قد زرعت في أرضك ما ربا عن أربعة عشر قرنا، فإياك أن تهن مهما هبت رياح مسمومة حارة كانت أم باردة، فأسقطت الورق، و وأدت الثمار، وقتلت البراعم، واعلم أن ذلك الجذر قد مد أوصاله في كل مسلك على هذا الكوكب، حتى يعيد انبعاثك، فاحذر أن تقطع الصلة بجذرك، فهو ضمانك للعودة للحياة.

٩٢- تاكيو أوساهير... رجل صنع أمة

بعد إلقاء القنبلتين النوويتين الحرب العالمية الثانية على مدينتي (هيروشيما و نجازكي) اليابانيتين، وخرجت اليابان من الحرب شبه مدمرة ومستنذفة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا، وكما جرت سنة الله في خلقه، فالأمم لا تعرف طبائعها ولا معادنها إلا في الأحداث الجسام، وليس أشد من الحروب الحديثة تدميرا و تخريبا.
وما قيام الأمم إلا بأبنائها، فمهما كان الخراب والدمار فإن أبناء الأمة العظماء ذوي الهمم هم من يعيدون البناء ويزيلون أثر الخراب، ويساعدون أوطانهم أن تقف شامخة مرفوعة الهامة من جديد، وقد يكون ابنا واحدا هو من يساعد وطنه الأم، وهذا بالضبط يكاد أن يكون ما فعله ذلك المهندس الياباني (تاكيو أوساهير) فها هو ذا يحكي قصته، فيقول:

ابتعثتني حكومتي للدراسة في جامعة هامبورغ بألمانيا، لأدرس أصول الميكانيكا العلمية، ذهبت إلى هناك و أنا أحمل حلمي الخاص الذي لا ينفك عني أبداً، والذي خالج روحي وعقلي وسمعي وبصري وحسي، كنت أحلم بأن أتعلم كيف أصنع محركاً صغيراً.

كنت أعرف أن لكل صناعة وحدة أساسية أو ما يسمى موديلاً وهو أساس الصناعة كلها، فإذا عرفت كيف تصنعه وضعت يدك على سر هذه الصناعة كلها .

وبدلاً من أن يأخذني الأساتذة إلى المعمل أو مركز تدريب عملي، أخذوا يعطونني كتباً لأقرأها، وقرأت حتى عرفت نظريات الميكانيكا كلها،

ولكنني ظللت أمام المحرك، أياً كان قوته، وكأنني أقف أمام لغز لا يحل، كأني طفل أمام لعبة جميلة لكنها شديدة التعقيد لا أجرؤ على العبث بها .

كم تمنيت أن أداعب هذا المحرك بيدي، كم أشتاق إلى لمسه والتعرف على مفرداته وأجزائه، كم تمنيت لمه وضمه وقربه وشمه، كم تمنيت أن أعطر يدي بزيته، وأصبغ ثيابي بمخاليطه، كم تمنيت وصاله ومحاورته والتقرب إليه، لكنها ظلت أمنيات .. أمنيات حية تلازمني وتراودني أياماً وأياماً .

وفي ذات يوم قرأت عن معرض محركات إيطالية الصنع، كان ذلك أول الشهر وكان معي راتبي، وجدت في المعرض محركاً بقوة حصانين، ثمنه يعادل مرتبي كله، فأخرجت الراتب ودفعته، وحملت المحرك وكان ثقيلا جداً، وذهبت إلى حجرتي ووضعته على المنضدة، وجعلت أنظر إليه كأنني أنظر إلى تاج من الجواهر، وقلت لنفسي: هذا هو سر قوة أوروبا، لو استطعت أن اصنع محركاً كهذا لغيرت اتجاه تاريخ اليابان، وطاف بذهني خاطر إن هذا المحرك يتألف من قطع ذات أشكال وطبائع شتى، مغناطيس كحدوة الحصان، وأسلاك وأذرع دافعة، وعجلات وتروس وما إلى ذلك، لو أنني استطعت أن أفكك قطع هذا المحرك وأعيد تركيبها بالطريقه نفسها التى ركبوها بها ثم شغلته فاشتغل، أكون قد خطوت خطوة نحو سر موديل الصناعة الأوروبيه .

بحثت في رفوف الكتب التى عندي، حتى عثرت على الرسوم الخاصة بالمحركات، وأخذت ورقًا كثيرًا، وأتيت بصندوق أدوات العمل، ومضيت أعمل. رسمت منظر المحرك بعد أن رفعت الغطاء

الذي يحمي أجزاءه، ثم جعلت أفكك أجزاءه قطعة قطعة، وكلما فككت قطعة رسمتها على الورق بغاية الدقه وأعطيتها رقماً، وشيئاً فشيئاً فككته كله، ثم أعدت تركيبه وشغلته فاشتغل، كاد قلبي يقف من الفرح، واستغرقت العمليه ثلاثة أيام، كنت آكل في اليوم وجبة واحدة، ولا أصيب من النوم إلا ما يمكنني من مواصلة العمل .

وحملت النبأ إلى رئيس بعثتنا فقال: حسنًا ما فعلت، الآن لابد ان أختبرك سآتيك بمحرك متعطل، وعليك أن تفككه وتكتشف موضع الخطأ وتصححه وتجعل هذا المحرك العاطل يعمل، وكلفتني هذه العمليه عشرة أيام، عرفت أثناءها مواضع الخلل، فقد كانت ثلاث من قطع المحرك بالية متآكلة صنعت غيرها بيدي ؛ صنعتها بالمطرقة والمبرد، لقد كانت هذه اللحظات من أسعد لحظات حياتي، فأنا مع المحرك جنبًا إلى جنب ووجها إلى وجه، لقد كنت سعيدًا جدًا رغم المجهود الكبير الذي بذلته في إصلاح هذا المحرك . قربي من هذا المحرك أنساني الجوع والعطش ... لا أأكل في اليوم إلا وجبة واحده، ولا أصيب من النوم إلا القليل، ثم تأتي اللحظات الحاسمة لاختبار أداء عملي لإصلاح هذا المحرك بعدما جمعت أجزاء المحرك من جديد . وبعد قضاء عشرة أيام من العمل الشاق، أخذت يدي تقترب لإدارة المحرك . وكم كنت أحمل من القلق والهم في تلك اللحظات العصيبة ... هل سيعمل هذا المحرك؟ هل سأنجح بعدما أدخلت فيه بعض القطع التى صنعتها ؟! وكم كانت سعادتي واعتزازي بعدما سمعت صوت المحرك وهو يعمل ... لقد أصلحته، لقد نجحت .

بعد ذلك قال رئيس البعثة عليك الآن أن تصنع قطع المحرك بنفسك، ثم تركبها محركاً، ولكي أستطيع أن أفعل ذلك التحقت بمصانع صهر

الحديد وصهر النحاس والألمونيوم، بدلاً من أن أعد رسالة الدكتوراه كما أراد أستاذي الألماني، تحولت إلى عامل ألبس بدلة زرقاء وأقف صاغرًا إلى جانب عامل صهر معادن، كنت أطيع أوامره كأنه سيد عظيم حتى كنت أخدمه وقت الأك، مع أنني من أسرة ساموراي، والأسرة الساموراية هي من أشرف وأعرق الأسر في اليابان، لكنني كنت أخدم اليابان، وفي سبيل اليابان يهون كل شيء .

قضيت في هذه الدراسة والتدريبات ثماني سنوات كنت أعمل خلالها ما بين عشر وخمس عشر ساعة في اليوم، بعد انتهاء يوم العمل كنت آخذ نوبة حراسة، وخلال الليل كنت أراجع قواعد كل صناعة على الطبيعة .

وعلم الميكادو (إمبراطور اليابان) بأمري، فأرسل لي من ماله الخاص خمسة آلاف جنيه إنجليزي ذهبا، اشتريت بها أدوات مصنع محركات كاملة وأدوات وآلات وعندها أردت شحنها إلى اليابان كانت النقود قد نفذت، فوضعت راتبي وكل ما ادخرته خلال تلك السنوات الماضيه لاستكمال إجراءات الشحن .

وعندما وصلنا إلى ناجازاكي قيل لي إن الميكادو يريد أن يراني، قلت لن أستحق مقابلة إلا بعد أن أنشئ مصنع محركات كاملاً استغرق ذلك تسع سنوات. تسع سنوات من العمل الشاق والجهد المتواصل.

وفي يوم من الأيام حملت مع مساعدي عشرة محركات (صُنعت في اليابان) قطعة قطعة، حملناها إلى القصر، ووضعناها في قاعدة خاصة بنوها لنا قريبا منه، ثم أدرنا جميع المحركات العشرة، دخل الميكادو

وانحنينا نحييه وابتسم، وقال: هذه أعذب موسيقى سمعتها في حياتي، صوت محركات يابانيه خالصة .. هكذا ملكنا الموديل وهو سر قوة الغرب، نقلناه إلى اليابان، نقلنا قوة أوربا إلى اليابان، ونقلنا اليابان إلى الغرب، وبعد ذلك الحدث السعيد ذهبت إلى البيت فنمت عشر ساعات كامله لأول مرة في حياتي منذ خمس عشر سنة .

هذا باختصار رجل بنى مجد أمة، وليس هذا يساوي في أمتنا مئات بل آلاف من بنوا مجد تلك الأمة، لكني أردت ضرب المثل بقصة معاصرة، رأى الناس ممن لا يزالون على قيد الحياة جزءا منها، وعاينت الأجيال الحالية آثرها.

فهلا كنت أنت (تاكيو أوساهير) أمتك!

٩٣- الإحسان لا التميز

التميز كلمة لها وقع في النفس، ومصطلح له رنين كحلقات الذهب، ويستخدمه الناس في كل ميادين الحياة في واقعنا المعاصر اليوم، لكنه مصطلح فيما أرى لا يعبر عن شيء، بل قد يكون التميز غير ذي قيمة، بل قد يكون شرا مستطيرا، وسوء وفسوقا؛ ألا ترى السارق يتباهى باتقانه السرقة، والراقصة تزهو بتميزها في كشف ما أمر الله بستره، والظالم يتفاخر بخوف الناس منه، كل هذه نماذج للتميز.

وتدبر معي ذكر التميز، والتمايز في كتاب الله، قال تعالى:" وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ" (٥٩: يسن)

القول في تأويل قوله تعالى: وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩)

وقد ذكر الإمام الطبري في تفسيره: يعني بقوله (وَامْتَازُوا): تَميزوا؛ وهي افتعلوا، من ماز يميز، فعل يفعل منه: امتاز يمتاز امتيازا.

ثم قال: حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) قال: عُزِلوا عن كل خير .

حدثنا أبو كُرَيب، قال: ثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي، عن إسماعيل بن رافع، عمن حدثه، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة، أن رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم قال: " إذَا كانَ يَوْمُ القِيامَةِ أمَرَ اللهُ جَهَنَّمَ فَيَخْرُجُ مِنْها عُنُقٌ ساطِعٌ مُظْلِمٌ، ثُمَّ يَقُولُ: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ) .. الآية، إلى قوله هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) فيَتَمَيَّزُ النَّاسُ ويَجْثُونَ، وَهِيَ قَوْلُ اللهِ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ ... الآية " .

فتأويل الكلام إذن: وتميزوا من المؤمنين اليوم أيها الكافرون بالله، فإنكم واردون غير موردهم، داخلون غير مدخلهم. (توثيق)
فجعل الله التميز تميز للمجرمين عن المؤمنين، فهو هنا بلا شك ليس تمايزهم وتميزهم أمر مدح.
ولكن إذا كان التميز أمر لا يجب أن يحرص الإنسان عليه، أو يسعى إليه سعيا، فما الذي يجب أن يسعى إليه ويحرص عليه؟!
الواجب على كل ذي عقل أن يسعى إلى الإحسان، وكيف لا والله جعله أعلى المراتب في تمام عبودية العبد وكمال مراتبه، فهو كما في الحديث عن عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ قالَ: بيْنَما نَحْنُ عِنْدَ رَسولِ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ) ذاتَ يَومٍ، إذْ طَلَعَ علينا رَجُلٌ شَدِيدُ بَياضِ الثِّيابِ، شَدِيدُ سَوادِ الشَّعَرِ، لا يُرَى عليه أثَرُ السَّفَرِ، ولا يَعْرِفُهُ مِنَّا أحَدٌ، حتَّى جَلَسَ إلى النبيِّ (صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ) فأسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إلى رُكْبَتَيْهِ، ووَضَعَ كَفَّيْهِ علَى فَخِذَيْهِ. وَقالَ: يا مُحَمَّدُ أخْبِرْنِي عَنِ الإسْلامِ، فقالَ رَسولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ): الإسْلامُ أنْ تَشْهَدَ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، وتُقِيمَ الصَّلاةَ، وتُؤْتِيَ الزَّكاةَ، وتَصُومَ رَمَضانَ، وتَحُجَّ البَيْتَ إنِ اسْتَطَعْتَ إلَيْهِ سَبِيلًا، قالَ: صَدَقْتَ، قالَ: فَعَجِبْنا له يَسْأَلُهُ، ويُصَدِّقُهُ، قالَ: فأخْبِرْنِي عَنِ الإيمانِ، قالَ: أنْ تُؤْمِنَ باللَّهِ، ومَلائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، والْيَومِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ، قالَ: صَدَقْتَ، قالَ: فأخْبِرْنِي عَنِ الإحْسانِ، قالَ: أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ" [1]

[1] - رواه البخاري (٥٠)، و مسلم (٨)

وفي الإحسان معان شتى وفوائد جمة، فالإحسان فيه تحقيق معنى العبودية الحقة لله، وفيه معاني الإخلاص والتجرد والتواضع وسلامة القلب ووضح القصد .
هذا بخلاف التميز الذي لا يكاد يخلو من معان غامضة أو مختلط فيها الحق بالباطل، وقد يخامره حظ النفس.

٩٤- لا تحكم بالقطعة فالأعمال بالخواتيم

سمعت يوما حوارا تلفزيونيا، أو بالأحرى محاورة بين مجموعة من الكتاب والمثقفين والمفكرين وكان غالبهم من المشهورين، كان العضو الرئيس فيها أحد الكتاب المشهورين ممن يشار إليهم بالبنان، وكان في بداية شهرته وانتشاره، وكان قد أنشأ حالة من الزخم الأدبي والجدل الاجتماعي بسبب روايته التي اشتهرت وذاع صيتها آنذاك، فأعجبت جدا لحديثه دفاعا عن وجهة نظره في تلك الرواية، وكان كلامه وقتها يتفق مع هواي الفكري، وكانت لغته قريبة إلى لغة الحوار العقلانية التي أفضلها، بالإضافة إلى تفوقه آنذاك على أطراف الحوار ممن كانوا ضيوفا معه في تلك الحلقة، وظننت أن هناك من لبس زي الرافعي، واستل قلم محمود شاكر، وتكلم بلسان المنفلوطي من جديد، وأن هناك من ركب الخيل مرة أخرى بعدما خلت الساحة للمغربين والمستغربين والغاربين.

مرت الأيام والسنون وأنا أعيش على ذكرى تلك المناظرة، منتشيا بتلك الرواية التي أنشأها صاحبنا المأمول فيه حمل لواء الثقافة والأدب بصبغتها الإسلامية العربية، لكن مهلا فليست كل سوداء تمر، فكانت الأيام كعادتها ولادة، لكن ولادتها هذه المرة كانت عجيبة محيرة، كما يقول المثل الشعبي (البطن قلابة) لكن قلبتها هذه المرة محيرة غريبة مريبة، فهو هو الوجه، وهو هو الصوت لكن هناك شيء مختلف في العين و في هوى العقل وفي نزعة القلب البادية في ثنيات الحروف وفواصل الكلمات، نعم إنه هو نفس الكاتب ونفس الاسم ولكن.

إن الثبات على المبدأ والتمسك بالأصل مطلب شرعي ودعاء نبوي، فقد روي أنَ رسولُ اللَّهِ (صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ) يُكثِرُ أن يقولَ: "يا مقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلبي على دينِكَ" فقلتُ: يا نبيَّ اللَّهِ آمنَّا بِكَ وبما جئتَ بِهِ

فَهل تخافُ علَينا ؟ قالَ: نعَم إنَّ القلوبَ بينَ إصبَعَينِ من أصابعِ اللَّهِ يقلِّبُها كيفَ شاء. .[1]

فثبات القلب على أمر قد جمعه الله فيه من دعاء الأنبياء، ومن نعم الله على عباده، والعبد مفتون كل يوم بفتن عظيمة، وصارت في هذا الزمان تموج موجا كقطع الليل المظلم.

وأنا أو أنت لسنا بمعصومين، وليس لنا عند الله إلا الرحمة بعد العمل، فالمرحوم الناجي هو من ثبت حتى الممات ولم يبدل، ونجاه الله من الفتن. والمفتون ذلك الذي بدأ أمره كالنبع الصافي ثم ما لبث أن أورد عليه من الفتن بما كسبت يداه حتى تحول إلى بِرْكة منتنة، فمن كان قد رأيته في بداية الدرب على أمر قويم رَشَدا فارجُ الله له الثبات والسلامة، ولا تقطع له بحكم إلا مع طول الزمان وحسن الخاتمة إن شاء الله.

---

[1] - رواه ، والترمذي واللفظ له (٢١٤٠)

٩٥- الحمد لله أن هذا لم يحدث!

يكاد المرء يموت كمدا وحسرة وضيقا من فوات أمرٍ لم يحصله، يدعو الله ليل نهار أن يحقق له أمنيته ورغبته، يأخذ بكل سبب هو مستطيعه، تمر الأيام والسنون وهو يسعى وما يزيده الله إلا بعدًا عن أمره المزمع، حتى يستسلم ويهدأ وفي نفسه من فوات الأمر من الضيق والألم ما لا يعلمه إلا الله، ويأبى الله (تعالى) إلا أن يعلم عبده حسن تدبيره، وتمام علمه وقيوميته على عباده، فيظهر له (سبحانه) مآل الأمر من طرف خفي أو أمر ظاهر، فيعلم ويرى نتائج الأمر الذي كان يرجوه ويتمناه في غيره ربما، أو في موقف يحكى له، أو بعد اكتمال آلة العقل لديه، فما تراه إلا يقول: (الحمد لله أن هذا لم يحدث)

وقد ضرب الله (تعالى) المثل بأناس أمثال هؤلاء، كما في قصة قارون، فقال (تعالى):" فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِۦ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) " (القصص: ٧٩- ٨٢)

قال مجاهد: فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ) قال: على براذين بيض, عليها سروج الأرجوان, عليهم المعصفرات.[١]

---

١ - تفسير بن كثير

وقال ابن جُرَيج: على بغلة شهباء عليها الأرجوان, وثلاث مائة جارية على البغال الشهب, عليهن ثياب حمر.[1]
وهي بحق زينة فتانة تتلألا في عيون الناس وتفتن قلوبهم، تجعل الأمنيات تدور برؤوسهم، والخيالات تخايل ألبابهم، لكنه (سبحانه) عليم حكيم، له العلم كله، وله الحكمة البالغة وإليه ترجع الأمور، منع عن هؤلاء القوم زينة تغلف عذاب، وفرح عاجل يغلف شقاء دائم.
ولما بان للقوم مآل قارون كان فهمهم وحمدهم على المنع وليس على العطاء، فلو أعطاهم الله ما تمنوا لكان هذا هلاكهم.
والعاقل من فوض الامر لله، وقال حسبي ربي توكلت على ربي له الأمر كله، فما يكون من منع إلا لخير، وما يكون من عطاء إلا لخير، والحكيم من سأل الله الرضا والصبر والبصيرة، والمعافاة من العجلة والقنوط و شتات الرأي والانخداع بفتن الدنيا.

---

١ - تفسير بن كثير

٩٦- ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾

كثيرا ما كنت أصبر نفسي وإخوتي ممن شاركني الهم بهذه العبارة، وأحثهم حثا على القيام بشرطها، ألا وهو الإيمان واليقين بدفع الله عن عبده، ومعيته الدائمة الكاملة التامة وحكمته البالغة في تدبير ذلك الدفع.

وكثيرا ما كان يحضرني مع الآية موقفين مباركين معلومين من قصتين أوردهما ربنا (سبحانه وتعالى) في كتابه العزيز؛ الأولى قصة أم موسى (عليه السلام) لما أوحى الله إليها كما في قول (تعالى):" **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)**" (القصص: ٧) **وقد رده الله إليها وأقر به عينها وآتاه الله النبوة وجعله من أولى العزم من الرسل.**

والثانية قصة مريم و نبي الله عيسى (عليهما السلام) لما جاءت به قومها كما في قوله (تعالى):" فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا)٢٨ (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا)٢٩ (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠)" (مريم-٢٧: ٣٠)

فهذه مريم (عليها السلام) تلك الأمة النقية الصالحة التي أيقنت بأمر ربها، فلزمت الصمت كما أمرها رب العزة، ثم أشارت لما لا يتوقع منه الكلام؛ فعيسى (عليه السلام) مازال صبيا رضيعا، لكن يقينها في أمر الله وإيمانها الراسخ كالجبال جعلها تلزم أمر الله.

ومن تتبع قصص الأنبياء وسير الصالحين يجد هذا المعنى العجيب المبارك متحققا في كل ما ذكر لنا من مواقف حياتهم التي حققوا فيها

الإيمان الراسخ، والعبودية الحقة، فكان وعد الله لهم بالنصر والظهور على عدوهم وثواب الدنيا والآخرة.
واليقين في أمر الله (تعالى) والإيمان به هو سبيل حفظهم ونجاتهم من كل غائلة ومن تدابير شياطين الإنس والجن جميعا، فالله (تعالى) يقول:" إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)" (الحج: ٣٨) وفي التفسير يخبر الله (تعالى) أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم.
ولكن اليقين بدفع الله لابد أن يصحبه يقين آخر بتدبير الله وحكمته البالغة، فهو (سبحانه) له من تمام العلم والتدبير والحكمة ما يجل عن العقول، فلا يستبطئن أحدنا نصر الله، ولا يُعْمِلَّن أحدنا عقله في الكيفية أو المسلك، لكن تمام اليقين في قيومية الله و تدبيره تجعلك واثقا في نصره ودفعه.
فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال:" لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم، أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل، قيل: يا رسول الله، وما الاستعجال؟ قال: يقول: قد دعوت، وقد دعوت، فلم أر يستجب لي، فيستحسر، ويدع الدعاء."
وفي الحديث القدسي: أنا عند حسن ظن عبدي بي، فإن ظن بي خيرًا فله، وإن ظن بي شرًّا فله. رواه أحمد، وصححه الأرناؤوط، والألباني.
فكن على يقين من أن الله سيدافع عنك ويحوطك ويحفظك إن آمنت وأيقنت، وهو (سبحانه) لا يخلف وعده.

٩٧- تسبح الطير معك.

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (سبأ: ١٠)

كان من نعم الله السابغة على داوود (عليه السلام) الكثير والكثير، وقد اختصه (تعالى) بنعم لم يجعلها لأحد بعده، وقابل داوود (عليه السلام) النعم بالشكر، ومن بعده ابنه نبي الله سليمان (عليه السلام)

أي: ولقد مننا على عبدنا ورسولنا, داوود عليه الصلاة والسلام, وآتيناه فضلا من العلم النافع, والعمل الصالح, والنعم الدينية والدنيوية، ومن نعمه عليه, ما خصه به من أمره تعالى الجمادات, كالجبال والحيوانات, من الطيور, أن تُؤَوِّب معه, وتُرَجِّع التسبيح بحمد ربها, مجاوبة له، وفي هذا من النعمة عليه, أن كان ذلك من خصائصه التي لم تكن لأحد قبله ولا بعده, وأن ذلك يكون منهضا له ولغيره على التسبيح إذا رأوا هذه الجمادات والحيوانات, تتجاوب بتسبيح ربها, وتمجيده, وتكبيره, وتحميده, كان ذلك مما يهيج على ذكر الله تعالى.

ومنها: أن ذلك - كما قال كثير من العلماء أنه طرب لصوت داوود، فإن الله تعالى قد أعطاه من حسن الصوت ما فاق به غيره وكان إذا رجَّع التسبيح والتهليل والتحميد بذلك الصوت الرخيم الشجيِّ المطرب طرب كل من سمعه من الإنس والجن، حتى الطيور والجبال وسبحت بحمد ربها. ومنها: أنه لعله ليحصل له أجر تسبيحها لأنه سبب ذلك وتسبح تبعا له. [١]

---

[١] - تفسير السعدي.

وقيل: كان داوود عليه السلام إذا لحقه فتور أسمعه الله تسبيح الجبال تنشيطا له .[1]

[1] - تفسير البغوي

٩٨- دعوة الرسل والأنبياء

قال الله (تعالى):" وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ" (النحل: ٣٦)
وقال الله (سُبحانَه):" يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (النحل: ٢)
وما من نبي من أنبياء الله إلا كانت دعوته الصريحة المباشرة التي لا لبس ولا غموض ولا إشكال فيها هي توحيد الله الخالص، وإفراده بالعبادة، وألا يشرك عباده به أحدا.

فقال نوحٌ (عليه السَّلامُ) لقَومِه: " يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ " (الأعراف: ٥٩)
و قال هود (عليه السَّلامُ) لقَومِه: " يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ "(الأعراف: ٦٥)
وقال صالحٌ (عليه السَّلامُ) لقَومِه: " يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ (الأعراف: ٧٣)
وقال إبراهيمُ (عليه السَّلامُ) لقَومِه": اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ (العنكبوت: ١٦)
وقال شعيبٌ (عليه السَّلامُ) لقَومِه:" يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ (الأعراف: ٨٥)
وقال عيسى (عليه السَّلامُ) لقَومِه:" إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (آل عمران: ٥١)

قال شيخ الإسلام: فإنَّ الرُّسُلَ جميعَهم أمِروا بالتَّوحيدِ وأَمَروا به؛ قال اللهُ تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا

فَاعْبُدُونِ (الأنبياء: ٢٥)، فبَيَّن أنَّه لا بدَّ أن يوحيَ بالتَّوحيد إلى كلِّ رسولٍ، وقال الله تعالى: وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (الزخرف: ٤٥)

فلما كانت هذه دعوة الرسل ورسالة رب الأرض والسماء إلى أهل الأرض قاطبة من لدن آدم حتى قيام الساعة، كانت هذه أهم الواجبات وأعظم الفرائض، و أشرف العلوم وأفضلها، فشرف العلم من شرف المعلوم.
ودعوة الأنبياء كانت عن الله (سبحانه) ذاته وأسمائه وصفاته و دينه وشرائعه، فلما كانت هذه دعوتهم ورسالتهم، وقد بينوا لمن أرسلوا إليهم أن الله (تعالى) لم يخلقهم سوى لتحقيق هذه الدعوة دعوة التوحيد.
وكان على العاقل الساعي إلى النجاة أن ينقطع لهذه الدعوة معرفة وعلما وتحقيقا، حتى إذا جاء يوم اللقاء سره ولم يحزنه، فقدم لحياته الحقيقة بخير علم وخير شرف، وهو معرفة الله وشرائعه، والعمل بدعوة أنبيائه.

المحتويات

١- كن من الغرباء! ٥

٢- الخصوصية. ٩

٣- احذر المنحنى! ١٣

٤- اختر معاييرك! ١٦

٥- إني تبت الآن ١٩

٦- إلى النَدَّابين ٢١

٧- أصالح أم مصلح؟! ٢٤

٨- احذر فخ أفعل التفضيل. ٢٧

٩- صانع محتوى؟ لا... ربما رويبضة ٣٠

١٠- احترس... عقلك أصبح مرحاضًا عامًا ٣٢

١١- اذكر غدراتك القديمة كلها ٣٤

١٢- أفضل نسخة منك ٣٦

١٣- خريطة المستقبل ٣٩

١٤- كيف تجبر مركب النقص لديك؟ ٤١

١٥- ما تراه عيناك، وما يصدقه قلبك ٤٣

١٦- لا تخدع نفسك التي بين جنبيك! ٤٦

١٧- مراحل تقبل التغيير ٤٨
١٨- صناعة القرار واتخاذ القرار ٥١
١٩- سيكولوجية المدخنين ٥٤
٢٠- نظرة إلى الداخل ٥٧
٢١- العبادات والعادات ٥٩
٢٢- من الوهم ما قتل ٦٣
٢٣- القدوة الحسنة ٦٦
٢٤- اقرأ عقلك أولا ٦٩
٢٥: في التنور ٧١
٢٦- جحود النعم، وإنكار الآيات ٧٣
٢٧- المحدثون ...الملهمون ٧٦
٢٨: نافس نفسك ٧٩
٢٩: الكذابون والمتوكلون ٨١
٣٠: سوء تفاهم ٨٣
٣١: الحمار يعرف الطريق وحده ٨٥
٣٢: لا تكن مجرد رقم ٨٧
٣٣: حق الله وحق العباد ٨٩
٣٤: الفطن المتغافل ٩٢

٣٥: تعلم الصبر ٩٤
٣٦: سنة التدرج وبناء الشخصية: ٩٦
٣٧:عد إلى حيث بدأت ٩٨
٣٨: الإنصاف في الخصومة ١٠٠
٣٩: الخوف من المجهول ١٠٣
٤٠: حدود المدح. ١٠٥
٤١: الخنفشاري... إياك أن تكونه! ١٠٨
٤٢: خير من ملء الأرض من هذا ١١٠
٤٣: تأثير الفراشة ١١٢
٤٤: الصفر الذهبي ١١٤
٤٥_ إذا هبت رياحك فاغتنمها ١١٦
٤٦: جمع حشفا وسوء كيل ١١٨
٤٧: احذر... صقر في السماء! ١٢١
٤٨: حفار الطين. ١٢٣
٤٩: الانتحار وفعل الصالحين وقت الشدة ١٢٥
٥٠: ذكريات مؤلمة.. ذكريات مفرحة ١٢٩
٥١: احذر جبل الجليد ١٣١
٥٢: مواقف و ثوابت ١٣٣

٥٣: هتْكُ الأستار ١٣٥
٥٤: أنت البطل ١٣٧
٥٥: شر الرعاء الحُطَمة ١٣٩
٥٦: لا ترى العالم من ثقب بابك ١٤١
٥٧: إدارة الغضب ١٤٢
٥٨: درع وسيف ١٤٥
٥٩: قاسية هي دروس الأصدقاء ١٤٧
٦٠: الاحتراق الداخلي ١٤٩
٦١: هل حقا تقرأ ما أكتب! ١٥١
٦٢: كن إمامًا ١٥٤
٦٣: الإسقاط ١٥٧
٦٤: اجعل أحلامك عظيمة ١٥٩
٦٥: كن نسخة منك ١٦٢
٦٦: احذر أن تتحول إلى ريمورا! ١٦٤
٦٧: أسطورة أبو رجل مسلوخة، وتدمير الشخصية. ١٦٦
٦٨: كن عزيزا، وما قُدِّرَ لك يأتي. ١٦٨
٦٩: لماذا لا تبدأ يومك بعد صلاة الفجر ؟ ١٧٠
٧٠: إنما جنتي في صدري ١٧٣

٧١: روح معذبة ١٧٥
٧٢: عقلي العزيز .. قلبي الغالي. ١٧٧
٧٣: قلب جليبيب ١٧٩
٧٤: إشارات ربانية ١٨٢
٧٥: غبن النعم ١٨٤
٧٦: العاطفة الدينية و المنهجية الشرعية ١٨٧
٧٧: هم رجال ونحن ذكور ١٨٩
٧٨: أنا أسعد بالدنيا منك ١٩٢
٧٩: أدمنت النظر إلى السماء ١٩٤
٨٠: الوجه الآخر للقمر ١٩٦
٨١: أم المعارك ١٩٨
٨٢: أنواع بني آدم.. ثلاثة ٢٠٠
٨٣: بُحْ ٢٠٣
٨٤- احذر هذه العبارة ٢٠٥
٨٥- من الداخل إلى الخارج ٢٠٧
٨٦- أجب عن السؤال التالي ٢١١
٨٧- من صدق الله صدقه الله ٢١٣
٨٨- كف عن الناس شرَّك تكن من الفائزين ٢١٦

٨٩- الذاكرون والذاكرات ٢١٨
٩٠- أنت المُخاطب. ٢٢٢
٩١: كن شجرة ٢٢٥
٩٢- تاكيو أوساهير... رجل صنع أمة ٢٢٧
٩٣- الإحسان لا التميز ٢٣٢
٩٤- لا تحكم بالقطعة فالأعمال بالخواتيم ٢٣٥
٩٥- الحمد لله أن هذا لم يحدث! ٢٣٧
٩٦- (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) ٢٣٩
٩٧- تسبح الطير معك. ٢٤١
٩٨- دعوة الرسل والأنبياء ٢٤٣